تقديم وتنسيق: د.ساعد خميسي

أعمال الملتقى المغاربي الثاني للمخطوطات



منشورات مخبر البحوث والدراسات
في حضارة المغرب الإسلامي

دار بهاء الدين للنشر والتوزيع

أعمال الملتقى المغاربي
الثاني للمخطوطات

جامعة منتوري قسنطينة

كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية

منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي

أعمال الملتقى المغاربي الثاني للمخطوطات



تقديم وتنسيق: د. ساعد خميسي

دار بهـــاء الدين للنشر والتوزيع

قسنطينة

الجزائر 2007

أعمال الملتقى المغاربي الثاني للمخطوطات

تقديم وتنسيق: د. ساعد خميسي

الطبعة الأولى، 2007م

دار بهاء الدين للنشر والتوزيع

العنوان: حي النخيل فيلا 55 عين الباي-قسنطينة- الجزائر

ص.ب 288 الدقسي-قسنطينة 25001- الجزائر

هاتف/فـاكس: 31.90.41.41 213 00

الـمحمـول: 70.96.64.46 213 00

البريد الالكتروني: bahaedition@caramail.com

ردمـك: ISBN : 978-9961-948-19-4

الإيداع القانونـي: Dépôt légal : 2007 -1702

غلاف: mondiale communication

الحجم: 24x16

عدد الصفحات: 256.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

ن والقلم وما يسطرون

القلم ، آية 1

تقديم

إن المخطوط «كائن برزخي" تتجاذبه إمكانية الزوال والفناء، من جهة، وإمكانية البقاء والخلود، من جهة أخرى. يخضع لمبدأ:" الكون والفساد" مهما وفرنا له من شروط وظروف الحفظ والصيانة. ولكنه في مقابل ذلك قابل للديمومة والخلود إن نحن عددنا في سبل نقله من كينونته الخطية إلى حالات تتماشى وما وفرته التكنولوجيا الحديثة من طرق تصوير ووسائط إعلامية، وتبقى إمكانية الخلود الأكثر توفرا هي دراسة المخطوط وتحقيقه وتمكين القارئ منه في كل مكان وزمان.

لهذا الغرض ، أي لأجل نقل المخطوط من حالته الآئلة للفناء والزوال إلى إمكانية بقائه والاستفادة منه في مختلف المناحي التاريخية والمعرفية والفنية...أنشئت "شبكة المخطوطات" والمؤلفة من مخابر بحث متواجدة بكبرى جامعات الوطن تهتم بالتراث المخطوط على وجه الخصوص وبالتراث العربي الإسلامي المغاربي على وجه العموم.

وللغرض نفسه نظم مخبرنا: "مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي" الملتقى المغاربي الثاني للمخطوطات، تحت الرعاية السامية لمعالي الوزيرة المنتدبة للبحث العلمي، السيدة:"سعاد بن جاب الله"، وذلك يومي: 16و 17 شوال 1425هـ/ الموافق لـ: 29و30 نوفمبر 2004م. وفيه تدارس الباحثون المختصون من مختلف دول المغرب العربي المحاور الآتية:

- ❖ أهمية المخطوط في تطوير البحث العلمي
- ❖ وسائل التعامل مع النص الخطي (رؤية وتقنيات)
- ❖ المخطوط المغاربي بين الحفظ والضياع
- ❖ تكنولوجيا المعلومات والمخطوط
- ❖ نماذج من عيون المخطو ـات المغاربية
- ❖ فنيات المخطوط وجمالياته

هذا كله يسعدنا في "مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي" أن نقدم للقارئ الكريم عموما وللمهتم بالتراث المخطوط خصوصا أهم الأعمال التي عرضت في ملتقانا المغاربي الثاني حول المخطو ـات، تقدم بالعرض والدراسة والتحقيق، نماذج من مخطو ـات مغاربية، كما تعرض لأحوال من تاريخ الغرب الإسلامي من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والتربوية من خلال مخطو ـات مغاربية، وتتناول بالدراسة أيضا فهرسة المخطو ـات الواقع والآفاق، كما تتوقف عند التراث العلمي المخطوط، وأهميته المعرفية والتاريخية.

د.ساعد خميسي

رئيس اللجنة العلمية لتحضير الملتقى

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدتي معالي الوزيرة المنتدبة للبحث العلمي

السيد الوالي

السيد ممثل معالي وزيرة الثقافة

السيد رئيس الجامعة

السادة نواب الأمة

السادة الأساتذة الأجلاء

الحضور الموقر

السلام عليكم ورحمة الله تعالى و بركاته

باسم أعضاء مخبر البحوث و الدراسات في حضارة المغرب الإسلامي ، وباسم شبكة مخابر المخطوطات في كل من جامعة منتوري قسنطينة،و جامعة الجزائر وجامعة وهران، يسعدني في البداية أن أعبر للجميع عن بالغ سعادتي لوجودكم بيننا في رحاب جامعة منتوري قسنطينة. و أرحب بالجميع ترحيبا حارا خاصة الأساتذة الأجلاء الذين قدموا من مختلف الجامعات المغاربية و الجزائرية.

لا تزال مسألة التراث المخطوط تطرح و بإلحاح اليوم بين المهتمين به باعتباره جذورا وهوية ثقافية و تاريخية ، ويحق لنا أن نفتخر به لأنه عنوان أصالتنا وشموخ حضارتنا ، واهتمامنا به هو تشبث بهويتنا وقيم حضارتنا ، ودعوتنا لدراسته و الإفادة منه من أجل الإجابة على كثير من القضايا التاريخية و الفكرية التي تطرح الآن لكي لا يظل مجرد ثقافة و فكر أنتج في الماضي. بل نريد لهذا التراث أن يوظف للإجابة على قضايا العصر الفكرية.

لذلك أردنا لتراثنا المخطوط أن يكون مادة للبحث في جامعاتنا تقرأ على ضوء التطورات التي يعرفها البحث العلمي ، منهجا و مصادرا و مرجعية.

وتسعى شبكة المخابر في الجامعات الثلاث لجرده و إحصاءه و فهرسته و التعريف به و نشر عيونه و نوادره.وهي خطوة تفيد الباحث في ناحيتين الأولى: معرفة ما لدينا من

تراث مخطوط و تمكين الباحثين من الاطلاع عليه و الإفادة منه. والثانية: الحيلولة دون تهجيره وهذا لا يتأتى إلا بتوثيق عرى صلتنا به.

هذا من واجبي أن أنوه كل التنويه بالاهتمام الذي توليه معالي الوزيرة المنتهية للبحث العلمي هذا الموضوع والذي يبرز من خلال تبنيها هذا المشروع و تشجيعها لشبكة المخابر ، وما حضورها معنا اليوم و مقاسمتنا الحوار و المناقشة إلا دليلا على هذه العناية.

كما أتوجه بالشكر إلى جميع الأساتذة الأجلاء الذين قدموا من جامعات بلاد المغارب و الجامعات الجزائرية على كريم استجابتهم لدعوة المشاركة و تحملهم عناء السفر و متاعبه.

من واجبي كذلك أن أشكر كل الذين شرفونا بحضورهم و إننا لنعتز كل الاعتزاز بوجودكم الذي يعد نجاحا هذا الملتقى.

هذا الملتقى ما كان ليتم لولا مجهودات ورعاية و تشجيع السيد رئيس الجامعة فكان دعما معنويا و ماديا.

و لا يفوتني أن أنوه بالمساعدات و التسهيلات التي منحنا لنا السيد نائب رئيس الجامعة المكلف بمرحلة ما بعد التدرج و البحث العلمي، و السدة الفاضلة مديرة العلاقات الخارجية بالإدارة المركزية على ما قدمته من تسهيلات.

كما أن لسيد عميد كلية العلوم الإنسانية و لعلوم الاجتماعية على التحضيرات و تتبع خطواتها كان لنا حسن عون. فلكل هؤلاء الأفاضل شكرنا و امتناننا.

أدامكم الله ذخرا لخدمة هذا التراث و السلام عليكم ورحمة الله تعالى و بركاته.

مديرة المخبر: د/ بوبة مجاني

اكتشاف مخطوط أندلسي جديد " فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار"

لابن هذيل الغرناطي(728هـ؟-803هـ؟/1329؟- 1401...؟)

د.عبد الله حمادي، جامعة منتوري قسنطينة

- حياته وأعماله الأدبية:

أجمع الباحثون الذين اهتموا بالكاتب الغرناطي علي بن عبد الرحمن بن هذيل الفزاري الغرناطي الأندلسي على انعدام المعلومات المتعلقة بحياته، وحياة أسرته، والأصول التي ينحدر منها، وهذا بالرغم من معاصرته للسان الدين بن الخطيب صاحب الموسوعات الكبرى في أعلام غرناطة، من مثل الإحاطة والكتيبة، وريحانة الكتاب... إلخ. والتي تعرض فيها بالترجمة والتعريف لكل أدباء مملكة غرناطة وحتى الوافدين عليها، لكننا نجده يتجاهل كليّة حضور شخصية بقامة علي بن عبد الرحمن بن هذيل، ولا يذكر من هذه العائلة إلا بعض أسماء يأتي في طليعتها إسم أستاذه يحي بن أحمد بن هذيل التجيبي المكنى أبا زكريا[1] الذي هو تجيبي كما نرى ولا علاقة له بالفزاري.

1- عائلة ابن هذيل الفزاري في المصادر الأندلسية:

أ- في الإحاطة في أخبار غرناطة:

ونحن نقلب ثنايا الإحاطة، توقفنا شخصية تحمل إسم علي بن يحي الفزاري[2]، فهذه المرة نجده يحمل نفس اللقب العائلي لعلي بن هذيل الفزاري صاحبنا. حيث يقول ابن الخطيب عن علي بن يحي الفزاري هذا: "إنه من أهل مالقة، بربري النسب، فزاريه،

يكنى أبا الحسن، ويعرف بابن البربري... ويظهر أن هذه الشخصية التي أثنى عليها ابن الخطيب، تجعلنا نلتمس نبرة انعدام العداوة بينه وبين هذه العائلة من آل الفزاري فهو يشيد بيحي هذا، والذي يبدو أنه كان معاصرا له، لأنه وجه له خطابا شعريا مدح فيه ابن الخطيب، حيث يقول هذا الأخير: ومما خاطبني به قوله:

لبابك أمّ الآملــون ويممــوا وفي ساحتيْ رحماك حطوا وخيموا

...فيا واحد الأزمان علما ومنصبا ومن به الدنيا تروق وتبســـم

وكانت وفاة هذا الأديب الفزاري بمالقة في عام الطاعون سنة 750هـ[3].

أما الجزء الثالث من إحاطة ابن الخطيب فإننا نجده يذكر ثلاث شخصيات تحمل كنية الفزاري لكنهم يعودون إلى عصر الطوائف أيام الدولة الزيرية بغرناطة، وهو ما يؤكد صلة الرحم البربرية التي تجمع بينهم وبين العائلة المالكة آل باديس الصنهاجيين. فأولى هذه الشخصيات هي عبد الملك بن علي بن هذيل الفزاري وعبد الله أحمد أخوه، يقول عنهما ابن الخطيب نقلا عن ابن معدة: "أبو محمد وأبو مروان توليا خطة الوزارة في الدولة الحبوسية، ثم توليا القيادة بثغور الأندلس، وقهرا ما جاورهما من العدو، وغلبا، وسقياه كأس المنايا وجرعاه. ولم يزالا قائمين على ذلك ظاهرين علمين إلى أن استشهدا رحمهما الله[4] فيظهر أن الشخصيتين هما من القيادات العسكرية البارزة في هرم الدولة الزيرية أيام مؤسسها الأول، حبوس بن ماكسن أمير غرناطة، وأول أمرائها من البربر أيام الطوائف، والذي حكم كما نعرف ما بين سنوات 411هـ و428هـ. ومن هنا تبدأ تتضح بعض معالم أصول أسرة ابن هذيل فهو من قبيلة "فزارة" وفي ذات الوقت "بربري"، ولهذا كانت للقائدين عبد الملك وعبد الله مثل هذه الحظوة لدى أمير غرناطة الزيري الصنهاجي حبوس بن ماكسن، لكن الإشكال الذي يطرح أمام الباحث هو كيف تمت هذه المزاوجة في ترجمة ابن الخطيب بين لقبين أحدهما بربري (هذيل) والثاني عربي الأرومة(فزاري)... الأمر الذي أجبرنا

على تصفح جمهرة أنساب العرب لابن حزم، حيث وجدناه يتحدث فيها عن أصل بيوتات البربر في الأندلس فيذكر على سبيل المثال[5] (أمراء الثغر بنو هذيل ليقول إنهم ليسوا من بني رزّين لكن من مديونة بشنت برية،)

فابن حزم هنا يصنف عائلة بني هذيل ضمن عائلات البرابرة المرموقة بالأندلس وربما كلامه هنا يتفق إلى حد ما مع ما أورده ابن الخطيب في إحاطته أثناء حديثه عن تمتع الأخوين عبد الملك وعبد الله بالحظوة في دولة بني زيري لكن ما لم نستطع إيجاد التسويغ له هو إضافة لقب الفزاري لهذه العائلة علما أننا نعرف من خلال جمهرة أنساب العرب دائما أن بني فزارة هم من بني ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد من قيس عيلان بن مضر[6] فلا ندري هل كان لهذه العائلة فرعان بواسطة المصاهرة واحدة من ناحية الأبوة والثاني من ناحية الأمومة كأن تكون الأم مثلا من بني هذيل البرابرة والأب من فزارة القبيلة العربية أو ما يشبه ذلك؟؟...

أما ثالث هذه الشخصيات الفزارية فهو عبد القهار بن مفرج بن عبد القهار بن هذيل الفزاري ودائما نقلا عن ابن مسعدة يقول ابن الخطيب: " كان بارع الأدب شاعرا، نحويا لغويا، كاتبا متوقد الذهن عنده معرفة بالطب، ثم اعتزل الناس وانقبض، وقصد سكنى البشارات لينفرد بها ويخفي نفسه، فرارا من الخدمة. فتهيأ له المراد.."[7] فنحن كما نرى أمام شخصية إشكالية: أديب بارع له معرفة بالطب لكنه ينقبض؛ أي يبتعد عن الساحة الثقافية والسياسية ويعتزل عاصمة الإمارة غرناطة ليحط رحاله بجبال البشارات الوعرة المسالك وموطن الثائرين والمنتزين، وهي كما نعلم المنطقة الجبلية الواقعة على جنوبي سفوح جبال سييرانيفادا(Sierra Nevada) أو جبال الثلج، جنوبي غربي غرناطة وعلى مقربة من البحر المتوسط وتعرف بالإسبانية اليوم (Las Alpujaras)ومنها انطلقت ثورة الموريسكيين بعد سقوط غرناطة عام 1492 كما نعرف.

هذا الأديب الفزاري الذي لا شك أنه من جدود علي بن هذيل أديبنا صاحب فكاهات الأسمار، أخفى نفسه فرارا من الخدمة فتهيأ له المراد... فاختفاؤه من خدمة السلطان لا شك أن من ورائها سببا، وتهيأ له المراد في المناطق النائية الوعرة، تدل على أنه وجد الحماية والحصانة فيها، وربما وسط المتذمرين من الدولة الزيرية البربرية آنذاك والتي اشتهرت بمظالمها الكثيرة.

هذا كل ما استطعنا العثور عليه في مصادر إمارة غرناطة الرسمية حول ما يمكن أن يربط علي بن هذيل الفزاري هذا بأصول قريبة منه، وهي الأصول التي لم يتمكن الباحثون من ربط الصلة بينها وبينه ابتداء من الباحث الفرنسي القنصل لويس مرسييه منذ سنة 1922 مرورا بالمستشرقة الإسبانية ماريا خيسوس فيغيرا وترجمتها لكتاب ابن هذيل حلية الفرسان سنة 1977 ووصولا إلى المستشرق الإسباني فرانثيسكو رويث خيريلا (Francisco Ruiz Girela) الذي قدم أطروحته في جامعة مدريد المركزية عام 1991 الموسومة:بـــ "عالم إنساني من غرناطة النصرية علي بن هذيل مع دراسة خاصة لكتابه عين الأدب والسياسة" ترجمة وتقديم. كل هؤلاء الباحثين رغم جهودهم المضنية لم يتمكنوا من إيجاد خيط يربط أصول أسرة ابن هذيل هذا والذي لا يزال البحث مفتوحا على مصراعيه حول الأصول الحقيقية لهذه الأسرة الغرناطية الشهيرة.

ب- كنية ابن هذيل الفزاري في نفح الطيب للمقري:

لقد أورد المقري في نفح الطيب على سبيل المثال ذكرإسم ابن هذيل في الجزء الثاني[8] وابن هذيل هذا كان من سكان بلنسية، وكان أحد أساتذة الإمام الشاطبي أبو القاسم من رجالات القرن السادس الهجري وقرأ عليه المعافري وهذا الأخير كما نعرف من مواليد 591هـ وهو الذي أشار إليه المستشرق فرانثيسكو رويث خيريلا(Francis Ruiz Girela) نقلا عن لويس مرسييه في أطروحته سالفة الذكر ص9.

ولعل المستشرق الإسباني فرانثيسكو رويث خيرلا قد انجر وراء مقولات القنصل الفرنسي لويس مرسييه (Louis Mercier) أثناء نشره لكتاب ابن هذيل: "حلية الفرسان وشعار الشجعان" حيث يقول: أما ابن هذيل فلم أقف على ترجمة له في كتب التراجم والمعاجم بعد البحث الطويل لأنه لم يصل إلى الشهرة قبل صدورها... غير أن كنيته ابن هذيل ذكرت مرارا عديدة في تراجم علماء الأندلس القدامى قرنا بعد قرن فتصفحت ذلك، وشاركني بالبحث الشريف السيد محمد بن محمد الحجي الثعالبي نائب الوزير الصدر للمعارف لدى الحضرة الشريفية صاحب الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي أجزل الله ثوابه، فلم نجد من يحتمل أن يكون جدا من أجداد مؤلف التحفة والحلية، إلا شيخا زاهدا إسمه أبو الحسن بن هذيل ذكره صاحب التكملة للصلة بأنه لم يزل بقيد الحياة في أواخر القرن السادس الهجري، وهو بلنسي الأصل كان صاحب الصلاة والخطبة بمسجد لورقا وأجاز لعدة من مشاهير علماء ذلك القرن منهم القاضي عياض، كما قرأ عليه القراءات السبع جملة من الزهاد وأحدثهم... الغافقي، 540هـ 1146م.

نعم وقفنا أيضا على إسم ذلك الشيخ في رحلة للفقيه أبي البقاء خالد بن عيسى بن أحمد البلوي، الموسومة : "بتاج المفرق في تحلية علماء المشرق" حيث ذكر الشيخ أبا الحسن علي بن محمد بن علي بن هذيل البلنسي من جملة من كان أسند عليهم الشيخ أبو عبد الله بن برال التونسي في القرن السابع. فيحتمل أن حفدة الشيخ ابن هذيل هذا كانوا من جملة المسلمين الذين أخرجهم ملك الإسبان دون خايمة من بلنسية 750هـ/1233م والتجؤوا غالبا إلى إيالة غرناطة حتى ازداد منهم مؤلف التحفة، وهو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل بن محمد بن هذيل الأندلسي الغرناطي، ينتسب إلى قبيلة الفزارة .كما يؤخذ من تأليف آخر أيضا إسمه " عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة" ومن تأليف آخر له في البيطرة، إسمه كتاب الفوائد [ويسمى بكتاب الأبواب]" المسطرة في علم البيطرة" أشار إليه من غير ذكر عنوانه الحقيقي ابن

جزي وعثر عليه المستشرق كولان في مكتبة الآثار التاريخية بمدريد" (ص:ب)فهذا النص الذي أورده لويس مرسيبه عام 1922 نجد المستشرق الإسباني فرانثيسكو رويث خيريلا يكرره بحذافيره في أطروحته، ص9 المقدمة لجامعة مدريد المركزية عام 1991 .

كما يذكر المقري أيضا شخصية يحي بن هذيل أبو بكر الشاعر الكفيف وهو يحي بن هذيل التميمي أستاذ الشاعر الرمادي القرطبي الذي ورد ذكره في معظم المصادر الأندلسية كجذوة المقتبس للحميدي، ص358، وبغية الملتمس للضبي، ترجمة رقم1495، وغيرها من المصادر.

كما يذكر المقري أن أبا الحسن بن هذيل من غرناطة لكنه يقول إنه عاش في القرن السادس الهجري، وأخيرا ، والأهم من كلّ ذلك يورد المقري اسم علي بن عبد الرحمن بن هذيل الفزاري صاحب هذا المخطوط قائلا: "وكتب ابن هذيل الفزاري للغني بالله سلطان لسان الدين بن الخطيب:

ليس يا مولاي لي من جابر   إذ غدا قلبي من البلوى جذاذا

غير صك أحمر تكتب لي   فيه يمناك اعتناء صحّ هـــذا[9]

وهي الإشارة الوحيدة التي أومأت فيها المصادر –في ما أعتقد ولم يشر إليها الباحثون الذين سبقوني– لعلي بن هذيل صاحب الحظوة السلطانية والمؤلفات العديدة التي أهدى معظمها لسلاطين بني الأحمر بغرناطة، الأمر الذي يجعلنا في حيرة من أمرنا أمام السكوت المطبق من طرف المصادر الأندلسية عن الإدلاء ولو بالنزر القليل عن بعض تفاصيل حياة هذا الأديب الكبير؟.

ج- كنية ابن هذيل الفزاري في المستدرك من الإحاطة لابن الخطيب:

أما المصادر الأخرى التي توسلنا بها فهي: "الإحاطة في أخبار غرناطة" لابن الخطيب ويتعلق الأمر هذه المرّة بالنصوص الجديدة المستدركة ، والتي لم تنشر في تحقيق الإحاطة بأجزائها الأربعة، وقد قام بتحقيق هذا المستدرك الأستاذ المغربي عبد السلام

شاقور ونشر في كلية الآداب بتطوان المغرب، عام1988. هذا المستدرك الذي كنا نرجو أن نجد فيه ذكرا لابن هذيل من طرف ابن الخطيب وذلك لسبب المعاصرة التي جمعت بينهما والمشاركة –ربما– في الخدمة السلطانية، فإننا للأسف الشديد لم نعثر في هذا المستدرك سوى على شخصية عبد الملك بن علي بن هذيل الفزاري وعبد الله أخيه وهو ذكر مكرر كما سبقت الإشارة إليه في الإحاطة[10]، وقد ورد ذكر الشخصيتين في المستدرك من الإحاطة[11] .

أمّا الجديد في هذا المستدرك، حسب رأينا، هو ذكر شخصية عبد الملك بن سالم الفزاري من أهل ألبيرة وأصله من قرية لوشة[12] وهذه القرية كما نعلم ينتمي إليها لسان الدين بن الخطيب وهي تقع على مقربة من غرناطة، ويظهر أن شخصية عبد الملك بن سالم الفزاري الذي قطن ألبيرة، وهي غرناطة القديمة، يؤكد تواصل وجود هذه العائلة بغرناطة منذ عصر الطوائف وهو ما يمكن أن نخرج منه بخلاصة مفادها أن هذه العائلة الفزارية هي بربرية الأصل وكانت لها مكانة وجاه أيام الدولة الزيرية البربرية، وربما أصل منبتهم هي قرية لوشة التي تجمع بينهم وبين أسرة ابن الخطيب التي –ربما– يكون لبعض الحزازات العائلية في تكهننا ما جعل ابن الخطيب يغض طرفه عن ذركهم بالتفصيل وعن التعريج بالذكر المطول لأحد أحفاد هذه الأسرة ألا وهو علي بن عبد الرحمن بن هذيل صاحب مخطوطنا هذا "فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار" وإلا فليس من المعقول أن يتجاهل ابن .الخطيب كلّية أحد خدَّام الدار السلطانية التي جاءت معظم مؤلفاته كإهداء إلى سلاطينها.

أما الملاحظة الأخرى التي تجدر الإشارة إليها في هذا الصدد فهي تتعلق بابن الخطيب الذي درجت مؤلفاته التي اعتنى فيها بترجمة الشخصيات، سواء في الإحاطة أو الكتيبة الكامنة أو غيرهما على ذكر كل ما له علاقة بمملكة غرناطة وحتى الوافدين عليها، من دون إقصاء أو تجاهل، بل وصلت الدرجة به، وهذا أمر ملفت للانتباه، أن يتجاسر على إعادة النظر، حتى، في بعض ترجمات الشخصيات التي كانت تربطه معهم

علاقة وصداقة بحيث أسدى لها من الثناء ما يفوق التصور، لكنه بعد تعكُّر صفو هذه العلاقات نجده لا يرى حرجا من إعادة النظر في مقولاته ولو أدَّى به الأمر إلى مناقضة كل ما ورد من ثناء عليها أيام صفاء المودة، وأذكر هنا على سبيل المثال مقولاته في القاضي أبو الحسن النباهي، صاحب "كتاب المرقبة العليا" والذي ترجم له في الإحاطة قائلا عنه: "هذا الفاضل قريع بيت مجادة وجلالة، وبقية تعين وأصالة، عفّ النشأة طاهر الثوب، مؤثر للوقار والحشمة، بريء من النوك والغفلة... حافظ مقيد طُلَعَة إخباري، قائم على تاريخ بلده... استفدت منه في هذا الغرض وغيره كثيرا... حسن الخط، ناظم ناثر، نثره يشف على نظمه... استظهر محفوظات منها النوادر للقالي، وناهيك به محفوظا مهجورا... نشأ ببلده حُرَّ الطعمة، فاضل الأبوة، وقرأ بها، ثم ولي القضاء بملمّاس ثم ببلش وعلمها. فسيح الخطة، مطلق الجراية، بعيد المدى في باب النزاهة، ماضيا غير هيوب..."[13] لكن لما ساءت العلاقة بينهما صبّ عليه ابن الخطيب جام غضبه في كتابه "الكتيبة الكامنة[14]" ونعته بأبخس النعوت مبتكرا له إسما غريبا وفريدا من نوعه هو "الجعسوس"، وحاشدا كل قدراته البلاغية والبيانية للحطّ من مكانته، موظفا الأساليب العربية المقذعة في الهجاء والتشهير والتعريض كما عرفت في النقائض وتهكمات الجاحظ. إذ نعته بعديم الأصل الشريف وابن مُولّد الحمير ومولدة الأولاد،ثم لما ترعرع -أي النباهي- وشبّ عن الطوق كما يشبّ عود السدر تحت القدر امتهن حرفة الحروز وتخريج الكنوز بذبح العنوز، ثم يذكر في رسالة أن النباهي كان يقول لغيره لماذا تنكرون علي كلمة الجعسوس؟ أو ليست من كلام العرب ، بل من ألفاظ القرآن؟! فقيل له من كلال العرب ربما هذا، لكن من ألفاظ القرآن...! فيرد عليهم ألم تقرؤوا قوله تعالى: "لا تجعسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا" فقيل له بلى بل قال: ولا تجسسوا... ويخلص ابن الخطيب من هذا التعريض الجارح ليذكّر بأنه ألف فيه رسالة تحمل عنوان: "تنبيه الساهي على طرف النباهي"[15] وهي رسالة في عداد المفقود حاليا.

ومن الذين غضب عليهم ابن الخطيب كذلك، وغيّر رأيه فيهم دون حرج، الشيخ الكاتب محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي حيث نعته بأبشع النعوت كالزنى والتشدق بتعاطيه الزنى مع نساء الإخوان[16]... كما صبّ جام غضبه على أستاذه وشيخه أبو البركات البلفيقي الذي كثيرا ما أغدق عليه الثناء في الأحاطة أو الكتيبة قائلا : "وله في الآداب عليا الدرجات، والأفواح المتأرجات، والبدائع التي سارت مسيرة الشمس في الأقطار وتغنّى بها راكب الفلك وحادي القطار" ، ثم يضيف ما هو أكثر في ختام ترجمته له في الكتيبة قائلا:" ولو لم يكن في هذه الطبقة الجليلة إلا هذا الرجل لكان كافيا رحمة الله تعالى"[17] لكن بمجرد أن قبل شيخه هذا الخدمة مع السلطان محمد السادس المعروف بالبرمخو (الأشقر) والذي سطا على ملك إسماعيل الثاني ليبعد محمد الخامس الملقب بالغني بالله سلطان ابن الخطيب ويبسط نفوذه على غرناطة ما بين (1360م–1362م)مجليا محمد الخامس وبطانته، التي من بينها ابن الخطيب، إلى المغرب عند المرينيين، نجد ابن الخطيب في كتابه: "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" يوفي هذا السلطان حقه من الشتم والتحقير من مقامه إلى درجة جعل منه إمام السوقية. ولما تعرَّض للذين قبلوا الخدمة معه نجده يقول في حقهم: "استوزر الوزير المشؤوم ممدد في الغي، الوغد، الجهول، المرتاش من السرقة، الحقود على عباد الله، لغير علَّة عن سوء العاقبة، المخالف في الأدب سنن الشريعة، البعيد عن الخير بالعادة والطبيعة، دودة القز، وبغل طاحونة الغدر، وزقّ القطران محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح الفهري" ثم يضيف قائلا واستكتب: "صاحبنا الفقيه الأهوج، قصب الريح، وشجرة الخور، وصوت الصدى، أبو محمد عبد الحق بن عطية" أما قضاته فيقول ابن الخطيب في حقِّ أحدهم: "شيخنا أبو البركات "قيس ليلى القضاة"، المخدوع بزخرف الدنيا على الكِبرة والعناء ، لطف الله به وألهمه رشده"[18] .

أما عمّ السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر الرئيس المتوثب على الملك وحي كرسي الإمارة وعاقد صفقة الخسران المبين كان شيطانا ذميم

الخلق، حرفوشا على عرف المشارقة، متراميا للخسائس، مألفا للدعرة والأجلاف والسوار وألي الريب، خبيثا كثير النكر، منعمسا في العهن، كلفا بالأحداث، متقلبا عليهم في الطرق، خليع الرسن، ساقط الحشمة، كثير التبذل، قواد عصبة كلاب..." إلى آخر ذلك من الشتم الغليظ والتعريض القبيح الفاضح، ولم يسلم من سورة غضب ابن الخطيب حتى تلميذه الشهير ابن زمرك شاعر الحمراء، الذي نعته هو الآخر بالذمامة البائسة... خلقه، لولا الخبث، والغدر جميلة...إلخ[19].

ونخلص بعد كل هذا الاستطراد إلى القول بأنه لو افترضنا أن عليا بن هذيل صاحبنا ممن حظي –ربما– بخدمة هذا السلطان المغضوب عليه من طرف ابن الخطيب لكان يمكن اعتبار تجاهله من ابن الخطيب أمر مسوغ؟ لكن المصادر لم تذكر لنا أن ابن هذيل كان ممن شارك في خدمة سلاطين بني الأحمر. وإذا عدنا إلى موقف ابن الخطيب ومن ترجم لهم وأثنى عليه ثم نقض مقولاته يجعلنا نخمّن في تجاهل ابن الخطيب لذكر ابن هذيل فيه أكثر من سبب، وإلا فكيف يتجاهل أمر كاتب يعاصره ويعايشه وتتصل مترلته إلى تقديم مؤلفاته إلى السلاطين الذين خدمهم ابن الخطيب كوزير، ثم يحجم هذا الأخير عن ذكره،وكأنه غير موجود، لا شك أن في الأمر مدعاة للحيرة والتندُّر...؟

أما ثاني هذه الملاحظات فهو ما يمكن أن نسجله على الطرف الآخر، أي ابن هذيل ذاته، هذا الكاتب الذي لم يترك مشرقيا أو مغربيا أو أندلسيا في عالم الأدب والفكاهة إلا وذكر طُرفة من لطائفه أو مُذْهبة من أقواله نجده –بدوره– يحجم إحجاما قطعيا عن ذكر ابن الخطيب في مؤلفاته السابقة، وفي مؤلفه المكتشف من طرفنا هذا، كما يحجم كذلك عن ذكر الشاعر ابن زمرك المعاصر له ،والذي كان من أبرز وجوه الدولة النصرية في ديوان الإنشاء، ويكتفي في المقابل بذكر أساتذهما من أمثال ابن الجيَّاب، وأبي البركات البلفيقي وصديقهما الشاعر ابن خاتمة الأنصاري والشريف الغرناطي ...!؟ إنها حزازات في رأينا عميقة تفصل بين الطرفين المتعاصرين والتي جعلت كلا منهما على سبيل المثال، وكأنه يتقنّع بمقولة المعاصرة حجاب، فقد ذكر ابن

الخطيب على سبيل المثال في ترجمته عددا كبيرا من معاصريه، بل حتى من هم دونه منزلة، وكذا فعل ابن هذيل في كتابه هذا "فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار" فلماذا يا ترى نجد ابن الخطيب يعرّج، ولو باختصار، على ذكر من لهم صلة لزيقة بنسب ابن هذيل أيام الدولة الزيرية، وحتى أيام مملكة غرناطة، كما فعل مع علي بن هذيل الفزاري[20] ولا يتعرض، ولو بالتلميح، إلى علي بن هذيل صاحبنا، الأمر الذي جعل المقري التلمساني الذي استمد جل بضاعته الأدبية من مؤلفات ابن الخطيب لا يجد ما يساعده على ذكر نسب ومكانة علي بن هذيل حين تعرض له بالذكر في النفح[21] حيث نجده يقدمه بكلام مقتضب جدا ،مع ذكر بيتين من الشعر وجههما ابن هذيل -كما يقول- لسلطان ابن الخطيب الغني بالله الذي حكم مملكة غرناطة في مرحلتين ،الأولى ما بين(1354م-1359م) ثم خلع وباشر الثانية إلى غاية وفاته ما بين (1362م-1391م)، حيث يبدو من محتوى البيتين إحساس بنبرة الضراعة أطلقها ابن هذيل، ومما لا شك فيه أن المقري يكون قد اطلع على بيتي ابن هذيل من كتاب: "فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار الذي ورد ذكرهما في مخطوط بومنجل حمادي والذي سنرمز له (ب.ح)، ص87، ولا وجود لذكرهما في موضع آخر، حيث يقول: وكتبت أنا -أي علي بن هذيل- لمولانا أمير المسلمين الغني بالله محمد بن يوسف بن نصر قدس الله روحه وبرد ضريحه:

ليس يا مولاي لي من جابر   إذ غدا قلبي من البلوى جذاذا

غير صك أحمر تكتب لـــي   فيه يمناك اعتناء: صـــحّ هذا

فمن خلال تدبرنا في المحتوى الذي قدم به ابن هذيل للبيتين نستشف منه أن هذين البيتين رفعهما ابن هذيل إلى الغني بالله الذي حكم على مرحلتين كما ذكرنا سابقا، إلى غاية 1391م، ولا ندري بالضبط في أيهما قدم ابن هذيل البيتين للسلطان محمد الغني بالله؟

لكن الجديد الذي نستشفه هو أن هذين البيتين دوّنا في مؤلف ابن هذيل الجديد فكاهات الأسمار بُعيد وفاة السلطان محمد الغني بالله لأنه ترحم على روحه بعبارات:"قدس الله روحه وبرد ضريحه" مما يدل أن تأليف هذا الكتاب كان بعد تاريخ وفاة محمد الغني بالله عام 1391، أو أن التمام من إنجازه كان بُعيد هذا التاريخ وإلا فليس من المعقول أن يكون قد ألفه أيام محمد الغني بالله ويحمل عبارات كالتي ذكرنا، والتي فيها الترحم على السلطان محمد الخامس اللهم إلا إذا كان مشروع الكتاب كان قيد الصياغة منذ أيام محمد الغني بالله، ولما أدرك الموت هذا الأخير تغمّد ابن هذيل على روحه بعبارات الرحمة والمغفرة.

والملاحظة الأخرى ،والأهم ربما ،لتحديد تاريخ صياغة هذا الكتاب أو تأليفه هو أن المهدى له، لم يعمر طويلا في الحكم، فيوسف الثاني ملك غرناطة الملقب بالمستغني بالله نعرف أنه حكم ما بين 1391-1392 أي سنة ونيّف، فهل يمكن اعتبار ابن هذيل، الذي ما في ذلك شك، أنه بلغ النضج وصار لا يبالي بمقولة الجاحظ الناصحة بالتريث يُقدم على تأليف كتاب من هذا الحجم في مدَّة لا تتجاوز السنة ليتقرب به إلى السلطان الجديد...؟ من الجائز أن يكون ذلك، وربما هي فرصة جعلت ابن هذيل ينعم بها بعد اختفاء هرم في السلطة كبير كابن الخطيب، الذي ثبت ما يشبه سوء العلاقة بين الرجلين، وبالتالي كان حاجزا منيعا في وجه ابن هذيل، وأمثاله من المغضوب عليهم من طرفه، وهو ما توضحه -إلى حد ما- تضرعات ابن هذيل في البيتين والتي ظهر فيهما وكأني به يستعطف سلطان ابن الخطيب محمد الخامس قائلا له فيما معناه: إلى متى لا تجبر من حالي وقد صار قلبي من البلوى جذاذا... فأي بلوى يا ترى؟ ألا يمكن أن تكون إحالة ابن الخطيب دون وصول ابن هذيل إلى مبتغاه؟ أو ربما ابن زمرك صاحب ديوان الإنشاء فيما بعد، وخليفة ابن الخطيب في المكانة، والذي هو بدوره مُقصى من مؤلف ابن هذيل الجديد؟ أسئلة كثيرة ستظل عالقة في غياب اكتشاف نصوص جديدة التي يمكن أن توضح المعمّى من حياة ابن هذيل...

د- كنية ابن هذيل الفزاري في كتاب الذيل والتكملة للمراكشي:

لقد ورد في الذيل والتكملة[22] ذكر فيها علي بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن الضحاك الفزاري، غرناطي، أبو الحسن المقرئ، أكثر قراءة وسماعا على أبي إسحاق بن عبد العزيز بن أبي تمام، وأبي بكر بن بشر وابن الخلوف وابن طاهر، وابن العربي، وأبي جعفر البطروجي، وأبي الحجاج الأندي، وأبوي الحسن: شريح وابن موهب، وأبوي عبد الله: ابن خلف بن موسى، وابن عبد الرزاق، وأبي الفضل عياض، وأجازوا له.. وذكر شيوخا كثرا وجدهم في (برنامجه) مؤلفه من بينهم أبو عبد الله بن الحاج والنميري[23]... وكان محدثا نبيلا حافظا للتواريخ وطبقات الرواة، وتعديلهم وتجريحهم، مميزا صحيح الحديث من سقيمه، عني بهذا الشأن طويلا، ماهرا في علم الكلام وأصول الفقه، أديبا، وله مصنفات كثيرة في الحديث وتواريخه والكلام منها: :شرح إرشاد أبي المعالي (وسمه بمنهاج السداد في شرح الإرشاد) وله في أصول الفقه (وسمه بمدارك الحقائق) (أنظر صلة الصلة، ص95، الديباج، ص210)، أصول الفقه، وأجوبة على مسائل اقتضى منه الجواب عليها، وردٌّ على مقالات في أنواع شتى، ظهر في ذلك كله إدراكه، وحسن نظره وكتب بخطه كثيرا... مولده آخرجمادى سنة509هـ وتوفي سنة552هـ. في حين أن ابن الزبير قال: توفي في الكائنة بغرناطة سنة 557هـ في جملة من خرج من غرناطة يريد وادي آش، أما في الديباج فيقول: توفي سنة 553هـ. هذا الرجل في رأينا نراه تربط بينه وبين ابن هذيل أكثر من صلة ككنية الفزاري، وإقامته بغرناطة مع حمله للتسلسل الاسمي المشابه لتسلسل الاسم الذي يحمله علي بن عبد الرحمن بن هذيل الغرناطي تقريبا.

إذن فحياة أديبنا علي بن هذيل لا يزال يعتريها الكثير من الغموض، رغم تأكيد ابن هذيل الصريح في كتابه "عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة" بأنه فزاري وذلك حين أورد قول بشر بن هذيل الفزاري قائلا: هو أحد قومنا[24]... يبقى ابن هذيل ، بعد كلّ هذا ،كما قال الدكتور علي مكي: "كاتب لا نكاد نعرف عنه

شيئا على الرغم من الكثرة النسبية لما وصل إلينا من آثاره، وكتبه تدل حقّا على مستوى رفيع من الثقافة والعلم" لكن ما نعجب منه هو من أين استقى الدكتور علي مكي أن ابن هذيل كان معاصرا لابن السمَّاك صاحب كتاب "الزهرات المنثورة"، بل زميلا له في العمل بديوان الإنشاء للسلطان محمد الغني بالله(؟)[25]. لأننا لما عدنا إلى كتَّاب الإنشاء في ديوان محمد الخامس الغني بالله لم نعثر على اسمه ضمن رجالات ديوان الإنشاء، وزيادة على ذلك، فإن في البيتين المنسوبين لابن هذيل، والموجهين إلى الغني بالله تحملان كثيرا من الضراعة والتوسل لهذا الأخير، نظرا لما كان يعانيه ابن هذيل من حاجة وفاقة، كما أنني لا أدري من أين استقى المستشرق الفرنسي والقنصل لويس مرسييه البحَّاثة في آثار ابن هذيل ومكتشفه الأول في أوروبا منذ سنة 1922، احتمال تاريخ ازدياده الذي رجَّح بالتقريب أن يكون في حدود728هـ 729هـ/1329م؛ أي أيام السلطان محمد الرابع الذي حكم ما بين (1325–1333) ومما لا شك فيه أن علي بن هذيل قد ترعرع في كنف أيام السلطان أبي الحجاج يوسف الأول الذي حكم ما بين (1333–1354) وهي الفترة التي شهدت أزهى مراحل الدولة النصرية وعرفت بروز جملة من الأدباء الذين تحلَّقوا حول رائد هذا الجيل الشيخ أبي الحسن بن الجيَّاب، أستاذ الجيل كما يسميه ابن الخطيب.

فهذه المرحلة الغنية من تاريخ مملكة غرناطة شهدت كذلك تدشين المدرسة النصرية أو اليوسفية وعرفت ازدهارا أدبيا قل نظيره في المراحل التالية، وبرزت فيها أسماء لامعة في عالم الأدب كابن الخطيب وابن جُزي الكلبي، والشريف الغرناطي، وابن الحكيم، وابن رضوان، وابن شبرين، وأبو البركات البلفيقي، وابن خاتمة الأنصاري، وابن خميس التلمساني، ويحي بن هذيل الطبيب الشاعر، وغيرهم من الأسماء التي حفلت بها كتب التراجم، وهو ما يدل على إتاحة فرصة نادرة للتكوين بالنسبة لعلي بن هذيل وأمثاله، وهي مرحلة لم تشهدها مملكة غرناطة في بداية نشأتها ولا في أخريات أيامها. فإذا أردنا تحديدا لفترة ازدهار هذه المملكة فإننا دون شك نحددها بظهور

السلطان إسماعيل الأول الملقب بأبي الوليد والذي حكم ما بين (1314م-1325م)... إلى غاية محمد بن يوسف بن محمد (السابع) والملقب بالمستعين بالله الذي حكم ما بين (1392-1408) فبعد هذه الفترة تدخل إمارة غرناطة في مرحلة اللااستقرار وتتكاثف عليها الأحداث من الداخل والخارج، ويظهر العدو الإسباني المسيحي إصراره على المضيِّ قُدُما في حروبه الاستردادية.

لذا يمكن اعتبار الأديب علي بن هذيل من الجيل الثالث الذي ورث علوم طُلاَّب الجيل الأول من أمثال ابن الخطيب وابن خاتمة وابن جُزي الكلبي والشريف الغرناطي... وهو الجيل الذي يمثل مملكة غرناطة خير تمثيل معرفي وثقافي إذ عرف فيها الأدب أزهى أيامه، وخاصة على عهد كلٍّ من أبي الحجاج يوسف الأول وابنه محد الخامس الغني بالله فهما -إن جاز لنا التعبير- واسطة عقد هذه المملكة حيث شهدت معهما الإمارة أروع الإنجازات العلمية والمعمارية التي يأتي في ليعتها قصر الحمراء وجنَّة العريف، والمدرسة اليوسفية، المارستان،والزاوية، والجسور والمنتزهات الجميلة في غرناطة وضواحيها، يكفى للاطلاع على هذه الإنجازات الضخمة قراءة مؤلفات ابن لخطيب ومعاصريه التي تدل على تماسك الإمارة واستقرار أجهزتها، وحتى الأحداث التي عصفت لفترة قصيرة بهذا الاستقرار أيام محمد الغني بالله نجد أنه سرعان ما تَّم تداركها ومعالجة مسبباتها،وهو ما مكَّن لهذا السلطان من العودة للتحكم في زمام الأمور بيد من حديد،وسياسة راشدة ،ولعل-هناك- في ما أنجزه كل من المستشرقة الدكتورة ماري خيسوس روبيرا ماطا في أطروحتها المقدمة إلى الجامعة المركزية بمدريد في شهر مارس 1972 حول ديوان ابن الجياب، والتي نشرتها تحت عنوان:

Maria Jesus Rubiera Mata: Ibn AL Yayyab EL Otro poeta de la Alhambra, ed. patronato de la Alhambra. I.Hispno-Arabe.Granada.1982

حيث نجدها تخصص من ص17إلى ص25 لحياة ابن الجياب وما بين ص145 و186 تورد بعض الأشعار بالعربية لابن الجياب، كما قدمت دراسات أخرى عديدة كرستها لهذه

الإمارة وأعلامها، وكذا ما قدمه الدكتور شبانة محمد كمال من دراسة حول: "يوسف الأول الأحمر سلطان غرناطة" والذي نشر في القاهر سنة 1969، وكذا الدكتور محمد محمود الصوفي في أطروحته: مظاهر الحضارة في مملكة غرناطة" المقدمة إلى جامعة الإسكندرية عام1978، وكذا دراسة الدكتور أحمد مختار العبادي: "مملكة غرناطة على عهد محمد الخامس" والمنشورة بالإسبانية في المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد عام 1973، وكذا أطروحة المستشرقة الفرنسيية راشيل آرييه (Rachel Arié):

: **L'Espagne Musulman au temps des Nasrides,1232-1492, Paris.1973.**

وكذا دراسة المستشرق الكبير أستاذنا إيميليو غارسيا عومس: "ابن زمرك شاعر الحمراء" والمنشور عام 1975، وكذا دراسات المستشرقة الإسبانية (**Solidad Gibert Fenech**)حول ديوان ابن خاتمة وأبي البركات البلفيقي، وكذا دراسة المستشرق الإسباني لويس سيكو دي لوثينا: "محمد التاسع سلطان عرناطة" والمنشور عام 1978وغيرها من الدراسات ...

كل هذه البحوث وغيرها تكشف المكانة الثقافية التي بلغتها مملكة بني الأحمر التي عاش في ظلها علي بن هذيل والذي حدد القنصل لويس مرسييه تاريخ ميلاده بعام 1329م والذي يكون قد طال به العمر إلى ما بعد تاريخ وفاة يوسف الثاني المستعين بالله عام 1392الذي أهدى له كتابه هذا فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار والذي من خلاله استطعنا أن نعرف بعض شيوخ علي بن هذيل كما استطعنا أن نعرف شيئا يسيرا عن أسرته.

2- ثقافة علي بن هذيل الفزاري:

ليس في وسع الباحث رسم مسيرة تعليمية واضحة لعلي بن هذيل وذلك لانعدام ترجمة لحياته، ولو يسيرة، لكن ما استطعنا استخلاصه بعد تنقيب مضنٍ في المصادر فإننا وجدناه يذكر في كتابه "حلية الفرسان" أن من بين شيوخه القاضي الشريف أبي القاسم الغرناطي697هـ—760هـ)[26] والذي يعتبر من الوجوه الثقافية البارزة في مملكة غرناطة،

وقد خصه ابن الخطيب بصفحات طوال في إحاطته، وكذا في الكتيبة الكامنة، حيث يقول هذا الأخير في حق هذا الشيخ إنه دخل غرناطة أيام خامس ملوكها من بني نصر، أي أيام السلطان إسماعيل الأول الملقب بأبي الوليد والذي حكم كما نعرف ما بين (1314م–1325م)

ومن المحتمل أن يكون وصول الشريف الغرناطي من مسقط رأسه سبتة في أخريات أيام هذا السلطان، وقد بلغ من العمر27 سنة على أكثر تقدير، وبمجرد وصوله –كما يقول ابن الخطيب دائما– انخرط في سلك كتاب الإنشاء، ثم قُلّد الكتابة والقضاء والخطابة... فهذا الأستاذ المتمكن من بضاعته المعرفية، هو من شيوخ علي بن هذيل. ويكشف لنا ابن هذيل في مخطوطه الجديد عن شيخ آخر من شيوخه قائلا: "أنشدني الوزير العدل أبو جعفر الجيَّاني وأنا أقرأ عليه علم العدد"، وقد نعته بالوزير العدل لكننا لما عدنا إلى وزراء سلاطين بني نصر ابتداء بابي الوليد ومرورا بأبي الحجاج ووصولا إلى محمد الغني بالله لم نجد ضمن وزرائهم أو كتابهم أو قضاتهم من يحمل مثل هذا الإسم. ومن المحتمل أيضا أن يكون ابن هذيل قد تلقى تعليمه في غرناطة على يد شيوخ الشاعر ابن زمرك ،والذي كما نعرف هو من مواليد733هـ[27] فهو يتقارب معه في السن، فنجد من شيوخ هذا الأخير على سبيل المثال شيخهما المشترك القاضي الشريف الحسني إمام الفنون اللسانية وكذلك أبو القاسم محمد بن أحمد الحسيني، و شيخ العربية أبي عبد الله بن الفخَّار، كما أنه من المحتمل أن يكون قد تلقَّى علوم الفقه والعربية على يد شيخ ابن زمرك أيضا أبي سعيد ابن لُب وأبي عبد الله بن مرزوق وأبي علي منصور الزواوي والقاضي أبي البركات البلفيقي والمحدث أبي الحسن بن التلمساني والخطيب أبي عبد الله اللُّوشي، والمقرئ أبي عبد الله بن بيبش...

كل هؤلاء الأعلام كانوا محلّ تقدير وثناء من طرف ابن الخطيب، وبالتالي فليس من المستغرب أن تنعكس تلك الثقافة التراثية المتينة على أديبنا علي بن هذيل، وتنعكس كذلك في مؤلفاته التي أشاد بها كل من المستشرق الفرنسي لويس مرسييه

والبحَّاثة القدير الدكتور علي مكي، حين قال وهو بصدد الحديث عن ابن هذيل: "وكتبه تدل حقا على مستوى رفيع من الثقافة والعلم"[28]. أمَّا لويس مرسييه فإنه يقول أن ابن هذيل قد تعاطى بالأخص علم الأخلاق، ولا يكذبنا أحد إذا قلنا على وجه الإجمال إنه كان يعتني بكل ما فيه عبرة لمن يعتبر وهدي لمن يهتدي، فزاد على ذلك علوم الخيل والفروسية والبيطرة وحاز فيها قصب السبق، وبها اشتهر في المغرب الأقصى وفي جزيرة الأندلس... وبالإضافة إلى هذا فإننا نجد ابن هذيل في افتتاحية مخطوطه "فكاهات الأسمار..." يكشف عن ولعه المبكر بالأدب والشعر قائلا: "وإني كنت في عنفوان الشباب وزمان الارتسام في الكُتَّاب... مائلا إلى درسه وحفظه وتحصيله إلى أن تحصَّل لي منه جملة مقطعات في معانٍ مختلفة، وأغراض منوعات..." وفعلا فإنه كما نرىلم يدّعِ أنه كان شاعرا أو من فرسان الشعر المُبَرّزين بل اعترف بنظمه لبعض المُقطّعات، وإن شئت الأبيات وهو ما نجد بعضها متناثرا في ثنايا كتابه هذا الموسوم بفكاهات الأسمار، كأن يقول مثلا ومِمَّا نظمته(ص110)

سحر الورى هذا الرشا بجفونه   وتحيَّرت في حسنه الألبـــــابُ

فإذا نظرت جفونه ووعـــوده   بالوصل قلت الساحر الكذّاب

أو كأن يقول أيضا ومما نظمته(ص207)

صاح قد هاج غرامي شادن   غَنِجُ اللّحاظ يُدعى المالقي

أصبح القلب رهينا عنـــده   لا تسل في حُبّه عن ما لقي

ويقول أيضا في معرض هذا الكتاب وكتبت أنا لمولانا أمير المسلمين الغني بالله محمد بن يوسف بن نصر قدَّس الله روحه وبرَّد ضريحه: (ص289)

ليس يا مولاي لي من جابر   إذ غدا قلبي من البلوى جذاذا

غير صكٍّ أحمر تكتك لي   فيه يمناك اعتناء صــحَّ هذا

أو يقول في باب التضمين مجاريا العبَّاس بن الأحنف الشاعر العباسي العاشق وبعض المتأخرين من الأندلسيين: (291)

غزال على العشاق قد سطا　　وقطع أفلاذ القلوب بجـــوره
فمن لم يمت من لحظه فبهدّه　　ومن لم يمت بالسيف مات بغيره

كما يشارك أيضا مع شيوخه في نظم الألغاز فيقول ملغزا في العنب: (340)

مَـــا والــدٌ أُنثى ومـــا　　فيهـــاَ له مُشترك
بلا تـــــزوّج لــه عقد　　بـــه يستمســـك
وبنْتُــهُ لا يَرتضيـــ　　ـها أمة قد نسـك
فيه بيـــاض ساطـــع　　وفيه يحكي الحلك
هـــو إذا قلبتـــه مصحـ　　ـفـــا فملـــك
أهـــوما تنسبـــــه　　لأمة قـــد أشرك
وإن تصحفــــه بــــلا　　قلب فأنثى تدرك
أوهوما تُحى بـــه النفـ　　ـوس أومـــا يُسبك
أوهولا يعلـــم الـــ　　إنسان لا والملـــك
أوشـــيء إن خشيتـــ　　فأنكح إذا ما تملك
أوهووصف الحُور في الكِـ　　تاب أو ما يتـــرك
فهاكه في الحُجْبِ مـــا　　له طريق يسلـــك

ويقول أيضا ملغزا في الحبق: (340-341)

ما اسم لريحان إذا　　يغـــرس مــــالــه دوام

وهوثلاثي صحيح ذو اتصـال والتئـام
وإذا حذفت فاءه فرهـط سود ذو انتقـام
وإن حذفت عينه فهـو إمـام للأنـام
وإن حذفت لامه مغيرا فهـو طعـام
أوهوشيء يعْتري بـه النحـول والسقـام
إذا تُصحِّفْ عينه فليس من شـأن الكرام
وإن تصحف عينه ولامـه وهو الحمـام
وقلبه مُصَحَّـفًـا إسـم صريـح لغـلام
وقلبه من غير تصحيـ ـف بتغييـر مـلام
فَهَاكه وأنـه كالـزَّهر فـي طيّ الكمام

بالإضافة إلى هذه الإشارات الموجزة والجديدة من حياة علي بن هذيل الأندلسي نجده كذلك يلمح في قوله إلى أحد أفراد عائلته قائلا: "حدثني عمي محمد شقيق والدي رحمهما الله قال: أول يوم جلست في حلقة سيدي الشيخ أبي إسحاق بن أبي العاص للقراءة عليه والأخذ عنه والتبرك به..." فهذه هي مجمل الإشارات الطفيفة التي من بها علي بن عبد الرحمن بن هذيل في حق عائلته التي ستظل مجهولة بالنسبة للباحثين وتنتظر ظهور نصوص جديدة التي من الممكن أن تساعد على كشف المزيد من تفاصيل حياة ابن هذيل والتي نراها قد توقف البحث عنها منذ عام1922 مع البحَّاثة القدير القنصل الفرنسي لويس مرسييه...

3- أعمال ابن هذيل الأدبية:

أجمعت كل مراجع الباحثين الذين اهتموا بآثار علي بن هذيل بدءا من المستشرق والقنصل الفرنسي لويس مرسييه عام1922 والذي يعتبر من مكتشفي ابن هذيل وأول من أقدم على ترجمة أحد أعماله الموسومة بـــ "تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس" حيث حدد هذا الأخير آثار ابن هذيل في المصنفات الثمانية الآتية:

- كتاب كمال البغية والنيل.
- مقالات الأدباء ومناظرات النجباء (يذكر بروكلمان أنها توجد نسخة منه في ملحق المتحف البريطاني تحت رقم 1144)
- تذكرة من اتقى.(يقول مرسييه في حقِّ هذه الكتب الثلاث أنه لم يبلغ إلينا منها إلا بعض القطع المنقولة في آخر كتب ابن هذيل عين الأدب والسياسة).
- تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس (توجد نسخة خطية منه في مكتبة الإسكوريال تحت رقم 1652 ونسخة أخرى في المكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم5095) وأخرى بمكتبة جامع القرويين، وأخرى بمكتبة الرباط العمومية.
- عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة (يقول مرسييه إنه طبع ثلاث مرات في القهرة عام1884 ثم عام1900و عام1938).
- حلية الفرسان وشعار الشجعان، اعتنى بطبعه بعد إصلاح الأهم مما به من أخطاء، بالمقابلة مع النسخة الموجودة بالإسكوريال القنصل الفرنسي لويس مرسييه عام 1922 وترجمه إلى الفرنسسية عام 1924 بهذا العنوان.

Aly Ben Abderrahman Ben Hodeil Al- Andalusy: La Parure des Cavaliers et l'Ensigne des Preux, trad Francaise par Louis Mercier Consul de France . Librairie Orientaliste Paul Genthner. Paris,1924.

- كتاب الفوائد المسطرة في علم البيطرة، طبع بمدريد عام1935 (وتوجد منه نسخة فريدة في مكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد).

يذكر القنصل مرسييه أنه وقع في خطإ حين حاول تحديد تاريخ لكتاب: "تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس" معتقدا أن ابن هذيل كان قد أهداه إلى السلطان محمد السادس المعروف بكنية البرمخو (الأشقر) والذي حكم كما نعرف ما بين 1360-1362م لكنه تدارك وقال إن المقصود بالإهداء هو محمد الغني بالله (أو محمد الخامس) وذلك في مفتتح عودته إلى الحكم في المرحلة الثانيةعام 1363. أما محمد السابع المستعين بالله فهو حفيد محمد الخامس الغني بالله الذي خلف والده يوسف الثاني على العرش وحكم ما بين 1392 إلى غاية1408 والمعروف بلقب المستعين بالله وهو المعني بالإهداء الثاني الذي قدمه ابن هذيل للسلطان النصري، فإنه كما يقول في مفتتح "حلية الفرسان وشعار الشجعان": "إلى أمير المسلمين المستعين بالله أبو (أبي) عبد الله محمد بن مولانا الهمام الأوحد، الأشرف الأمجد، المثيل الخطير، الشهير الكبير، الكريم المآثر، السامي المفاخر، أمير المسلمين المستعين بالله، المجاهد في سبيل الله، المقدس المرحوم أبي الحجاج يوسف بن مولانا الإمام الخليفة الأعظم والملجأ الأعصم، ظل الله الممدود على عباده، وسيفه المسلول في سبيل جهاده وستر الله المسدول على بلاده، ناصر الأمة، وغياث الرحمة، ذو (ذي) الجهاد المقبول، والغزوات الشهيرة، الحسن السيرة، الغني بالله أبي عبد الله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل بن نصر..."[29]

والذي يعتبره لويس مرسييه كما جاء في الافتتاحية بمثابة مختصر من كتابه: "تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس" وبالتالي عمد ابن هذيل كما يقول مرسييه إلى وراق وعين له الفصول التي يجب حذفها والفصول التي يجب إبقاؤها... ومن هناك يتصور هذا الباحث أن كتاب حلية الفرسان يمكن أن يكون قدم كهدية للسطان الجديد عام 1392م تاريخ اعتلائه للعرش، وبالتالي يكون ابن هذيل قد بادر بتقديمه كهدية للسلطان الجديد، دون أن ينسى مرسييه التذكير بأن كتاب التحفة التي هي أصل كتاب حلية الفرسان كانت بدورها هدية قدمت من طرف ابن هذيل للسلطان محمد الخامس عام1362 أي السنة التي استرجع فيها سلطته بعد عزله من طرف غريمه

محمد السادس المعروف بالبرمخو. كما يعتبر مرسييه سنة801هـ/1399م هو تاريخ آخر عهد لابن هذيل بالكتابة معتمدا في تكهنه على نص لابن هذيل أورده في آخر كتابه "عين الأدب والسياسة" (مرسييه، ص11)

من هنا يستنتج أن ابن هذيل قد شارف على السبيعين من عمره ومن المحتمل أن تكون هديته الأولى إلى محمد الخامس، والتي كانت عام 1362 يكون قد قدمها وهو في الثلاثين من عمره وبالتالي يحتمل أن تكون ولادته ما بين (1328م أو 1329 /728-729هـ) ثم يضيف مرسييه استدلالا آخر معتمدا هذه المرة على رحلة البلوي والذي ترجم له ابن الخطيب كما نعرف في الكتيبة الكامنة[30] حيث ذكره باسم: "القاضي ابو زيد خالد بن عيسى بن أحمد القتوري البلوي الذي غادر الأندلس يوم السبت 18صفر730هـ قاصدا الحج" في حين يذكر مرسييه في حديثه عن البلوي أنه باشر رحلته إلى الحج عام736هـ/1335م ويعود عام 740هـ/1339م وتاريخ مرسييه هنا لا يتفق مع ما ذكره ابن الخطيب. أما سبب ذكر مرسييه لرحلة البلوي فلكون هذا الأخير كان قد أشار في رحلته إلى أحد الأسماء المعروفة باسم ابن هذيل أبو الحسن من ضمن رجالات القرن السادس الهجري وكان من سكان بلسنية ويحتمل أن يكون علي بن هذيل من أحفاده الُمهجَّرِين من بلنسية ساعة احتلالها من طرف دون خايمي دي أراغون حوالي1253م .لكن ابن هذيل هذا، وكما سبق وأن ذكرنا لا يحمل كنية الفزاري، ويبقى الاحتمال الأقرب إلى أصول علي بن هذيل هم أولئك الذين ذكرهم ابن الخطيب وأعلن نسبتهم إلى الأصول البربرية فيمكن أن يكونوا من الآباء المحتملين لعلي بن هذيل صاحب مؤلفنا هذا....

مثل هذه الاحتمالات التي توصل إليها القنصل لويس مرسييه منذ 1922م هي التي جعلت الباحث المستشرق الإسباني فرانثيسكو رويث خيريلا يعيدها على أذهان القراء عام 1991 حين قدم أطروحته حول ابن هذيل وكتابه عين الأدب والسياسة إلى جامعة مدريد المركزية. ونخلص من هذا كلّه إلى القول بأنّ البحث والتمحيص عن

أوليات بعض الشخصيات الأندلسية، كعلي بن هذيل ظل البحث يراوح مكانه منذ 1922 إلى سنة 2004 تاريخ اكتشافنا لمخطوطه الجديد هذا، والتالي فنحن نقر بما تصوره لويس مرسييه من كون ابن هذيل قدَّم مختصر التحفة كهدية لمحمد السابع أثناء اعتلائه العرش عام 1392م لأنه ربما وجد نفسه محرجا أمام حدث جلل لم يكن يتوقعه، وهو من اعتاد تقديم هدية لكل سلطان جديد فمانفكَّ أن قدم للسلطان السابق يوسف الثاني كتابه الذي بين أيدينا اليوم "فكاهات الأسمار..." حتى وجد المنية تختطفه بسرعة وبالتالي وجد نفسه أمام حدث غير متوقع وكان عليه أن يقدم شيئا إلى السلطان الجديد محمد المستعين بالله فعمد –ربما– إلى هذا المخرج الذي تكهنه الباحث لويس مرسييه وإن كنَّا نسجل بعض التحفظ على مثل هذا الصنيع الذي يقصد به إلى الملوك لأنه يقدم لنا الكاتب ابن هذيل وكأنّي به يتحايل على السلطان النصري محمد السابع ونحن لانعتقد أن تنطلي حيلة ساذجة بهذا السهولة على سلطان ما يزال يوجد في ديوان إنشائه من عاصر كل هذه الأحداث وعايش تاريخ إنجاز كتاب تحفة الأنفس لابن هذيل وتقديمه للسلطان محمد الخامس الغني بالله عام 1362م... وعارفا بمؤلفات ابن هذيل التي سبق وأن تداولها الناس بغرناطة وخارجها.

أما إذا رجعنا إلى مصادر أخرى، وهذه المرة دائرة المعارف الإسلامية:

Encyclopedie de l'Islam 2 ed Leiden, Paris,1954, tome3, pp227-228.

فإننا نجد فيها ترجمة محررة حول علي بن هذيل عام 1922 بقلم كل من (**E.Viré**) و(**Louis Mercier**) نعثر فيها على كل ما سبق ذكره، بحيث يؤكد فيها احتمال انتساب علي بن هذيل إلى المقرئ ابن هذيل من سكان بلنسية كما يؤكد فيها احتمال تقديم ابن هذيل لكتابه التحفة كهدية إلى محمد الخامس، وكتاب حلية الفرسان كهدية إلى السلطان محمد السابع، ثم يختتم الترجمة كما هو معروف بذكر المصادر التي أسعفته من مثل عودته لـــ:

Geschichte der Arabischen Litteratur, Zweitr supplementband von Prof Dr C-Brockelmann, Leiden, 1938 tome2.

مع ذكره كذلك لاكتشافه لمؤلفات ابن هذيل ونشرها بالعربية ثم ترجمتها إلى الفرنسية من طرفه معلنا صدورها تباعا كالآتي: حيلة الفرسان وشعار الشجعان (صدور النص العربي باريس عام 1922) ثم صدور النص مترجما إلى الفرنسية مع التعليق من طرف مرسييه عام 1924، ثم يأتي بعد ذلك على ذكر "حلية الفرسان وشعار الشجعان"لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي تحقيق وتعليق محمد عبد الغني حسن، نشر دار المعارف للطباعة والنشر ضمن سلسلة ذخائر العرب، رقم6، عام 1951، والتي مجمل صفحاتها335 صفحة، ثم يعقب لويس مرسييه على إنجاز محمد عبد الغني حسن بأنه مجرد إعادة نشر للنص الذي سبق له وأن نشره بفرنسا.

4- الجهود العلمية لبعض المستشرقين حول ابن هذيل

أ- ماريا خيسوس فيغيرا وترجمتها لحلية الفرسان:

يجب التنويه في البداية بجهود بعض المستشرقين الذين كانت لهم اليد الطولى على تراثنا العربي الإسلامي، وأما ما يتعلق بكاتبنا علي بن عبد الرحمن بن هذيل فيكمن أن نقول إنه كان محظوظا حيث نال قسطا معتبرا من عناية المستشرقين مما جعله يعوض الصدود الذي جابهته به المصادر وكتب التراجم حين عزفت عن ذكره والاعتناء بآثاره. فهاهو كما سبق وأن ذكرنا تُقَيِّضُ له المقادير القنصل الفرنسي لويس مرسييه المولع بأفكاره وآثاره مما دفعه إلى صرف وقت طويل من انشغالاته العلمية في البحث في مؤلفات علي بن هذيل حيث يعود له الفضل في إطلاع الغرب على هذا الكاتب، وعلى جل مؤلفاته التي تدور على وجه الخصوص حول موضوعات كالفروسية والسلاح والجهاد والأخلاق والعبر من سير الأوائل...دون أن ينعدم منها طبعا الأدب عامة والشعر خاصة.

فلهذا البحاثة يعود الفضل في تحديد معالم الطريق العلمية المؤدية لابن هذيل وآثاره، وبالإضافة إلى هذا فقد أهدى هذا الباحث لتراث الإنسانية جهدا كبيرا أوصل

من خلاله آثار ابن هذيل إلى الشعوب الناطقة باللغة اللاتينية وهو ما دفع الباحثة والمستشرقة الإسبانية ماريا خيسوس فيغيرا أن تأخذ على عاتقها مهمة القيام بترجمة كتاب "حلية الفرسان وشعار الشجعان" إلى اللغة الإسبانية حيث أخرجته بهذا العنوان عام 1977.

Ibn Hudayl: Gala de Caballeros, Blason de Paladines, Edicion Preparada por Maria Jesus Viguera. Editorial Nacional, Madrid 1977.

أين ذكّرت في تقديمها لهذه الترجمة بمؤلفات ابن هذيل مقتصرة على: "كمال البغية والنيل"،و"مقالات الأدباء ومناظرات النجباء"،و" تذكرة من اتقى"، و"عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة"... دون أن تأتي بشيء جديد حول ابن هذيل وحياته.

ب- فرانثيسكو رويث خيريلا وترجمته لكتاب عين الأدب والسياسة:

في 11 من شهر يناير 1991 تقدم الباحث الإسباني والمستشرق فرانثيسكو رويث خيريلا بأطروحة إلى جامعة مدريد المركزية موسومة بـــ : "عالِم إنساني من غرناطة النصرية علي بن هذيل (مع دراسة خاصة) لكتابه عين الأدب والسياسة)"

Francisco Ruiz Girela: Un Humanista de la Granada Nazari; Ali b. Hudayl (con estudio especial de su obra Ayn al-adab wa -l-siyasa). Coleccion Tesis Doctoral n° 306/91 Editada e imprime la Editorial de la Universidad Complutense de Madrid. Madrid.1991.

أطروحة ستعيد من جديد الاهتمام بأديبنا علي بن هذيل، لكن هذه المرَّة سيحظى فيها كتابه "عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة" بترجمة كاملة إلى اللغة الإسبانية مع تقديم من طرف الباحث مسَّ العديد من جوانب حياة ابن هذيل نذكر منها على سبيل المثال: بعض الملامح عن حياة ابن هذيل وعصره، وقفة مع الجنس الأدبي ثم حديثا إجماليا عن محتوى كتاب عين الأدب والسياسة والذي من مميزاته كما قال الباحث، وكما قال من قبل لويس مرسييه أنّه حفِظ لنا بعض العيِّنات من كتب سابقة لابن هذيل ككتابه: كمال البغية والنيل، وتذكرة من اتقى، ومقالات

الأدباء، والتي لم يبلغ إلينا منها سوى بعض هذه المقطوعات، التي يعود الفضل في كشفها إلى كتاب عين الأدب والسياسة حيث وردت العديد من الإشارات الصريحة في ثنايا هذا الكتاب كأن يقول على سبيل المثال عن كتابه كمال البغية والنيل ما بين صفحة 83 و100من النص العربي لعين الأدب والسياسة: "ومن المنقول في تأليفنا من البغية والنيل..."

في حين نجده يذكر في صفحة 102 و165 و226 المنقولات من كتاب مقالات الأدباء قائلا: " ومن المنقول من تأليفنا مقالات الأدباء..." أما كتابه الثالث "تذكرة من اتقى" والذي يبدو ذا محتوى دينيا فنجده يقتطع منه مقولات في صفحة186و222 قائلا: "ومن المنقول من تأليفنا تذكرة من اتقى..."ونجده في ختام كتابه عين الأدب والسياسة ص257 يقول أيضا: "ومن المنقول من تأليفنا تحفة الأنفس..." وهو ما لم يشر إليه مرسييه ولا خيريلا فما يمكن الإشارة إليه بعد التمعن في كتاب "عين الأدب والسياسة..." الذي اعتبره لويس مرسييه آخر مؤلفات ابن هذيل أنّنا لا نجد فيه ذكرا أو تلميحا لكتاب ابن هذيل الجديد الذي نقدمه اليوم "فكاهات الأسمار..." فكما لاحظنا فإن ابن هذيل في كتابه الأخير المحتمل نجده يذكر أربعة مؤلفات من كتبه السابقة، لكن ما استطعنا اكتشافه في المخطوط الجديد "فكاهات الأسمار..." هو ورود فقرة في مقدمة هذا المخطوط ص4، تتطابق تماما مع فقرة وردت في ص95 من كتاب "عين الأدب والسياسة" والتي تقولك "واعلم أن الأدب كما قيل أربعة: أدب لسان، وأدب جنان، وأدب زمان، وأدب إيمان؛ فأدب اللّسان الفصاحة والبلاغة، وذكر ما صدر عن أربابها، وأدب الجنان الانقياد والسهولة والتزين بهما، وأدب الإيمان ما جاء به الشرع من المحاسن المكملة في الأخلاق والأقوال والأفعال".

لكن رغم الجهد العلمي الكبير الذي بذله المستشرق الإسباني فرانثيسكو رويث خيريلا فإنه لم يأت بجديد فيما يتعلق بحياة ابن هذيل أو عصره و ما استطاع الباحث الإلمام به هو تتبعه الوفي في هذا البحث لخطوات الفرنسي لويس مرسييه مما

جعله محكوما بإرادته ولم يتجرأ على المجازفة بقول الجديد حول هذا الأديب الغرناطي وأعماله المتميزة.

كيف تم العثور على مخطوط ابن هذيل الجديد؟

فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار

بدأت علاقتي بابن هذيل مبكرة نسبيا حيث تعود إلى أيام دراستي بجامعة مدريد المركزية ما بين 1973-1980 أين تمكنت من الاطلاع على بعض مؤلفاته؛ كحلية الفرسان وشعار الشجعان في نسختها العربية التي أعدها القنصل الفرنسي لويس مرسييه، وكذلك النسخة التي حققهاوعلق عليها محمد عبد الغني حسن نشر دار المعارف للطباعة والنشر عام1951، وكذلك تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس التي اعتنى بنشرها وترجمتها إلى الفرنسية القنصل الفرنسي لويس مرسييه، كما كانت لي الفرصة للاطلاع على كتاب ابن هذيل "عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة" الذي طبع عام 1969 في منشورات مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة. هذه المؤلفات دفعتني الضرورة العلمية للاطلاع عليها كونها تدخل ضمن دائرة انشغالاتي العلمية آنذاك، لكنني أعترف أنني لم أستفد منها كثيرا في بحثي العلمي الذي كان مكرسا لإمارة غرناطة وكل ما يتعلق بمامن شعر وذلك لسبب بسيط كون أن محتوى أعمال ابن هذيل المذكورة نادرا ما نعثر فيها عن أخبار أندلسية لأن ابن هذيل حشد في هذه المؤلفات رصيدا هائلا من الثقافة المشرقية، وهو طراز من التأليف يذكرنا بكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، حيث أقدم على إعادة بضاعة المشرق إلى المشرق كما نعته بذلك الصاحب بن عباد في مقولته الشهيرة...

قد لا يكون هذا أمرا معيبا على ابن هذيل وأمثاله، لكن يمكن أن ننعته بالتقصير اتجاه ثقافة قطره الأندلسي الذي رأينا معاصرا له على سبيل المثال-رغم انشغالاته السياسية- ابن الخطيب يولي اهتماما كبيرا لثقافة عصره ومصره، ولولا

إنجازاته تلك، لما جاز لنا اليوم معرفة تلك الأخبار والأشعار التي حفلت بها مملكة كإمارة غرناطة التي امتد عمرها ما يربو عن القرنين من الزمان.

لذا فإن ابن هذيل في هذا المضمار يعتبر مقصّرا رغم الجهد العلمي الذي بذله في كتابيه: "حلية الفرسان وشعار الشجعان" و "تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس"، من أجل إيقاظ الهمم الأندلسية، وحثها على تبني فكر الجهاد للحفاظ على بيضة الإسلام في تلك الديار التي باتت مهددة، فراح انشغال ابن هذيل منصبا على تذكير الخلف بمآثر السلف، ونعتقد أن تلك المآثرتجعل لا مناص لابن هذيل أو غيره من العودة إلى منابع المشرق، فجاء حديثه عن الجهاد مذكرا ببطولات الفتوحات، كما جاء حديثه عن السياسة مذكرا بتلك المواقف التي تؤثر عن السلف الصالح أيام كان مجد الخلافة الإسلامية يظلل بظلاله مشارق الأرض ومعاربها، وقد يكوم محقا لويس مرسييه في استنتاجاته التي جعلته يتحسس عزوفا للغرناطيين عن مثل هذه المؤلفات نظرا لجنوحهم للسلم، وحبهم للحياة، ورفضهم للعنف وانشغالهم بخدمة أرضهم وتجميل محيطها وهو ما جعلهم لا ينجذبون إلى مثل هذه المؤلفات الداعية إلى التقشف ومجاهدة النفس وترصُّد المخاطر.

ويمكن القول إن ابن هذيل راح يغرد خارج السرب، فقد شذ بصوته حتى على أساتذته، وربما، يكون عزووف سلاطين بني الأحمر عن تقريبه مرده نبرته الوعظية المحفزة للهمم والرافضة لحياة الدَّعَة والتراخي التي يعيشها الغرناطيون والعدو مُحدِّق بهم من كل جانب... قد تكون هذه الأسباب، وغيرها، هي التي جعلت ابن هذيل مثلا يغلق مطاف مؤلفه: "عين الأدب والسياسة..." بما يشبه النبرة اليائسة من وضع يتعذر إصلاحه ومعالجة أدوائه قائلا: "... فهذا ما كتبه قلم الاستعجال على ضيق الحال،إذ الخاطر منقسم بين مراوضة طبع، ومحافظة على أصل وفرع، ونظر في أمر دين، ومسألة قرين، ومداراة حاسد ومدافعة معاند، وتأديب ولد، وملاحظة عادة بلد، وسياسة أهل في استصحاب حلم، وعدل وتدبير معاش، وإعداد رياش، وإصلاح حال، وفكرة في

مآل، ومعاناة دهر في صروف عام وشهر، وفي هذا كله عذر إن وقع تقصير، ولا يتفرد بالكمال إلا العليم القدير..."[31]

لا شك أن في هذه النبرة اليائسة حشرجة تريد أن تفصح عن مكنون فيتعذر عليها ذلك، كما نشعر بنبرة حزن ويأس، وعدم استجابة لما يدعو إليه وبالتالي فنبرة الإحباط بادية، والعزيمة خائرة، والوضع على ما يبدو ليس على ما يرام، أو كما يريد له أن يكون. لذا اعتبر مرسييه هذا النص بمثابة نهاية مطاف من المجاهدة العلمية لابن هذيل، واعتبر كتاب "عين الأدب والسياسة..." الذي ورد فيه هذا النص هو آخر ما نفث ابن هذيل من صدره المبحوح بالحسرة والألم على ما تخبئه الأيام لغرناطة وساكنيها... قد لانتَّفق مع ابن هذيل على هذه النظرة القاتمة، لكن ما عرفته أيام غرناطة بعد اختفاء علي بن هذيل في القرن الخامس عشر الميلادي كان فيه كل ما توقعه بل أكثر من ذلك.

لذا أعود للقول بأن جل مؤلفات علي بن هذيل لم أجد فيها ما كنت أبحث عنه، وما إن عدت إلى الوطن عام1980 وشرعت في التدريس في الجامعة، وندبت نفسي للتأليف والإبداع الشعري والترجمة، حتى وجدتني أبحث في مخزون مكتبتنا العائلية المتواضعة بشيء من التفحُّص والعناية الزائدة عن اللُّزوم، وربما مرد هذا الاهتمام هو مفعول السنوات الدراسية ومشاهداتي لمكتبات عالمية يأتي في طليعتها مكتبة الإسكوريال العريقة، التي تعددت زياراتي إليها، كذا المكتبة الوطنية بمدريد التي كنت غالبا ما أُنقّب في أرشيف مخطوطاتها أكثر من تنقيبي في فهارس مصادرها ومراجعها.

لقد ازداد شغفي بالمخطوطات حين كنت أشاهدها وهي تزين واجهات العرض في مكتبة الإسكوريال، ومن هناك عدت بشغف لمعاينة مخزون مكتبة العائلة وتفحُّص ما فيها من كنوز نادرة، وصدَّقت ذلك الحرص الشديد الذي كان يوليه الوالد بومنجل حمادي رحمه الله إلى تلك الكتب الصفراء الداكنة، المتهرِّئة الجلود، والجاثمة في كنانتها تطفح برائحة العهود القديمة وأنا تحت ذاك التأثير أجدني أقلب

صفحاتها ورقة ورقة بعناية فائقة وحنان عجيب، وإذا بي أمام مخطوط نادر لديوان أبي فراس الحمداني مثلا، وأمام "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب" لابن الخطيب، وديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومخطوط "كتاب نثر اللآلئ من كتاب سيد الأولياء أمير المؤمنين ويعسوب الدين أبي الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام"، ومخطوط "المواهب القدسية في المناقب السنونسية" لمحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر بن علي الملالي، وهو مخطوط ضخم جامع لأقطاب الطريقة السنوسية، ومخطوط ضخم في التصوف، ومخطوط "كتاب الوسائل في معرفة الأوائل" للشيخ الإمام الحجة المجتهد خادم السنة وجابرها أبي الفضل جلال الدين السيوطي الشافعي، وهو أيضا مخطوط ضخم وعظيم الفائدة، ومخطوط نادر أيضا ليتيمة الدهر للثعالبي، وجزء ضخم تهالكت صفحاته من نفح الطيب للمقري وغيرها من المخطوطات التي حافظ عليها الوالد – وورثها من عهد جدّنا الأعلى جابر بن أحمد بن يوسف اليومني حمادي المولود عام 1810 بقرية سمندو قديما زيغود يوسف حاليا ولاية قسنطينة–. وكان يحيطها بهالة من التقديس تجعلنا لا نتجرَّأ حتى على ملامستها لاعتقادنا أنها مقدسة وطاهرة وقد ينجرُّ عن ملامستها ما يؤذي النفوس وتطالها اللَّعنة.

1- مخطوط ابن هذيل "فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار":

كان من ضمن هذه المجموعة من المخطوطات، مخطوط لم يذكر في صفحته الأولى مؤلفه، ويظهر أن ناسخ المخطوط تعذر عليه قراءة اسم المؤلف وما يصحب ذلك عادة من تقديم مسجوع، فترك بياضا يدل على حذف، وجاءت صفحته الأولى تتخللها الفراغات وعلى رأس الصفحة الثانية كتب بالخط الأحمر البارز: "... وكان مولانا أمير المسلمين المستغني بالله أبو الحجاج بن مولانا أبي عبد الله محمد بن مولانا أبي الحجاج يوسف بن مولانا أبي الوليد بن نصر المنصور الظاهر..."[32] هذه الأسطر القليلة جعلتني أتأكد من أن المخطوط يتعلق بإمارة غرناطة، وذلك لسابق معرفتي الدقيقة بسلاطين هذه الإمارة ومجريات أحداثها السياسية، وهو ما شجعني على

الشروع في نسخه، بخط يدي مستعملا قلم الرصاص حتى أتمكن من الحذف والتصحيح والتعديل بحسب قدرتي على فك رموز هذا المخطوط الذي كانت حروفه جد دقيقة وغاية في الإتقان والجمال، حيث اعتمد ناسخه المحترف على ما يبدو على استعمال القلم الرقيق، وزاد من رونق هذا الخط اعتماد الناسخ الألوان كالأسود الدّاكن للعناوين واللّون الأحمر للعناوين التي يريد إبرازها بشكل ملفت للانتباه، إما لمكانة أصحابها أو لأهميتها بالنسبة لمضمون الكتاب.

بالإضافة إلى ذلك فإنه استخدم الفاصلة باللون الأحمر إما للإشارة لأجزاء الأبيات الشعرية أو للفصل بين الجمل وهو شيء جديد في نسخ المخطوطات يدل على حرَفية متقدمة. فرحت ناسخا هذا المخطوط بشكل دوري وبدون تسرع إلى أن تمكنت من التحكم في مختلف أشكال الحروف المستعملة من طرف الناسخ، فراحت المهمة تزداد سهولة يوما بعد يوم، ولم أدر أنني من الممكن أن أعثر على صاحب المخطوط في طيّات الكتاب، وما إن بلغت ص87 من المخطوط حتّى وجدت قولا يقول: "وكتبت لمولانا أمير المسلمين الغني بالله محمد بن يوسف بن نصر قدس الله روحه وبرّد ضريحه:

ليس يا مولاي لي من جابر ... إذ غدا قلبي من البلوى جذاذا
غير صكٍّ أحمر تكتب لي ... فيه يمناك اعتناء صحَّ هـــذا

هذان البيتان جعلاني أتذكر مباشرة أنهما مرّا بي في كتاب "نفح الطيب" أثناء مطالعاتي الكثيرة له، وأذكر أنّي علقت عليهما لكونهما تمت صياغتهما على شاكلة صياغة بيتين لشاعرة غرناطية تُدعى حفصة بنت الحاج الركُوني خاطبت بها المنصور المريني حين سألها يوما أن تنشده ارتجالا فقالت:

أَمْنُنْ عليَّ بصك ... يكون للدهر عدَّهْ
تخطُّ يُمناك فيـــه ... الحمد لله وحـــدهْ

قال فمنَّ عليها وحرز لها ما كان لها من ملك"[33] فعدت من توّي إلى نفح الطيب فوجدت نص النفح يكشف لي عن صاحب البيتين، وبالتالي صاحب مؤلف المخطوط الموجود بين يدي إذ يقول المقري: "وكتب ابن هذيل الفزاري للغني بالله سلطان لسان الدين بن الخطيب (ثم يذكر البيتين)"[34] وبفكي لهذا اللغز خامرني ما يشبه اليقين أن هذا المخطوط هو من تأليف ابن هذيل الفزاري صاحب "حلية الفرسان، وتحفة الأنفس..." فرجعت مجددا أسعى لإنهاء استنساخه علّني أعثر على مزيد يوضح لي أكثر نسبة هذا المخطوط لعلي بن هذيل، لأن هذا الاكتشاف المفاجئ دفعني مباشرة إلى العودة إلى ترجمة المستشرق الفرنسي لويس مرسييه لتحفة الأنفس والصادرة عام 1939 بباريس والتي كنت من حسن الحظ أمتلك نسخة منها اشتريتها من سوق الكتب القديمة بثمن بخس، فرحت مدققا في سرد ثبت مؤلفات ابن هذيل التي يذكرها لويس مرسييه فعاودتني خيبة الأمل من جديد لانعدام وجود كتاب لابن هذيل ضمن آثاره الباقية يحمل هذا العنون، وزاد من يأسي أكثر كون اعتماد مرسييه كان دقيقا لأنه اعتمد على كبار المحققين من المستشرقين العارفين بأسرار المخطوطات العربية وأماكنها من أمثال بروكلمان ودرنبورغ وكاسيري... وهو ما زاد في شكي ثانية في انتساب هذا المخطوط لابن هذيل ورحت أعيد النظر في احتمال إمكانية التعرف على صاحب المخطوط من خلال بيتين من الشعر، ورحت متسائلا مع نفسي لماذا لم يذكر يا ترى ابن هذيل اسمه ولو مرة واحدة في مخطوطه هذا؟

هل هو معروف إلى درجة تجعله يكتفي بقوله مثلا: "كما قلت..." ليعرف الناس أن قائل هذين البيتين هو علي بن هذيل؟ أسئلة غريبة أحبطت عزيمتي في التعجيل بإتمام تحقيق المخطوط، ولا أنكر أنني تركته جانبا ورحت منغمسا في انشغالات علمية أخرى، حيث عوّضت ذلك المخطوط بمخطوط آخر لأحد أعلام قسنطينة هو عبد القادر الراشدي القسنطيني وكتابه: "تحفة الإخوان في تحريم الدخان" فعكفت على

تحقيقه والتقديم له تقديما ضافيا وبعثته إلى دار الغرب الإسلامي ببيروت، وبعون الله، عرف طريقه للنشر في تلك الدار المحترمة وصدر عام1997.

لكن أملي في العودة إلى مخطوط ابن هذيل ظلّ مشروعا قائما ينتظر الفرصة السانحة التي تخرجني من زحام التدريس والمسؤوليات والتأليف في موضوعات آخرى وكذا الإبداع الشعري والترجمات...

2 - التأكد من صحة انتساب المخطوط لعلي بن هذيل

كما قلت سابقا، بالإضافة إلى التأليف والانشغالات الأخرى كنت دائم الحضور على صفحات الجريدة المحلية بمدينة قسنطينة، فجريدتنا المحلية "النصر" كان بيني وبينها صلة رحم عميقة الجذور، فعلى صفحاتها عرفت النور أُولى قصائدي أيام الشباب، وأولى محاولاتي العلمية في ميدان البحث، وبالتالي ظل هذا الرباط متواصلا بيني وبين الجريدة إلى يومنا هذا، وهو ما جعلني دائم المطالعة لها وخاصة لصفحاتها الثقافية، ولم أكن أعلم أن المفاجأة السارة سوف تكون مخبأة في هذه الصحيفة. فهاهو يوم الثلاثاء الثامن من شهر فبراير عام1982 يحمل لي الجديد، فبينما أنا أطالع صحيفة ذلك اليوم استوقفني تحقيق من إعداد الصحفي الصديق والخطاط أحمد فريد الأطرش يحمل عنوان: "قرية سيدي خليفة تبوح بأسرارها" وعنوان كبير في وسط الصفحة يقول: "كنوز الماضي ينهشها سوس الحاضر"، وجاءت صفحة كاملة بدأها الصحفي بتوطئة عن الموقع الجغرافي لهذه القرية، وتاريخ تأسيسها وفترة ازدهارها، وعن شيخها الحسين ومن يكون؟ وعن الدفتر العائلي لذرية الشيخ الحسين والعلاقات الاجتماعية والإنسانية التي تربط أفراد العائلة. ثم يذكر في عنوان آخر تراث حضاري مهمل، ونداء إلى وزارة الثقافة والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ثم بدأ بعدها الصحفي بسرد محتويات مكتبة ما يعرف "بزاوية سيدي خليفة" فرحت من باب الفضول أتهجّى هذه العناوين التي يغلب عليها الطابع الديني وأحيانا اللغوي وما إن بلغت رقم 33 من تعداد الصُّحفي للمخطوطات النائمة بهذه الزاوية حتى وجدت عنوانا يصدمني ببطاقة

حرارية مفاجئة، يقول ببساطة: "فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار في علم الأدب لعلي بن عبد الرحمن الهذلي..." وإذا بكلّ ضباب الشك الذي كان يعتريني ينجلي فجأة ويعيد في نفسي من جديد رغبة العودة لمشروع التحقيق...

لا أكتم القارئ سرا إذا قلت له بأنني لم أتمكن من الاطلاع على هذه النسخة الموجودة في زاوية سيدي خليفة التي تبعد عن مدينة قسنطينة بحوالي 30كلم إلا بعد قرابة 20 سنة يطول فيها شرح مشاغلي وما شهدته الجزائر من أحداث جسام تقهر كل إرادة مهما كانت طاقتها... وأخيرا تمكنت في مطلع عام2001 من الحصول على نسخة من هذه المخطوطة الجديدة لابن هذيل وذلك بواسطة الصديق الدكتور عبد الحميد بن الشيخ الحسين الذي ينتمي إلى هذه الأسرة العريقة في العلم والجاه، ومكارم الأخلاق، وبفضل وساطته الكريمة وضماناته تمكنت من إخراج النسخة الخطية الوحيدة في مكتبتهم وتصويرها ثم إعادتها لأصحابها في أقرب الآجال كما اشترط كبير العائلة آنذاك... وفعلا كان الأمر مقضيا وباشرت التعاطي من جديد، مع مخطوط جديد بخط مغربي هذا وصفه في هذه القراءة الشكلية:

3- قراءة شكلية في مخطوط زاوية سيدي خليفة (ز.س.خ):

إن مواصفات مخطوط: "فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار" لعلي ابن عبد الرحمن بن هذيل الموجود بزاوية سيدي خليفة لعائلة بن الشيخ الحسين الواقعة في دائرة ميلة قرب قسنطينة بالجزائر، هذا المخطوط سنرمز إليه من الآن وأثناء سير التحقيق بالحروف التالية(ز.س.خ).

ز: زاوية.

س.خ: سيدي خليفة.

إنه مخطوط من الحجم الكبير مقاس18/26سم مجلد تجليدا فخما تظهر عليه علامات القِدَم ربما من كثرة الاستعمال أو من التآكل والإهمال.

لما نفتح المخطوط من البداية نجده مغلق بورق شفاف أحمر داخل التجليد، كما نجد ورقة فارغة من هذا النوع بلون وردي مشرب بالحمرة، بعدها مباشرة نجد ورقة من صلب الكتاب وهي متآكلة ومخرومة لم يسلم منها إلا القليل وقد سجل عليها بخط متواضع: "كتاب فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار[يأتي المحو والتآكل]" وتحته مباشرة: في علم الأدب، وتحت هذا العنوان السفلي في الجهة اليمنى تظر آثار بعض الكتابة المطموسة نتيجة التآكل وذهاب الحبر. أما الجهة اليسرى من الورقة ذاتها فقد ذكرت مجموعة من الأسماء متتالية، ربما من سبق لهم امتلاك هذا المخطوط، حيث جاءت أسماؤهم هكذا تنازليا:

- سي عمار
- سي عبد الرحمن
- بن سنان
- سي أحمد بن فقون

وفي ظهر الصفحة الأولى يبدأ نص الكتاب... ومزية هذه الصفحة التي تمتاز بها هذه المخطوطة على المخطوط الآخر (ب.ح) أنها رغم تآكلها الشديد وضياع أكثر من ثلثيها فإنها احتفظت باسم مؤلف الكتاب حيث ورد ذكره ليشغل حيز البياض الملحوظ والملفت للانتباه على صفحة مخطوط (ب.ح) والذي يظهر حسب تكهني أن ناسخ مخطوط (ب.ح) قد نسي ذكر اسم المؤلف إما سهوا منه، أو تأجيلا ليكتبه بحرف منمق وحبر من لون آخر، وهو ما جعلني أتكهن كذلك أن ناسخ مخطوط (ب.ح) الذي هو أحمد زروق العنتري القسنطيني كان يعتمد في نسخته على نسخة (ز.س.خ) لأسباب عدة أذكر منها:

1- كون أحد الملاك السابقين لنسخة (ز.س.خ) هو ابن الفقون وهذا اللقب هو لإحدى العائلات القسنطينية المشهورة والمجاورة لعائلة أحمد زروق العنتري.

2- إن ناسخ مخطوط (ب.ح) اعتمد الطريقة ذاتها في رسم العناوين والملاحظات البارزة المعتمدة في مخطوط (ز.س.خ).

3 – كما يؤكد تصوري هذا سقوط بعض الكلمات وترك مكانها شاغرا في مخطوط (ب.ح) من نسخ أحمد زروق العنتري الذي لا يعني سهوا منه لكن لوجودها باهتتة أو غير مفهومة أو تعرضت للمحو والتآكل في مخطوط (ز.س.خ) الأمر الذي يجعلني أرجح أن الأصل المعتمد في مخطوط (ب.ح) يمكن أن يكون (ز.س.خ) وهو احتمال كبير يؤكده أيضا قرب الشقة بين موقعي المخطوطتين، وهو ما يرجح كذلك وجود النسخة الأصلية (ز.س.خ) أولا بقسنطينة ثم انتقالها إلى زاوية سيدي خليفة، وهو ترجيح يدعمه ما أدلى به أحد أفراد عائلة ابن الشيخ الحسين قائلا: إن مكتبتهم اعتمدت في تزويدها بالمخطوطات على شراء مكتبة عائلة بن الفقون الرؤساء البارزين والمشايخ الحاكمين في مدينة قسنطينة أيام الحكم العثماني التركي، كما يعتبرون حسب المصادر التاريخية (ابن العطار مثلا) الحلفاء الرئيسيين للعثمانيين الأتراك، ومن هنا يكون من المرجح أن مخطوط (ز.س.خ) هو أقدم من مخطوط (ب.ح) الذي استنسخه الشيخ أحمد زروق العنتري عـام1179هـ/1760م ، ولسوء الحظ فإن الورقة الأخيرة من مخطوط (ز.س.خ) أتلفت وربما ضاع فيها إسم ناسخها. ولو تدبرنا مليا في الصفحة الأولى من المخطوطتين لتجلت لنا الملاحظات التالية:

يظهر أن الصفحة الأولى من مخطوط (ز.س.خ) قد تعرضت لما يشبه الترميم مما تسبب في إخلال في توازنها، فيبدو أن ورق المخطوط الأصلي اعتمد على خلفية بيضاء قصد تقويتها ولما تآكلت هذه الأخيرة انجر عنها ارتباك واضح في تسلسل الكلام وخاصة في رأس الصفحة، إذ نجد مسجلا تحت البسملة بالخط البارز والمذهب: قال عبد الله الراجي [ثم ينقطع التواصل بين حرف الجيم والياء] عفوه[ثم نجد حرف عين وبعده يحصل التآكل] ثم يدخل بين السطر الموالي المتمم لما سبق ذكره لأنه مسجل

بنفس الحرف المذهب لنجد قبل تمام هذا التسلسل علي بن عبد الرحمن بن هذيل الـــ [وينقطع تسلسل الكلام نتيجة التآكل] ويظهر أن التتمة هي "فزاري".

تحت هذا السطر تأتي بقية السطر الأول المذهب بعد الانقطاع ليبقى... الله تعالى لما يحبه ويرضـــ [ثم ياتي الانقطاع] وأعتقد أن التتمة هي ويرضاه.

ومن هنا يبدو لي أن عملية الترميم البدائية غير الحرفية التي لحقت بالصفحة الأولى قد أخلت بشكل واضح في تسلسل التقديم الذي كان من الممكن أن يظهر فيه إسم المؤلف علي بن هذيل بين تتمَّة الشطرين الأولين المذكورين الأمر الذي دفع بناسخ مخطوط (ب.ح) الشيخ أحمد زروق -ربما- إلى إغفال ذكر إسم المؤلف في نسخته، لأن الطريقة التي رسمت بها الحروف في الصفحة الأولى من مخطوط (ز.س.خ)، والترميم الذي أخل بتواصل مدلولاتها جعل الناسخ أحمد زروق -ربما- يعتريه الشك أو الالتباس أمام إسم مؤلف المخطوط. من هنا نجده يغفل ذكره في نسخته لأنه كان غير متأكد وغير عارف بحقيقة هذا الإسم فعمد إلى ترك بياض مقصود أو كما ذكرت سابقا ربما كان نتيجة سهو منه أو كان قصده تسجيله بحروف مغايرة منمقة وبلون آخر والله أعلم...

4- قراءة شكلية في مخطوط بو منجل حمادي (ب.ح):

هذا المخطوط هو ملكية بو منجل حمادي والذي سوف نرمز له من الآن فصاعدا بهذين الحرفين (ب.ح).

ب: بومنجل.

ح: حمادي.

هذا المخطوط يبدو من خلال مظهره الخارجي أقرب عهدا بنا من سابقه وميزته أنه معروف تاريخ استنساخه، ومن قام بأمر هذا الاستنساخ حيث نجد في صفحته الأخيرة وبالتحديد في الأسطر الأخيرة المقولة التالية: ص118"...تم الكتاب

المبارك، بحمد الله وعونه، وحسن توفيقه على يد كاتبه الفقير المجتبى أحمد زروق بن محمد العنتري أواسط شهر الله المعظم رجب الأحب عام1179هـ/1760م" أي أنه يبلغ من العمر حاليا 244سنة.

أما شكل هذا المخطوط الخارجي فهو من الحجم المتوسط 20/14سم مجلد تجليدا أنيقا مطرزا بالحفر على الجلد الأحمر المشرب بالسواد، وجاء عنوان المخطوط في ص4 أين يقول مؤلفه "وسميته فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار"، وكتب هذا المخطوط بخط مغربي أنيق غاية في الدقة والأناقة والجمال مما يدل على براعة الناسخ المحترف حيث توازن عدد الأسطر في كل صفحة بدون إخلال يذكر بمعدل 25 سطرا في كل صفحة جاءت لتغطي مساحة مكتوبة من 14/8سم أي بمعدل سطرين في كل سنتميتر واحد تقريبا، ونظرا لهذا التوازن في عدد الأسطر من أول صفحة إلى آخر صفحة يمكن بسهولة استخراج عدد أسطر المخطوط كاملة حيث تقدّر كالآتي: 118×25=2950سطرا. كتبت كلها بالقلم الرقيق ما عدا العنواين وبعض المفردات الدالة على البدء أو الاستئناف، وكذلك المراوحة المستمرة خلال المخطوط بين عبارتي فكاهة ومذهبة. وقد تفنن الخطاط الناسخ في استعمال الألوان التي تراوحت بين الأسود والأحمر. وما يلفت الانتباه أيضا هو أن الناسخ عمد إلى رسم الفواصل بالأحمر ضمن السياق، كما عمد أحيانا إلى تأطير بعض الصفحات بالخط الأحمر، وبالتالي فمخطوط (ب.ح) في غاية الإتقان تبلغ درجة تمكن من اعتباره تحفة فنية رائعة وهو ما يجعل منه نسخة خطية نادرة.

أما عيب هذا المخطوط الوحيد هو انعدام ذكر مؤلفه في الصفحة الأولى حيث نلاحظ في بداية الصفحة الأولى تحت البسملة فراغا أبيض يقدر بمساحة 40سم^2 نفترض أن الناسخ كان قد هيأها لزخرفة اسم المؤلف أو أن السهو وعدم وضوح إسم المؤلف في النسخة التي اعتمدها قد حال دون استكمال هذا الشرط الضروري، وقد سبق وأن شرحنا صعوبة فهم اسم مؤلف مخطوط (ز.س.خ) التي من المحتمل أن يكون هو

الذي اعتمده الشيخ أحمد زروق بن محمد العنتري لأنه كما سبق وأن وصفناه قد اعتراه بعض الخرم مما انجر عنه ترميم غير متقن أخل بترابط أجزاء اسم المؤلف ولقبه وكنيته وهو الاحتمال الذي أرجحه...

من كل ما سبق ذكره يمكن أن أقول إن مخطوط (ب.ح) هو أقرب إلى عهدنا من مخطوط (ز.س.خ).

5- القيمة العلمية لمخطوط " فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار" لابن هذيل

هذا المؤلف في رأيي هو من بين آخر مصنفات علي بن هذيل حيث تكشف كل القرائن التي سبق وأن أفضنا فيها القول أنه ألفه وقد تجاوز الستين من عمره وبالتحديد عام 1390م لذا جاء هذا المصنف مغايرا لتصانيفه السابقة التي غلبت عليها نبرة الوعظ والإرشاد وإيقاظ همة الأمة وحث السلاطين على تبني فريضة الجهاد والإعداد لعدوهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، الأمر الذي جعلنا، وجعل غيرنا من أمثال الفرنسي لويس مرسييه يرجح عدم إقبال الغرناطيين على مثل هذه المؤلفات التي شحنها ابن هذيل بمحفوظه الهائل من سير السلف والشعوب الغابرة وما توالى عليها من عواقب كانت وخيمة النتائج.

من هنا يبدو لنا أن ابن هذيل كمن وعى درس الإعراض عن بضاعته العلمية، الأمر الذي جعل اسمه غير متداول في مضانّ مصادر التراجمة والمحققين من أبناء عصره، أو ممن جاء بعدهم ويكفي دليلا على ما نقول اختفاء اسمه من مدونة ضخمة عن تراث الأندلس كالتي أنجزها المقري التلمساني والتي أتى فيها على الرطب واليابس من آثار الأندلس والأندلسيين، لكنه لما وصل إلى علي بن هذيل صاحب التصانيف العديدة اكتفى ببيتين من شعره يحملان نبرة الضراعة والتوسل لاستجداء الرحمة من السلطان الغرناطي محمد الغني بالله، ولم يذكر شيئا آخر يمس تفاصيل حياته أو مشاركته الفكرية

في أوساط مملكة غرناطة... قد يكون المقري معذورا في ذلك لأنه لم يتمكن من الحصول على ما يعرّفه بهذه الشخصية جراء تجاهل المعاصرين لابن هذيل ومكانته لكن نعتقد أن مصنفات ابن هذيل العديدة لا يمكن إلا أن يكون قد وصل منها، ولو النزر القليل، إلى جمّاعة مثل المقري أو غيره، وبخاصة أنها اشتملت على موضوعات لها هوى في نفس رجل كالمقري ومن على شاكلته، فهي تتحدث عن الإعداد للجهاد، وفنون الحرب والقتال، وعن سير النبلاء والصالحين والخلفاء الراشدين ومن سار على دربهم واقتفى أثرهم.

بل يذهب ابن هذيل أبعد من ذلك فهي تتحدث كثيرا عن سيرة المصطفى (ص) ومغازيه ونشر دعوته، كما تحدثت عن فلسفات الأمم الغابرة وحكمها من أمثال الهند والفرس واليونان، فابن هذيل لم يترك في باب السياسة مثلا مجالا إلا وطرقه وتكفي النظرة العابرة على مؤلفه "عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة" أين نجده لم يترك بابا من أبواب صيانة الملك والحفاظ عليه إلا وطرقه، كما أنه لم يترك بابا من أبواب الفروسية والجهاد والمجالدة إلا وأحاط بها علما في كتابه "تحفة الأنفس" أو "حلية الفرسان" ودون أن يتخلى –طبعا– عن علوم أخرى كالفقه والحديث والبيطرة وما إلى ذلك. فهل يعقل أن كل هذه المؤلفات لم تصل إلى أيادي الباحثين والتراجمة وجمّاعة الكتب والمصنفين؟

المهم إن عليا بن هذيل صاحب "فكاهات الأسمار" نرى أنه توقف البحث من حول أعماله منذ سنة 1922م وبعد هذا التاريخ ظلت البحوث العلمية من حوله تراوح مكانها وتنعته بالنعوت ذاتها التي ألصقها به القنصل الفرنسي لويس مرسييه، وإلى غاية1991 نجد المستشرق الإسباني فرانثيسكو رويث خيريلا يكرر على مسامعنا تلك المعلومات الجديدة القديمة مدرجا كغيره ابن هذيل في خانة المتعصبين والمهوسين بالرغبة في إذكاء أُوار الجهاد الذي اصطلحوا على ترجمته منذ مرسييه إلى يومنا هذا "بالحرب

المقدسة" وهو اتهام خطير وترجمة فيها كثير من المجازفة حسب رأينا؛ لأن ترجمة الجهاد في الإسلام لا يعادلها الحرب المقدسة ذات الإيحاء المسيحي الصليبي.

لكن ما يهمنا في هذه المناسبة السعيدة هو ضرورة إعلان الاحتفاء بهذا الاكتشاف المفرح الذي به تم تخطي عتبة البحّاثة لويس مرسييه والفتاح كُوَّةٍ جديدة للأمل يسلط من خلالها ضوء جديد على شخصية علي بن هذيل المظلوم من طرف عصره وحتى من طرف الباحثين الذين تناولوه بشيء من الحساسية المبالغ في تقديراتها. إننا اليوم نصافح المثقفين والباحثين بوجه أدبي جديد اسمه علي بن هذيل تشرق من ملامح مصنفه البهجة والحبور، ويتناول غوايات النفس المطمئنة واللوامة والأمارة بشيء من فكاهات الأسمار ومذهبات الأشعار والأخبار متنقلا بالقارئ في حدائق المعرفة الإنسانية وما انطوت عليه من ظلالات وغوايات بدون أدنى حرج أو حاجز، إذ نراه يعطي لنفسه حرية التقصّي للنبش في أعماق ثنايا الأدب المسكوت عنه شأنه في ذلك شأن سلفه صفوان بن إدريس في كتابه المتميز: "زاد المسافر وغُرَّة مُحَّيا الأدب السافر."

إن ابن هذيل في كتابه الجديد يظهر في صورة الأديب الطُلَعة الذي ألَّم بأطراف الأدب العربي من مشرقي إلى مغربي إلى أندلسي حيث أحاط علما بما يزخر به هذا التراث وآلى على نفسه أن يستجيب لدواعي منهجيته التي رسمها في مقدمة تأليفه أين أعلن عن الخطوط العريضة مفتتحا ذلك بقوله: " ...وله أبواب لئلا يسأم من يطالعه، ولا جرم أن المعنى الواحد إذا تكرر يمله سامعه فمزجت الحكايات بالأشعار، والأشعار بالحكايات وقصدت بذلك مناهضة الطباع بقراءته، واستجمام النفوس الأبيّات بعد أن قدمت مقدمه في الأدب والشعر والخاتمة إن شاء الله في الألغاز والتصحيفات وما يتعلق بذلك من النظم والنثر وسميته بفكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار."

هكذا يحدد علي بن هذيل منهج كتابه الذي يبدو من خلال كلمات التقديم أنه كتب المقدمة بعد أن أنهى الكتاب شأنه في ذلك شأن المؤلفات التي يضطلع بإنجازها

الباحثون حتى يومنا هذا، كما يؤكد في هذا المفتتح على وقت تصنيفه لهذا الكتاب والغاية المرجوة من وراء ذلك قائلا: "... وإني لم أصنفه إلا خدمة لمقامه اليوسفي وتقربا لسلطانه الأشرف النصري" ففي هذه الجمل القصيرة من الدلالات الكامنة ما يجعلها تكشف لنا تاريخ تصنيف الكتاب والغاية المرجوة من ورائه، فهو يؤكد بوضوح لمن صنف هذا الكتاب، فهو لمقامه الكريم اليوسفي، وكما ذكر في البداية لمولانا أمير المسلمين المستغني بالله أبو الحجاج ويعني بذلك كما نعرف يوسف الثاني الذي حكم ما بين1391–1392 وبالتالي فتاريخ تصنيف هذا الكتاب لا يمكن أن يكون قبل، أو بعد هذين التاريخين، ثم إن الفائدة المرجوة من هذا التصنيف المرفوع إلى جناب السلطان النصري هي غاية لم يخفها ابن هذيل، بل تجرأ على الإفصاح عنها في قوله: "... خدمة لمقامه الكريم اليوسفي وتقرُّبا لسلطانه الأشرف النصري" مما يوحي برغبة واضحة من قبل ابن هذيل سواء للانخراط في خدمة السلطان أو مواصلة في هذه الخدمة.

هكذا افتتح علي بن هذيل مؤلفه، لكنه جاء هذه المرة غير جاد في محتواه، وغير ملقن للدروس إلى من سواه كما كان الشأن مع مؤلفاته السابقة، بل ما طغى على نبرة هذا المصنف هو لغة الهزل والفكاهة والعزوف عن التقشف ومجاهدة النفس الأمَّارة وكأنّي به بعد طول العمر، وسبر أغوار المجتمع الغرناطي، وسيرة سلاطينه ووزرائه وعِلية قومه جعلته يكون مجبرا على السير في ما يتناسب والمجرى العام للتيار... فالغرناطيون وحكامهم تحكمهم رغبة جامحة إلى العبِّ من ملذات الدنيا والتمتع بمفاتن مملكتهم والانكباب على خدمة أرضهم وتوشيحها بالزرع والضرع والجنات المعروشات، مع الإتقان المفرط لقصورهم الجميلة ودورهم وقراهم البيضاء وسط الخضرة التي كثيرا ما باهى بها كاتب كابن سعيد القلعي قرى المشرق.

إن ابن هذيل بعد أن بلغ من العمر عُتيا ثاب إلى رشده، أي إلى واقعه، وهاهو يخاطب الغرناطيين في كتابه، هذا بما تهوى أنفسهم وتستحسنه أذواقهم ومسامعهم فما كان منه سوى أن حشد لهم من محفوظه الغزير وقراءاته الواسعة في التراث العربي ما

يبهج القلب ويشرح الصدور ويدرأ عن النفس كدر الخمول وعواقب المخاطر التي تخيم على عرش الإمارة الغرناطية المحاصرة بالعدو والمآمرات الداخلية.

لقد جاء كتاب ابن هذيل فكاهات الأسمار بمثابة التسلية المريحة للهموم عند احتضارها، فقد أراد من مصنفه كما قال:الخروج عن المألوف سواء من حيث عادة تبويب الكتب أو الإصرار على الدوران حول لا زمة الموضوع مما ينجر عنه أحيانا الملل والكساد وهو ما تحاشاه ابن هذيل في مصنفه هذا فراح يراوح بين الجدِّ والهزل. الجدُّ الذي تعكسه مُذْهَباته والتي هي بمثابة خُلاصات من تجارب إنسانية تتفق على مضامينها الأجناس البشرية بمختلف أعرافها ومعتقداتها ويتقبلها عقل العاقل ونزق الجاني.

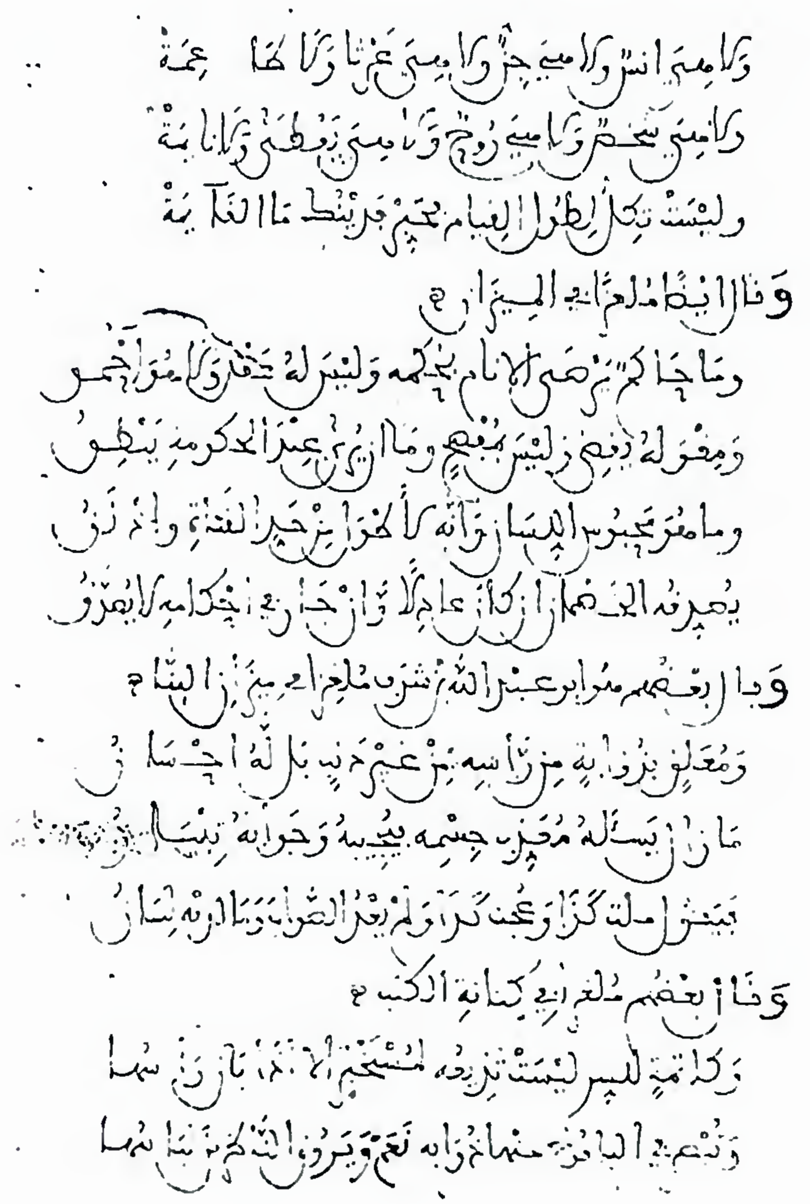
وجاء الهزل ممثلا في تلك الفكاهات الطريفة التي لا تُمجُّها الأسماع ويتضاعف حسنها واستصاغتها كلما كررت أكثر فأكثر، ولكي يوفر ابن هذيل مثل هذه الأجواء المريحة عمد إلى استحضار مادة القول الشعري كجنس أدبي محبب للنفوس لأن فيه كما يقول ترويح لأرواح ومستباح حتى من طرف العقيدة الإسلامية، بالإضافة إلى كونه من الأنواع الأدبية التي استهوته منذ أن كان يافعا حيث يقول: "وإني كنت في عنفوان الشباب وزمان الارتسام في الكتاب مائلا إلى درسه وحفظه وتحصيله إلى أن تحصل لي منه جملة مقطعات في معان مختلفة وأغراض منوعة"

هذا الكلام الأخير فيه دلالة على تعاطي ابن هذيل لقول الشعر منذ زمن مبكر في حياته إلا أن ما تبقى لنا من هذه الأشعار هي مجرد نتف قليلة ذكر بعضا منها في مخطوطه هذا وتدل على شاعرية متواضعة لابن هذيل.

ووفاء لمنهجه نجده يختم كتابه بمجموعة من الطرف النادرة والجديدة في ميدان الأدب العربي وهي مادة الأحاجي والألغاز والتصحيفات وما يتعلق بذلك من نظم

ونثر فيكشف للقراء، لأول مرة، عن هذه الطاقة الغرناطية الإبداعية التي وجدت في هذا النوع من الإبداع درءا للملل وترويحا للنفس واستنهاضا للطبع والذكاء.

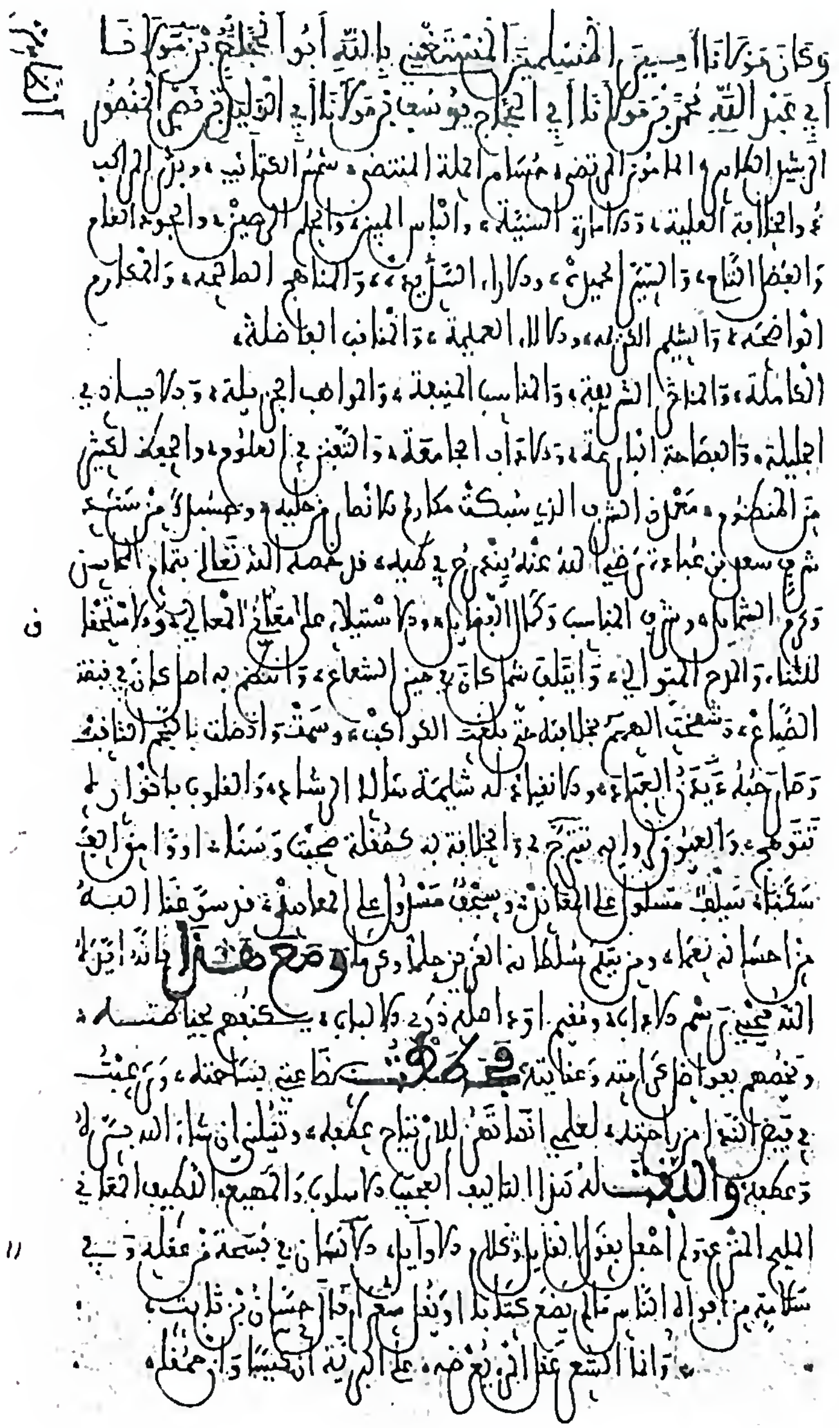
لكن ما يمكن أن نختتم به هذا التقديم هو الإشادة بالموسوعية المعرفية التي يتمتع بها علي بن هذيل مع أمانته العلمية الصارمة التي مكنتنا ونحن نحقق كتابه من إعادة ما يناهز الثمانين بالمائة من مادة كتابه إلى أصولها تقريبا، كما كشف لنا مرات أخرى عن موهبة أدبية وحس نقدي نفاذ في عملية الانتقاء التي شملت معظم عصور التراث العربي وبخاصة عصور ازدهاره سواء في المشرق العباسي أو الأندلسي المغربي فقدم لنا جملة من الإبداعات الأندلسية التي يكشف على بعضها لأول مرة وهو ما سيسمح للدراسات الأندلسية من الاستفادة من هذا الاكتشاف العلمي الجديد الذي نقدمه للقراء مع إعلان حرصنا أننا سعينا قدر المستطاع لإخراجه في أحسن صورة تليق بمكانة ابن هذيل صاحب الثقافة الموسوعية وأحد رواد التراث الأندلسي الذي زان صفحاته بمؤلفاته المتميزة التي كانت محل عناية من طرف الباحثين الغربيين على وجه الخصوص مما يدل على ما تحتويه من قيمة تضاف إلى الرصيد الإنساني.



نموذج من مخطوط (ز س ن)



الصفحة الأخيرة من مخطوط (ب.ح) أين يذكر اسم الناسخ "أحمد زروق العنتري"



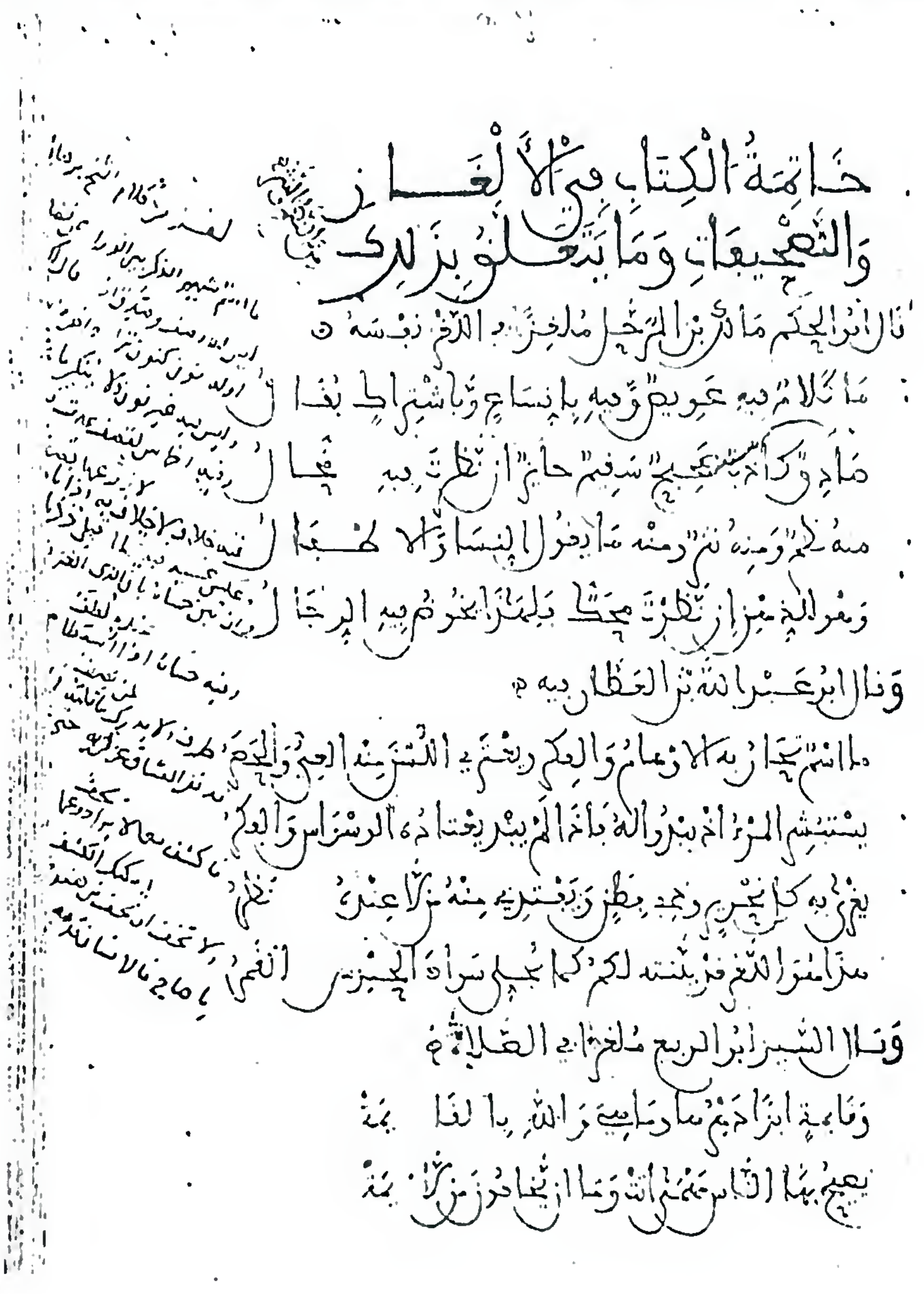
الصفحة التي يذكر فيها المؤلف، المهدى إليه في مخطوط (ب.م)



بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي من علينا بالبيان العربي، اللطيف الغريب، الجزيل

الصفحة الأولى من مخطوط (ب.م)


خاتمة الكتاب في الألغاز والتصحيفات وما يتعلق بذلك

قال ابن الحكم مالك بن المرحل ملغزا في اللام نفسه

وقال ابن عبد الله بن العطار فيه

الصفحة الأولى من خاتمة مخطوط (ز س خ)


خاتمة الكتاب في الألغاز والتصحيفات وما يتعلق بها من النظم والنثر

الصفحة الأولى من خاتمة مخطوط (ب.م)

الهوامش:

1 ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص390.

2 ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص194-195.

3 ابن الخطيب:الإحاطة، ج4، ص195.

4 ابن الخطيب: الإحاطة، ج3، ص538.

5 ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص499.

6 ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص255.

7 ابن الخطيب: الإحاطة، ج3، ص538.

8 المقري: نفح الطيب، ج2، ص226، 376، 506، 510.

9 المقري: نفح الطيب، ج4، ص19.

10 ابن الخطيب: الإحاطة، ج3، ص538.

11 المستدرك من الإحاطة: تحقيق عبد السلام شاقور، ص205، ترجمة رقم234.

12 نفسه: ص230.

13 ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص88-100.

14 ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة، ص149-152.

15 ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة، ص149-152.

16 المصدر نفسه: ص272-274.

17 المصدر نفسه: ص128-134.

18 ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص532-537.

19 ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة، ص283.

20 ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص194.

21 المقري: نفح الطيب، ج4، ص19.

22 المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، ص282، ترجمة رقم566.

23 ابن الخطيب: الإحاطة، ج3، ص209... كان هذا الأديب حيا عام760هـ

24 ابن هذيل: عين الأدب والسياسة، ص93.

25 ابن السماك: الزهرات المنثورة، ص27.

26 ابن الخطيب، ج2، ص181-186.

27 ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص302-303.

28 ابن السماك: الزهرات المنثورة، ص27.

29 ابن هذيل: حلية الفرسان، ص23-24.

30 ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة، ص134-135.

31 ابن هذيل: عين الأدب والسياسة... ص264.

32 مخطوط (ب.ح) ص2.

33 ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص501.

34 المقري: نفح الطيب، ج4، ص19.

قراءة في مخطوط تاريخ ميورقة
لابن عميرة المخزومي

د. محمد بن معمر، جامعة وهران

- مؤلف المخطوط

هو أبو المطرّف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن أحمد بن عميرة المخزومي[1]، ولد في شهر رمضان س نة 582هـ بمدينة بلنسية، وأصل سلفه من جزيرة شقر القريبة من شاطبة, بينها وبين بلنسية ثمانية عشرة ميلا شرق الأندلس.

كان في بداية طلبه للعلم شديد العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث وأخذه عن مشايخ أهله، ثم تفنن في العلوم ونظر في المعقولات وأصول الفقه ومال إلى الآداب وبرع فيها[2]. ومن شيوخه الأندلسيين الذين أخذ عنهم وتتلمذ لهم، الشيخ أبو الخطاب أحمد بن محمد بن واجب القيسي(537-614هـ)، والشيخ أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي(565-624هـ)، وعنه أخذ أيضا المؤرخ الأديب ابن الأبار وهو من أكبر أساتذته وأبعدهم أثرا في حياته، لأن ابن الأبار كان معاصرا لأبي المطرّف وهو ابن بلده، والأستاذ أبو عبد الله محمد بن أيوب السرقسطي(530-608هـ)، والأستاذ ابن حوط الله الأنصاري(552-621هـ)، والشيخ أبو علي بن الشلوبين، والشيخ ابن عات وغيرهم، وأجازه من المشارقة أبو الفتوح الحصري.

وبعدما أكمل دراسته وأنهى تحصيله العلمي اشتغل بوظيفتي القضاء والكتابة، حيث تولى قضاء أريولة وشاطبة بشرق الأندلس. كما استكتبه أمير بلنسية الرئيس أبو جميل زيان بن سعد بن مردنيش الجذامي ايام إمارته على بلنسية وخلال انتزاعه لمدينة مرسية من عميد علمائها الفقيه أبي بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب في رمضان سنة

636هـ، وكان الأخير من أبرز أساتذة أبي المطرف حيث انتفع به كثيرا قبل توليه ما تولي من رئاسة بلده مرسية.

ولما سقطت مدينة بلنسية على يد النصارى سنة 636هـ، غادر أبو المطرف الأندلس متجها إلى العدوة المغربية وورد على الخليفة الموحدي الرشيد أبي محمد عبد الواحد بن أبي العلا إدريس المأمون (630-640هـ) وصحبه حين قفوله من مدينة سلا إلى حضرة مراكش وكان ذلك في سنة 637هـ[3].

واستكتبه الرشيد مدة يسيرة، ثم صرفه عن الكتابة وقلده قضاء مدينة هيلانة شرق مراكش، ثم نقله إلى قضاء رباط الفتح وسلا، وأقام يتولاه إلى أن توفي الرشيد وخلفه أخوه الخليفة الموحدي العاشر أبو الحسن السعيد (640-646هـ) فاقره عليه مدة ثم نقله إلى قضاء مدينة مكناسة الزيتون. ولما بايع أهل مكناسة الأمير أبا زكريا الحفصي، كان القاضي أبو المطرّف هو الذي كتب نص البيعة في 20 ربيع الأول 643هـ، وحين قام إليهم الخليفة السعيد بحنق عظيم بادروا بطلب العفو واعتذروا عما بدر منهم وبايعوه من جديد وكتب نص البيعة ابن عبدون في ذي الحجة من السنة المذكورة[4].

ثم لما قتل الخليفة الموحدي السعيد في صفر 646هـ، اغتنم أبو المطرف تلك الفترة ورحل من مكناسة قاصدا مدينة سبتة، وفي طريقه إليها سلبت منه ثروته في فتنة بني مرين، وقد كتب إلى الشيخ أبي الحسن الرعيني يعلمه بهذه الحادثة وان ماله المنهوب قد بلغ أربعة آلاف دينار وكان ورقا وعينا وحليا وغيرها.

وكان كثير التطلع إلى إفريقية معمور القلب بسكناها مذ فارق جزيرة الأندلس، لذلك ركب البحر من سبتة متوجها إليها بعد حادثة فتنة بني مرين، ووصل بجاية في شهر جمادى سنة 646هـ ودخل على صاحبها الأمير أبي يحي ابن الأمير أبي زكريا الحفصي وكان صاحبها لأبيه. وأقام بها حوالي سنتين يعلم ويدرس، وكان الطلبة

أثناء ذلك يقرأون عليه تنقيحات السهروردي، وهي من مغلقات أصول الفقه، عند طائفة ممن لم يمارس علم الأصول, ولا يتعرض لإقرائها إلا من له ذهن ثاقب[5].

ومن بجاية انتقل إلى تونس حيث مال إلى صحبة الصالحين بها والزهاد أهل الخير برهة من الزمان، ثم نزع عن ذلك، وتقلد قضاء الأربس، فقضاء قابس الذي طالت مدته به. ثم استدعاه الأمير الحفصي المستنصر بالله محمد بن أبي زكريا(647–675هـ)، وصار من خواص الحاضرين بمجلس حضرته، ومن فقهاء دولته، ويذكر صاحب الذيل والتكملة أن أبا المطرف داخل المستنصر مداخلة أنكرها عليه، ولما سئل عنه قال المستنصر: ذلك رجل رام إفساد دنيانا علينا فأفسدنا عليه دينه. ويرى نفس المؤلف أن صاحب الترجمة كان متشبعا بالعلوم القديمة متعاطيا لها وأنها السبب في الإخلال بمعتقده والافتتان في آخر عمره، إذ كانت وفاته بتونس في 20 من شهر ذي الحجة سنة 658هـ[6].

ترك أبو المطرف مجموعة من التصانيف في ميادين الأدب والتاريخ والفقه، فمن آثاره التاريخية: تاريخ ميورقة موضوع هذه الورقة العلمية, واختصار كتاب ثورة المريدين لابن صاحب الصلاة. ومن مؤلفاته الفقهية كتاب تعقب فيه على الإمام فخر الدين بن الخطيب الرازي في كتابه المعالم في اصول الفقه وقد اطلع عليه الغبريني صاحب عنوان الدراية ووصفه قائلا: وقد رأيت له تعليقا على كتاب المعالم في أصول الفقه لا بأس به, وهو جواب سؤال سائل, وهو مكمل لعشرة أبواب حسبما سأل السائل.

أما إنتاجه الأدبي فمنه: كتاب رد به على أحد معاصريه من المشارقة وهو كمال الدين أبي محمد بن عبد الكريم الزملكاني في كتابه التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، سماه كتاب التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات. وأما رسائله الديوانية والإخوانية النثرية والنظمية الكثيرة التي خاطب بها ملوك ورؤساء وأعيان وأدباء عصره، فقد دونها الأستاذ أبو عبد الله محمد بن هانئ السبتي(ت733هـ) ورتبها في

كتاب سماه بغية المستطرف وغنية المتطرف من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف[7].

وفي ختام هذا التقديم الموجز لحياة أبي المطرف لا بأس من إيراد بعض الشهادات في حقه. فهذا معاصره وابن بلده ابن الأبار قد حلاه بالعبارات التالية: فائدة هذه المائة، والواحد يفي بالفئة، الذي اعترف باتحاده الجميع، واتصف بالإبداع فماذا يتصف به البديع، ومعاذ الله أن أحابيه بالتقديم، لما له من حق التعليم، كيف وسبقه الأشهر، ونطقه الياقوت والجوهر، تحلت به الصحائف والمهارق، وما تخلت عنه المغارب والمشارق، فحسبي أن أجهد في أوصافه، ثم أشهد بعدم إنصافه، هذا على تناول الخصوص والعموم لذكره، وتناول المنثور والمنظوم على شكره[8].

وهو عند ابن عبد الملك، علم الكتابة المشهور، وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدهور، ولا سيما في مخاطبة الإخوان، هنالك استولى على أمد الإحسان، وله المطولات المنتخبة، والقصار المقتضبة، وكان يملح كلامه نظما ونثرا بالإشارة إلى التاريخ ويودعه الماعات بالمسائل العلمية منوعة المقصد ... وكان حسن الخَلق والخلق، جميل السعي للناس في أغراضهم، حسن المشاركة لهم في حوائجهم، متسرعا إلى بذل مجهوده فيما أمكن من قضائها بنفسه وجاهه[9].

أما صاحب الإحاطة فقد قال في حقه: وعلى الجملة فذات أبي المطرف فيما ينزع إليه، ليست من ذوات الأمثال، فقد كان نسيج وحده، إدراكا وتفننا، بصيرا بالعلوم، محدثا مكثرا، راوية ثبتا، سجرا في التاريخ والأخبار، ديانا مضطلعا بالأصلين، قائما على العربية واللغة، كلامه كثير الحلاوة والطلاوة، جم العيون غزير المعاني والمحاسن، وافد أرواح المعاني، شفاف اللفظ حر المعنى، ثاني بديع الزمان في شكوى الحرفة وسوء الحظ ورونق الكلام ولطف المأخذ، وتبريز النثر على النظم والقصور في السلطانيات[10].

وجاء عنه في عنوان الدراية أنه الشيخ الفقيه، المجيد المجتهد، العالم الجليل الفاضل، المتقن المتفنن، أعلم العلماء، وتاج الأدباء، له أدب هو فيه فريد دهره، وسابق أهل عصره، وفاق الناس بلاغة، وأربى على من قبله[11].

وقال فيه بعض علماء المغرب: هو قدوة البلغاء، وعمدة العلماء، وصدر الجلة الفضلاء، ونكتة البلاغة التي قد أحرزها وأودعها، وشمسها التي أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها، مبدع البدائع والتي لم يحض بها قبله إنسان، ولا ينطق عن تلاوتها لسان، إذ كان ينطق عن قريحة صحيحة، وروية بدرر العلم الفصيحة، ذللت له صعب الكلام، وصدقت رؤياه حين وضع سيد المرسلين في يديه الأقلام[12].

تلك هي سيرة أبي المطرف المخزومي التي قدمناها بإيجاز، وخلال حياته المضطربة، التي كانت تميز حياة الكثيرين من أبناء عصره ووطنه، أصبح ذلك الفقيه الذائع الصيت، الطائر الذكر، المولع بالتاريخ والأدب، معروفا لدى القاصي والداني والعام والخاص، بأناقة أسلوبه المزخرف وغزارة لغته. وكانت رسائله النثرية والنظمية سيما تلك الموجهة إلى الأمراء أو المحررة باسمهم يضرب بها المثل.

- محتوى المخطوط

إن النسخة الوحيدة من مخطوط تاريخ ميورقة المستعملة في هذه الورقة العلمية هي نسخة مصورة بواسطة القرص المضغوط عن النسخة الموجودة بخزانة زاوية سيدي بلعمش بمدينة تندوف. لأن البحث عن نسخة أخرى في الخزائن والمكتبات العامة والخاصة لم يجد نفعا. وكانت الحصيلة من كل الجهد الذي بذل في هذا الشأن النسخة المشار إليها.

يقع المخطوط في 26 ورقة (52 صفحة)، مقاسه 18 في 24 وعدد الأسطر في كل ورقة 23 سطرا، الخط مغربي عادي، وهو خال من أي ذكر لاسم الناسخ وتاريخ ومكان النسخ، وغير مرقم. بدايته هي: الحمد لله مصرف الأقدار على مشيئته. ونهايته

هي: نسخ وقوبل من خط مؤلفه رحمه الله تعالى. لا توجد به تعقيبات أو تعليقات. وقد ورد ذكر عنوان المخطوط وهو تاريخ ميورقة واسم مؤلفه وهو ابن عميرة المخزومي أبو المطرف في الورقة الأولى.

وكتاب تاريخ ميورقة هو أحد كتابين ألفهما ابن عميرة المخزومي في ميدان التاريخ فعدّ من أجل ذلك في سلك المؤرخين. أما الكتاب الثاني فهو "اقتضاب ثورة المريدين" كما يسميه ابن عبد الملك في الذيل وابن الخطيب في الإحاطة, وهو اختصار لكتاب تاريخ ثورة المريدين الذي ألفه أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجي المشهور بابن صاحب الصلاة (ت 577هـ). والكتاب في حكم المفقود إذ لم نجد بعد ابن عبد الملك وابن الخطيب من نقل عنه أو أشار إليه, في حين نجد المقري في النفح يشير إلى الأصل المختصر وهو ثورة المريدين ويذكره باسم تاريخ في الدولة اللمتونية وينقل عنه. وأما تاريخ ميورقة فلسنا نعرف بالضبط متى ألفه ابن عميرة, ولكن الراجح أن التأليف تمّ ما بين سنة 627هـ تاريخ سقوط الجزيرة وسنة 658هـ تاريخ وفاته.

أما عن أسلوب ابن عميرة في تاريخ ميورقة, فمن المعلوم أنه قد انتهى إلينا عدد ضخم من رسائله الديوانية والإخوانية التي تفنن في أغراضها المختلفة وبها كانت شهرته الأدبية, ومن خصائصها النثرية أنها تقوم على السجع والجناس بمختلف أشكاله وعلى باقي ضروب البديع وألوانه. وهي نفس الخصائص التي التزمها في تاريخ ميورقة من أول الكتاب إلى آخره. لذلك يقول مترجمه ابن عبد الملك في الذيل إنه نحا فيه منحى الكاتب العماد الأصفهاني في كتابه الفتح القسي في الفتح القدسي. والمعروف أن هذا الكتاب ألفه العماد تخليدا لمآثر صلاح الدين الأيوبي في استرجاع بيت المقدس من الصليبيين سنة 583هـ, والتزم فيه أسلوب السجع وأكثر من المحسنات البديعية, واستطاع أن يروي أحداث التاريخ بهذا الأسلوب الذي تغلب عليه الزخرفة والتنميق. وقد عرف هذا الكتاب إقبالا كبيرا لدى الأوساط الأدبية في المغرب والأندلس,

فاختصره ابن الأبار بكتابه الوشى القسي في اختصار الفتح القدسي[13] , واختصره أيضا أبو الحسن بن القطان بتأليفه تقريب الفتح القدسي, ونحا نحوه ابن عميرة في تاريخ ميورقة.

إن المخطوط لا يتناول تاريخ جزيرة ميورقة بالمفهوم الشامل للكلمة حسبما ما يوحي به العنوان، ولكنه يؤرخ لفترة محددة وهي مرحلة السقوط النهائي للجزيرة على يد النصارى الأسبان مع التركيز على الأسباب والعوامل وكيفية السقوط. لذلك نجد جل المصادر التي ترجمت لصاحب المخطوط حين تشير إلى قائمة تصانيفه ومؤلفاته تذكر العبارة التالية:"وله تأليف في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها". والكائنة هي الحادثة، وهي عبارة بليغة تعبر عن المحتوى الحقيقي للمخطوط وتتناسب مع ما جاء فيه. وقبل قراءة وعرض حادثة السقوط موضوع المخطوط يحسن بنا تقديم كلمة موجزة عن تاريخ الجزيرة قبل أن تؤول إلى ما آلت إليه.

ميورقة هي جزيرة في البحر الزقاقي(المتوسط)، تسامتها من القبلة(الجنوب) بجاية، ومن الجوف(الشمال) برشلونة، ومن الشرق إحدى جزيرتيها وهي منورقة، وغربيها جزيرة يابسة، وهي أم هاتين الجزيرتين وهما بنتاها، بينها وبين الأولى أربعون ميلا، وبينها وبين الثانية سبعون ميلا. وطول ميورقة من الغرب إلى الشرق سبعون ميلا، وعرضها من القبلة إلى الجوف خمسون ميلا، وقد فتحها المسلمون سنة290هـ[14]، وكان الذي فتحها هو عصام الخولاني على عهد الأمير الأموي عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن(275–300هـ) ووليها عشر سنين وعمّرها، ثم وليها ابنه عبد الله حتى سنة 350هـ، ثم تعاقب عليها بعد ذلك موالي الأمويين[15].

وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وظهور ملوك الطوائف، كانت ميورقة وكل الجزائر الشرقية (جزر البليار) تتبع لمملكة دانية برئاسة أسرة مجاهد العامري. وظلت كذلك حتى سنة 468هـ تاريخ سقوط مملكة دانية في يد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة، فاستقل برئاستها حينئذ عبد الله المرتضى الذي كان واليا

عليها من قبل علي بن مجاهد العامري حتى سنة 486هـ تاريخ وفاته، فخلفه على ولايتها أحد فتيانه وهو مبشر بن سليمان فضبط شؤونها بحزم وكفاية. واستمر على حكمها فترة طويلة أي إلى غاية سنة 508هـ وهو التاريخ الذي تعرضت فيه ميورقة للغزو النصراني الذي اتحدت فيه جمهوريتا بيزة وجنوة وإمارة برشلونة، وهو أول غزو نصراني لها منذ فتحها[16].

ولكن سرعان ما استعادها المرابطون في أواخر سنة 509هـ وعينوا عليها واليا جديدا هو وانور بن أبي بكر اللمتوني، فأضحت بذلك الجزائر الشرقية جزءا من الدولة المرابطية الكبرى ودخلت في عهد جديد من تاريخها، سيما بعد تعيين محمد بن غانية المسوفي واليا عليها سنة 520هـ من قبل الأمير علي بن يوسف. واستطال حكمه لتلك الجزائر زهاء ثلاثين عاما، أي إلى ما بعد سقوط الدولة المرابطية في المغرب والأندلس. وعمل على توطيد سلطانه هناك والاستقلال بشؤونها وجعل منها ملجأ ومثوى للوافدين والفارين من فلول لمتونة أمام الموحدين. وبعد وفاته سنة 550هـ خلفه على ولاية ميورقة ابنه عبد الله الذي لم تطل ولايته إذ خلفه أخوه إسحاق بن محمد حتى تاريخ وفاته سنة 579هـ. ووليها ابنه عبد الله منذ سنة 583هـ حتى سنة 600هـ تاريخ افتتاحها من طرف الموحدين.

وكان الفتح الموحدي لميورقة ضربة شديدة لبني غانية، قضت نهائيا على سلطانهم في الجزائر الشرقية، وكان لهذا الفتح وقع عميق أيضا لدى الممالك النصرانية القريبة، سيما مملكة أراجون في شرق شبه الجزيرة، وهذا ما تشير إليه رسالة الفتح التي بعثها الخليفة الناصر من إنشاء كاتبه ابن عياش حين تقول:"ولأخذ ميورقة على صاحب أراغون وبرشلونة أشد من رشق النبل، وأهول من وقع السيف، وأوحش من القطع بحلول الممات"[17]. وكان أول الولاة الموحدين على ميورقة هو أبو محمد عبد الله بن طاع الله الكومي، ثم ولى الناصر عليها عمه السيد أبا زيد بن أبي يعقوب يوسف وندب ابن طاع الله لقيادة البحر، وبعده وليها السيد أبو عبد الله بن أبي حفص عمر

بن عبد المؤمن[18]. أما رابع الولاة الموحدين عليها فهو الذي أخذها منه النصارى، وبه استهل ابن عميرة المخزومي حديثه في مخطوط تاريخ ميورقة موضوع الدراسة.

بعد الافتتاحية وذكر السبب الداعي إلى تأليف الكتاب الذي كان بطلب من أحد أبناء ميورقة الذين غادروها بعد سقوطها ولجأوا إلى ديار الغربة، يستهل المؤلف حديثه عن واليها قائلا:"هو محمد بن علي بن موسى[19]وكان في الدولة المهدية (الموحدية) أحد أعيانها الكفاة، وأحمد من نهض بأعبائها من الولاة، إلى أن حط عن رتبته, وجوز إلى الأندلس في نكبته، ثم استقل بعض الاستقلال، وولي بلنسية وما إليها من الأعمال، وبعد ذلك بيسير تبادل هو ووالي ميورقة محلي الولاية، وأحدهما كفء الآخر في الكفاية, فعبر البحـــر إليها سنــــة 606هـــ"[20]. ثم يواصل الكلام عن سيرة وعدل هذا الوالي وكيف نعمت الرعية في عهده، إلى أن آثر حطام الدنيا وصار منهوما لا يشبع من المال.

ثم يشرع في تفصيل أسباب ومقدمات الغزو النصراني لميورقة، لأن أمراء الممالك النصرانية كانوا دائما يتوقون إلى افتتاح هذه الجزيرة، ووضع حد لغزوات ولاتها المسلمين في مياه الشواطئ النصرانية. وكان أشدهم رغبة في ذلك أصحاب أراجون الذين كانوا يرون من حقهم الطبيعي الاستيلاء عليها، لأنها كانت تواجه شواطئهم، وذلك تأمينا لمواصلاتهم وتجارتهم.

ومن ذلك أن والي ميورقة احتاج إلى الخشب المجلوب من جزيرة يابسة، فأنفذ طريدة بحرية ومعها قطعة حربية، فعلم بخبرها تجار للنصارى كانوا هنالك في قارب، فأسرعوا بالخبر إلى والي طرطوشة الذي جهز أربع قطع بحرية قامت بملاحقة الطريدة حتى اقتنصتها. فعظم ذلك على الوالي وحدث نفسه بالغزو لبلاد الروم، وبعث إلى ملك أراجون يطلبه برد الطريدة ويتوعده بالنكايات الشديدة، ولم يذكر المؤلف تاريخ هذه الأحداث.

وفي آخر ذي الحجة من سنة 623هـ بلغ الوالي أن مسطحا من برشلونة ظهر على يابسة، ومركبا آخر من طرطوشة انضم إليه، فبعث أحد بنيه في عدة قطع حربية للاستيلاء عليه. وخرج حتى نزل مرسى يابسة فوجد فيه لأهل جنوة مركبا كبيرا فأخذه ليستظهر به في القتال. أما المسطح فرغم حجز المسلمين له إلا أنه اغتنم فرصة انشغالهم وأفلت من قبضتهم، وأما المركب فقد استولوا عليه وكان فيه أربعة من جنوة هم أشهر أهلها يسارا وثروة. وقد ازداد الوالي بهذه الحملة البحرية الخاطفة اعتزازا إذ "عاد إلى ميورقة وهو يرى أنه غالب لملوك الزمن، بالغ بسيفه ما لم يبلغه سيف بن ذي يزن، وغاب عنه أنه أشأم من عاقر الناقة، وأن طليعة عمله ستلحقها من الساقة ما ليس في الطاقة"[21].

وحين علم نصارى أراغون بالخبر قالوا لملكهم خايمي الأول كيف يرضى بهذا الأمر، وإنما هي خطتان إما سلم يقبلونها على كره، أو حرب لا يدعون فيها من وجوه النظر أي وجه. فأخذ الملك عليهم العهود وأنفذ إلى ميورقة كبيرا من قومه يطلب من الوالي رد المركب والمال والأسرى ويعرض عليه الصلح، وإن أبى فإنها الحرب لا محالة. فرفض الوالي ما عرض عليه وتوعد الملك الذي أساء معه الأدب. فرجع الرسول وأخبر ملكه بما سمع، فبدأ الاستعداد للغزو حيث حشد ملك أراجون عشرين ألفا من أهل البلد، وجهز في البحر ستة عشر ألفا، وجميع ما يلزم الغزو من تجهيزات حربية. ولما رأى النصارى عزم ملكهم على الغزو حاولوا أن يمنعوه من ذلك وخوفوه من مغبة الأمر وبينوا له حصانة الجزيرة ومناعتها، ولكنه "زجرهم عن هذا الرأي، ونهاهم أن يتكلموا به أشد النهي، ومضى على عزمه في الاستعداد الذي لم يفتر عنه ساعة، ولا أخرج عن فرضيه العيني والجملي واحدا ولا جماعة، حتى استوفى النخبة من الرجال والأجناد والزعماء، وتم له ما أراد من جيش البر وعسكر الماء[22].

وفي سنة 626هـ اشتهر أمر هذه الغزوة، وتواترت الأنباء بها من الأندلس والعدوة، وفي شهر ربيع الأول منها تحرك والي ميورقة للاستعداد وتأهب للجهاد،

وميز من قومه ومن فئة الأجناد أكثر من ألف فارس ومن فرسان الحضر والرعية مثلهم ومن المشاة ثمانية عشر ألفا. وفي شعبان من نفس السنة استدعى أهل البادية ولم يرخص لأي كان في التخلف عن الجهاد، وضبط المراسي والسواحل وقدم على كل جزء قائدا وناظرا.

ولكن سرعان ما دب الشقاق في صفوف الجيش الإسلامي بميورقة بين قوم الوالي وطائفته وبين الجماعة الأندلسية، لأن طائفة الوالي كانت دائما توغر صدره وتدفعه للانتقام من الأندلسيين. ولما هال هؤلاء ما بينهم وبين طائفة الوالي من خلاف، تقرر عندهم القيام بمؤامرة لخلع الوالي وقتله، واتفقوا مع قائدهم، الذي لم يذكر المؤلف اسمه، على الوقت وطريقة القتل. ولكن واحدا من المتآمرين كشف عن تفاصيل الخطة لأحد بطانة الوالي، فافتضحت العملية وفر القائد في عدد قليل من جماعته إلى البادية مستجيرا ومستجيشا ولكن سرعان ما لحقه قوم الوالي وقتلوه مع أصحابه قبل أن يصل إلى أهل البادية. ثم قام الوالي إثر هذه المؤامرة الفاشلة بإلقاء القبض على جماعة من الجند المشتبه فيهم وأودعهم السجن ثم قتلهم.

وأثناء ذلك كانت أخبار العدو تزيد، فرأى الوالي أن يجهز قطعة حربية تستطلع وتعاين تلك الأخبار ولكن الغراب (القطعة الحربية) لما قارب أن يرى ويسمع العدو عصفت به الريح ورمته إلى مدينة بنشكلة على ساحل أراجون الشرقي حيث أضرمت فيه النار على يد النصارى. ثم أرسل الوالي في أثر الغراب قطعة ثانية تستوضح الأنباء حتى انتهت إلى وادي كونة قرب ثغر بنشكلة وأسرت فيه مجموعة من الروم وعادت بهم إلى ميورقة مسرعة، فسئلوا عن جمع العدو فقالوا قد تكامل للنهوض. ثم عزز الوالي بقطعة حربية ثالثة لاستجلاء الحقيقة فصادفت ريحا رمت بها إلى ساحل دانية فأغارت على سهلها وأخذت خمسة من أهلها. ولما ستنطقهم الوالي نفى بعضهم علمه بالخبر، وبعضهم قال: "إن أهل أراغون في هذه السنة لا يتفرغون، وهم ببلدهم شاتون، وفي الربيع المقبل آتون، فقبل الوالي هذه التوسعة، واستخشن

الهيجاء واستحسن الدعة، وأذن في الناس أن العدو غير وارد، والمثلثة في القعود على رأي واحد"[23]. كما أذن لأهل البادية بالعودة إلى بلدهم، وإنما كان هدفه من وراء ذلك مواصلة الانتقام ممن تآمر عليه.

ولما خلا له الجو أمر صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبراء ميورقة فأمر بضرب أعناقهم، وكان فيهم ابنا خالة، وخالهما هو أبو حفص بن شيري ذو المكانة الوجيهة الذي سيأتي ذكره عندما يتولى مقاومة النصارى في البادية بعد سقوط ميورقة. ففر إثر ذلك كثير من وجوه المدينة وأعيانها إلى البادية خوفا من بطش الوالي وقومه، واجتمعوا هناك بابن شيري المذكور وعزوه في ابني أختيه وعاهدوه على طلب الثأر.

وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شعبان 626هـ، والناس من خوفه في أهوال، ومن أمر العدو في إمهال، فأمر صاحب شرطته بإحضار خمسين من أهل الوجاهة بعدما أعطاه بطاقة بأسمائهم، وحضروا دار الوالي وهم ينتظرون مصيرهم المحتوم، وإذا بفارس على هيئة النذير دخل إلى الوالي، وأخبره بأن الروم قد أقبلت وأنه رأى فوق الأربعين من قلوعها. وقبل أن ينتهي من كلامه جاء فارس آخر وأخبر الوالي أن العدو قد تظاهر وأن سفنه تفوق سبعين شراعا، ولما صح الأمر عنده أمر بإطلاق سراح هؤلاء الوجهاء المحتجزين عنده وسمح لهم بالعفو، وعرفهم بخبر العدو وأمرهم بالتجهز.

وفي اليوم الموالي وهو يوم السبت ورد الخبر بأن أسطول العدو قد قرب من البلد في مائة وخمسين قطعة حربية (القلوع)، وأنه يقصد مرسى شنت بوصة. ولما رأت الروم أن الأحوال الجوية سيئة بسبب الرياح وهيجان البحر، أرادوا تأجيل الغزو إلى فصل الربيع أو الانصراف لغزو بلاد البر، وعرضوا ذلك على ملكهم، ولكنه رفض وأصر على الحرب، وحلف إن عاش فالراحة منه مطلّقة ومراجعتها بشرط أخذ الجزيرة معلقة. ولما رأوا عزمه وإصراره اتفقوا على إسعاده والامتثال لأوامره والمضي قدما إلى الهدف المنشود وهو احتلال الجزيرة.

ومع اقتراب العدو من مرسى شنت بوصة أخرج الوالي جماعة من الجند لتسد تلك المسالك وتمنع العدو من النزول في ذلك المرسى، وكان يترأس تلك الجماعة قوم من طائفة الوالي، فنُصحوا بأن يجعلوا على مرسى آخر قريب من المرسى المذكور جماعة تتولى حراسته مخافة أن يقصده العدو ليلا. ولكن قوم الوالي "باتوا يتاجرون المنكر، ويتهادون المسكر، وهم بالمعاقرة عارفون، وللمقارعة عائفون"[24]. وقالوا لأصحاب هذا الرأي كيف تنصحون وأنتم المتهمون. فكان الذي حدث أن نزل العدو في ذلك المرسى في قوة قوامها خمس مائة فارس وعشرة آلاف راجل يوم الاثنين 18 شوال 626هـ، واستطاعت تلك القوة أن تقتل مجموعة من رجال المسلمين وتأسر خيلهم وكانت هذه الهزيمة أول البلايا وفاتحة الرزايا، إذ خلا للروم وجه الساحل وتوافت قواهم عندهم.

ولم يبق أمام الوالي سوى المواجهة الحاسمة، فنهض لقتال العدو وجمع من الفرسان ألفين إلا مائتين، ومن الرجالة عشرين ألفا تنقصهم الخبرة القتالية. وكانت البداية موفقة، إذ لما ظهرت طلائع الروم أصاب فيهم المسلمون فرصة وقتلوا منهم مجموعة. وعندما حمي وطيس المعركة ازداد المسلمون قتالا وكادت ريح النصر تهب، وإذا بأحد قوم الوالي يأتي إليه وينصحه بالصعود إلى أعلى الجبل القريب من ساحة المعركة حتى لا يسبقهم إليه العدو، فكانت هذه النصيحة سببا في حلول الكارثة بالمسلمين، لأنهم حين شرعوا في الاعتصام بالجبل حسب الناس أنها الهزيمة فولوا الدبر وفروا إلى المدينة واتبعهم العدو، ولم ينج منهم أحد إلا أعزل أكشف, وكان عدد القتلى قليلا.

وبعد هذه الهزيمة شرع العدو في حصار مدينة ميورقة مدة طويلة قاربت الأربعة شهور (من 20 شوال 626هـ إلى غاية 14 صفر 627هـ). ووقعت أثناء هذا الحصار عدة أحداث منها ضرب المدينة بالمجانيق، وهدم المسلمين للقنطرة التي كانت لهم على باب الكحل يخرجون عليها إلى العدو ظنا منهم أنها مكيدة وغفلوا عما كان

فيها من المصلحة، ومحاولة العدو حفر الخنادق للدخول إلى المدينة بسبب مناعة السور ولكنه فشل في ذلك.

ومن تلك الأحداث أيضا طلب أهل البادية من الوالي قائدا يقاتلون العدو تحت إمرته، فبعث إليهم رجلا من قومه، وهو الذي كان قد أشار عليه بالإسناد في الجبل يوم الوقعة الكبرى، ولكنه ما أن رأى عسكر الروم حتى ولى هاربا, ثم طلبوا من الوالي قائدا آخر ولكنه أرسل إليهم نفس الشخص فجر عليهم الويل بجبنه وتخاذله، إذ قتل منهم الروم عددا كبيرا. ومن ذلك أيضا تنصر أحد وجهاء المدينة وهو ابن عباد الذي سعى في أهل البادية بالفساد وأقنعهم بمصالحة الروم، وتم له ذلك حيث أعان هؤلاء العدو بالأقوات والعلف. ولم تجد المحاولة التي قام بها أهل المدينة نفعا حين بعثوا إلى أهل البادية ينهونهم عن موالاة الروم ومساعدتهم. وكذلك تنصر ابن الوالي وفراره إلى الروم وإخباره لهم بمكان والده الذي أصابه حجر المنجنيق فكاد أن يقتله. كما نجح أثناء ذلك ابن شيري في إقناع أهل البادية بنقض الصلح المبرم مع الروم.

وفي يوم الجمعة 11 صفر 627هـ قرر النصارى خوض المعركة الفاصلة واقتحام المدينة لأنهم "أوجسوا من أهل البادية خيفة، ورأوا الشدائد بهم مطيفة، وقالوا إن احتبست المدينة، وانقطعت عنا الميرة المعينة، والبرد قد خشن جانبه، والبحر قد خشي راكبه، وهدنة الرعية قد انتقضت، وأيام إرفادها وإرفاقها قد انفضت، فنحن في قبضة الهلك، وطريق النجاة عريصة السلوك على الخيل والفلك، ولم يبق إلا أن نقاتل البلد بجملتنا، ونصدمه بسيل حملتنا، وإنما هو الظفر أو المنون، وإذا أخذنا البلد فما بعده يهون"[25].

وفي اليوم الموالي وهو يوم السبت اقتحم العدو المدينة وبدأ القتال الضاري الذي تواصل طوال ذلك اليوم، ويوم الأحد ليلا ونهارا، وانتهى يوم الاثنين 14 صفر بسقوط المدينة على يد النصارى. وكان يوما مشهودا وصفه المؤلف بهذه العبارات البليغة "ورجفت الراجفة، وجالت في البلد الخيول الجارية، بل السيول الجارفة،

وذهبوا بتلك النضارة، وأحالوا السيف على المقاتلة والنظارة، فكم ثغر كلح بعد الابتسام، ورضيع فُطم بالحسام، وغرّ ما جرى عليه القلم، سال بجاري دمه اللقم، وأعزل وجاه رامح، وجزع فاجاه بالفرح قارح، ومصونة عفّر جبينها، وحامل تبعها في افاتة الحياة جنينها، ومطرت سحب الدماء سحابة ذلك اليوم، وسميت السابحات بالسبح الذي هو بمعنى العوم, ... هذا والحدمة محرقة، والحطمة مستغرقة، والصدور تشهق، والنفوس تزهق، ... وجمع الأسارى فامتلأت بهم الأرض، وكأنما جمعهم العرض، مولهون حيارى، سكارى وماهم بسكارى، والنساء في أيديهم الأطفال، والرجال في أعناقهم الحبال، فمن كبير يحرم القوت ولا يُرحم، وصغير يستطعم أمه وأين المطعم، وفعل الحال للماضي ينسي، والبطون على الطوى تصبح وتمسي..."[26].

وبلغ عدد قتلى المسلمين في المدينة بعد سقوطها أربعة وعشرين ألفا، قتلوا على دم واحد رصا وحطما وقصفا. وأما الوالي فقد عُذب عذابا شديدا لمدة خمسين وأربعين يوما حتى مات تحت وطأة العذاب. وأثناء تعذيبه جاء النصارى بابنه البالغ من العمر ستة عشر سنة فضربوا عنقه بين يديه ثم جاءوا بابنه الثاني البالغ ثلاثة عشر فتنصر.

على أن المعركة لم تنته بسقوط المدينة، لأن أبا حفص بن شيري، الزعيم الذي أشير إليه فيما تقدم، خرج إلى الجبل واجتمع إليه ستة عشر ألف مقاتل اشتبكوا مع الروم في معارك متوالية. ولكن العدو استطاع أن يقضي في النهاية على تلك المقاومة بقتل قائدها ابن شيري في العاشر من ربيع الثاني سنة 628هـ أي بأكثر من عام من سقوط المدينة.

تلك هي رواية ابن عميرة المخزومي عن سقوط جزيرة ميورقة قد أوردناها مختصرة في هذه الورقة العلمية, وهي رواية رجل عاصر تلك الكارثة واستقى أحداثها ممن عايشوا أطوارها ورووا تفاصيلها. لذلك فليست الرواية المسيحية بأكثر غنى وثراء من نص ابن عميرة في هذا الباب فضلا عما يشوبها من تحريف وتناقض وتعصب وتحيز

مما يجعلها غير جديرة بالثقة والاعتماد. وعليه فإننا نأمل أن يرى تاريخ ميورقة النور في القريب العاجل ولن يتأتى ذلك إلا بتحقيقه ونشره, وهو ما سنعمل جاهدين على الالتزام به إن شاء الله وهو الموفق والمعين.

- الهوامش

[1]- خصص له الدكتور محمد بن شريفة دراسة وافية تحت عنوان: أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره. ونشرها المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب, 1966.

[2]- ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ج1، ص152

[3]- المصدر نفسه، ص156

[4]- ابن عذاري، البيان المغرب(قسم الموحدين)، تحقيق إبراهيم الكتاني وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985م، ص ص373-378

[5]- الغبريني، عنوان الدراية، تحقيق رابح بونار، الجزائر، 1981، ص253

[6]- ابن عبد الملك، المصدر السابق، ص:180

[7]- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003،ج1، ص65

[8]- المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968، ج1، ص315.

[9]- ابن عبد الملك، المصدر السابق، ص152وص179

[10]- ابن الخطيب، المصدر السابق،ص63

[11]- الغبريني، المصدر السابق، ص250

[12]-المقري، المصدر السابق، ص313

[13]- ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج 6, ص: 258

[14]- الحميري، الروض المعطار ، تحقيق إحسان عباس. بيروت: مكتبة لبنان، 1984، ص567.

[15]- ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، مج4، ص196 وما بعدها

[16]- ابن الكردبوس، الاكتفا في أخبار الخلفا (قطعة تاريخ الأندلس)، تحقيق مختار العبادي. مدريد: المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1971، ص122 وما بعدها.

[17]- ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحدية (الرسالة السادسة والثلاثون). باريس، 1942، ص68

[18]- ابن خلدون، المصدر السلبق، مج6، ص292

[19]- اختلط الأمر على الأستاذ عبد الله عنان في كتابه(عصر الموحدين في المغرب والأندلس، ص402، ط1964) حين اعتبر اسم هذا الوالي رواية ثانية مخالفة لما جاء في المصادر الأخرى كابن

عذارى وابن خلدون والحميري وغيرهم، التي تذكر اسم أبي يحي بن أبي الحسن بن أبي عمران، علما أنه نفس الشخص لأن ابن عميرة أورد الأسماء من غير كنى عكس غيره.

[20]– ابن عميرة المخزومي، تاريخ ميورقة (مخطوط)، الورقة2.

وفي النص إشارة إلى مكانة الوالي في الدولة الموحدية قبل أن يتولى ميورقة. فهو أبو يحي ابن أبي الحسن حفيد أبي عمران موسى الضرير أحد شيوخ تينملل وهو الذي تزوج ابنته زينب الخليفة عبد المؤمن بن علي برأي ابن تومرت وأنجبت له ابنيه أبا يعقوب يوسف وأبا حفص عمر لذلك كانت تربط هذا الوالي قرابة ببني عبد المؤمن وقد استوزره الناصر منهم وكناه أبا يحي بدل أبي عبد الله ثم عزله وولاه بلنسية ثم تبادل هو ووالي ميورقة السيد أبو عبد الله بن أبي حفص.

– المراكشي، المعجب، ط1978، ص345 وص 441

[21]– مخطوط تاريخ ميورقة، الورقة 4

[22]– المصدر نفسه، الورقة 6

[23]– المصدر نفسه، الورقة 10

[24]– المصدر نفسه، الورقة 13

[25]– المصدر نفسه، الورقة 22

[26]– المصدر نفسه، الورقة 23

عرض وتقديم مخطوط

"ذكر بلاد الأندلس وفضلها"

لمؤلف مجهول.

د. عبد القادر بوباية، جامعة وهران السانية

مقدمة:

يعتبر هذا المخطوط من المصادر الهامة المتعلقة بجغرافية الأندلس وتاريخها نظرا لاعتماد مؤلفه المجهول على مؤلفات أصلية، معظمها من المصادر الضائعة أوالمبتورة، ولذلك عقدت العزم على تحقيقه وإخراجه إلى أكبر شريحة ممكنة من الباحثين المهتمين بتاريخ العدوة الأندلسية ومن الأسباب التي دفعتني إلى ذلك:

1- أن التحقيق الذي قام به المستشرق الأسباني لويس مولين[1] تم بالاعتماد على النسختين المبتورتين، والمتمثلتين في النسخة 85ج الموجودة بالخزانة العامة، والنسخة 558 الموجودة في الخزانة الحسنية بالرباط، ولم يسعفه الحظ في الإطلاع على النسخة التامة التي تحمل الرقم 1528 والموجودة بالخزانة الحسنية.

2- نجاحي في الحصول على هذه النسخة أثناء زياراتي للمملكة المغربية عندما كنت عاكفا على إنجاز أطروحة دكتوراه الدولة حول "البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري".

3- إن ما يقوم به المستعربون الأسبان في مجال التحقيق ونشر التراث العربي الإسلامي، ورغم الكم الهائل من المخطوطات العربية التي تمكنوا من تحقيقها، والتي قدموا من خلالها خدمة كبيرة للدراسات التاريخية، يبقى ناقصا نظرا لعدم تمكنهم التام

من اللغة العربية فضلا على منهج التحقيق الذي يتبعونه، والذي يقوم في غالب الأحيان على إخراج النصوص العربية بكافة الأخطاء المتواجدة بالنسخة المعتمدة في التحقيق، بينما يفترض أن يعمل المحقق على إخراج النص كما كان كاتبه يريد إخراجه أي في أصح صورة ممكنة.

4- رغم تحقيقه فإن الكتاب المطبوع لم يتم تسويقه بشكل يسمح لجميع الباحثين الإطلاع عليه، لأنه يهدى إلى بعض المؤسسات العلمية والأفراد المتعاملين مع المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية بمدريد،[2] وللأسف الشديد فإن الكتاب المطبوع وغيره من المخطوطات العربية التي تم نشرها من قبل هذه المؤسسة العلمية لم يصل إلى المكتبات الوطنية العمومية منها والخاصة.

مؤلف الكتاب وعصره: لا يوجد في المخطوط أية إشارة تدل على اسم المؤلف، كما أن النسخ الثلاثة لا تحمل في طياتها اسم الناسخ وتاريخ النسخ، وحتى المؤلفين الذي اعتمدوا على هذا الكتاب لم يذكروا اسمه، وأكثرهم اقتباسا منه أبو العباس أحمد المقري صاحب كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، الذي ينقل عنه في مواضع كثيرة من كتابه دون أن يشير إلى اسمه فيقول: "وقد ذكر غيره"[3]، "وقال بعض من وصف إشبيلية"[4]، "والذي رأيته لبعض مؤرخي المغرب في سرقسطة"،[5] "وقال بعض المؤرخين"،[6] "وقال آخر"[7].

كما أن المخطوط خال من أية إشارة تدل على عصر مؤلفه، وكل ما هنالك توقفه عند تاريخ وفاة الأمير محمد بن محمد بن يوسف بن نصر في ذي الحجة من سنة سبعة عشر وسبعمائة (717هـ/1307م)[8]، وقد استنتج لويس مولينا الذي حقق الكتاب ونشره باللغة الأسبانية أنه ربما يكون قد كتب في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (14م) أو في النصف الأول من القرن التاسع الهجري (15م)، ويستند في ذلك على عبارة أوردها المؤلف عند حديثة عن الجزيرة الخضراء، وتتمثل في قوله: "جبرها الله

تعالى"[9]، ومن المعلوم أن هذه الأخيرة قد استولى عليها النصارى بقيادة ألفونسو الحادي عشر (712-751هـ/1312-1350م) سنة 745هـ/1344م، ولكن المسلمين استعادوها ثم هجروها نهائيا فيما بين سنتي 769-790هـ (1378-1388م)، بينما يقول عند حديثه عن مدينة غرناطة إنها دار مملكة المسلمين بالأندلس ودار الإمارة"[10].

ومن جهتنا نستبعد ذلك كدليل على تاريخ تأليف هذا الكتاب لأن المؤلف لا يذكر هذه العبارة عند حديثه عن عدد كبير من المدن، وبخاصة تلك التي استولى عليها النصارى في أوقات سابقة، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر مدينة سرقسطة (سنة 512هـ) وأشبونة (سنة 542هـ) وشنترين (سنة 555هـ) وباجة (سنة 556هـ) وماردة (سنة 628هـ)، وبالتالي فإن البحث عن دليل في ظل هذا المنطق يكون بعيدا عن الصواب إلا أن الراجح هو أن تأليف الكتاب تم في الربع الأول من القرن الثامن الهجري وفقا للتاريخ الذي أورده المؤلف عند نهاية النسخة التامة من المخطوط، وهي النسخة التي لم يطلع عليها لويس مولينا.

دافع تأليف المخطوط: يوضح المؤلف المجهول العمل الذي يعتزم القيام به من خلال الديباجة التي استهل بها كتابه إذ جاء فيها بيان لمحتوياته، فهو كما يقول سيحدثنا عن "بلاد الأندلس وفضلها وصفتها، وذكر أصقاعها ومدنها وجبالها وأنهارها وعجائبها، وما خصّت به من الفضائل والبركات والجواهر والمعادن والأشجار والنبات، وذكر من نزل بها[11] من الأمم والملوك من بعد الطوفان إلى أن فتحها الإسلام، ومن وليها من أمراء العرب بعد الفتح، ومن ملكها من خلفاء الأمويين والحموديين[12] العلويين، وذكر الدولة العامرية القائمين بدولة هشام المؤيد[13]، وذكر الثوار المتغلبين عليها بعدهم، ومن ملكها من ملوك المرابطين والموحدين وبني مرين وبني هود وبني نصر وبني أشقلولة"[14].

ومن أجل القيام بذلك قام المؤلف بتقسيم كتابه إلى قسمين بارزين، تناول في الأول وصف بلاد الأندلس، وقد اعتنى فيه عناية خاصة بالتحدث عن جغرافية

الأندلس ومدنها، واحدة بعد الأخرى مبتدئا بمدينة قرطبة، ويبدأ هذا الحديث من الورقة 47و إلى الورقة 65ظ إضافة إلى ثلاثة سطور من الورقة 66ظ.

ثم ينتقل في القسم الثاني من كتابه إلى الحديث عن تاريخ الأندلس من عهد الطوفان إلى سنة سبع عشرة وسبعمائة أي إلى وفاة محمد المخلوع، وهو الأمير محمد بن محمد بن يوسف بن نصر.

وقبل العودة إلى محتويات هذا المخطوط يجدر بنا تقديم النسخ الثلاثة المتوفرة لدينا من هذا المؤلف الهام:

النسخة الأولى: رقم 1528 /مجموع: من محتويات الخزانة الحسنية (الملكية) بالرباط، وهي نسخة تامة كتبت بقلم مغربي وسط ملون، تقع في 63 ورقة من 46 إلى 108، مقياسها 22 ×16 سم، مسطرتها 27 سطرا، بها تعقيبة وبعض الخروم، وهي عارية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ.

أولها : "ذكر بلاد الأندلس وفضلها وصفتها، وذكر أصقاعها ومدنها وجبالها وأنهارها..."

آخرها: "فملكها وبقي إلى أن مات في ذي الحجة سنة سبعة عشر وسبعمائة، والبقاء لله وحده لا ربّ غيره".

النسخة الثانية: رقم 558: من محتويات الخزانة الحسنية أيضا، وهي نسخة مبتورة الأخير تنتهي بذكر خبر خيران العامري الثائر بالمرية، كتبت بخط مغربي وسط واضح ملون ومجدول، وبعضه مشكول، تقع في 125 ورقة، مقياس 22×17 سم، مسطرة 17 س، بها تعقيبة وخروم قليلة، وهي عارية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ[15].

أولها: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. ذكر بلاد الأندلس وفضلها وصفاتها وذكر أصقاعها..."

آخرها: "وتوفي خيران في صدر جمادى الأولى سنة 419 بالمرية.

وولي بعده عمله صاحبه زهير العامري فتسمى عميد..."

النسخة الثالثة: رقم 85 ج (الجلاوي): من محتويات الخزانة العامة بالرباط، وهي نسخة مبتورة الآخر تنتهي بذكر المستعين وقتله هشام المؤيد، كتبت بخط مغربي جميل وواضح، والعناوين باللون الأحمر، تتألف من 89 ورقة (177 صفحة)، مقياس 21.5 × 15.5 سم، مسطرتها 21 سطرا، وهي عارية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ.

أولها :"بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد

... ذكر بلاد الأندلس وفضلها وصفتها وذكر أصقاعها" .

آخرها: "المستعين وقتل هشام المؤيد في هذه الدخلة وكانت ... كان منهم الحجاب والوزراء".

المصادر التي اعتمد عليها مؤلف الكتاب: اعتمد مؤلف المخطوط على جملة من المصادر التاريخية والجغرافية، إضافة إلى كتب الفقه من أجل إنجاز كتابه، ومن أبرز المصادر التي وردت الإشارة إليها في ثنايا المخطوط نذكر ما يلي:

مصادر القسم الجغرافي:

*المسالك والممالك لابن خرداذبة، وهو أبو القاسم عبد الله بن عبد الله الفارسي المتوفى حوالي عام 300هـ/912-913م[16].

*نزهة المشتاق في اختراق الآفاق لمؤلفه الشريف الإدريسي، وهو محمد بن عبد الله الحسني السبتي المتوفى عام 564هـ/1160م[17].

*أحمد بن موسى الرازي، وهو أبو بكر أحمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط الكناني الرازي المتوفى في 12 رجب عام 344هـ/1-11-955م، ويعتبر من أعظم المؤرخين في العدوة الأندلسية حيث ألف الحوليات ومعاجم الأنساب، وهو واضع

أسس التأريخ في الأندلس، ومن أبرز مؤلفاته كتاب "تاريخ ملوك الأندلس"[18]، ومعظم معلوماته مفقودة باستثناء ما حفظه لنا ابن حيان وغيره.

*محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي الحميدي المتوفى ببغداد عام 488هـ/1095م، وهو مؤلف كتاب جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس[19].

*ابن بشكوال،وهو أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود الأنصاري القرطبي المتوفى عام 578هـ/1182م،وهو صاحب كتاب الصلة الذي يعتبر الذيل الأول لكتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي[20].

*أبو عامر البسالمي، وهو محمد بن أحمد بن عامر السالمي من طرطوشة، وسكن مرسية، وأصله من مدينة سالم، وكان من أهل الأدب والعلم والتاريخ، وله في ذلك كتاب سماه بـ"درر القلائد وغرر الفوائد" في أخبار الأندلس وأمرائها وطبقات علمائها وشعرائها، وكانت وفاته سنة 559هـ أو نحوها[21].

*عبد الملك بن حبيب، وهو أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلامي الإلبيري القرطبي المتوفى عام 238هـ/852م، وقد ترك لنا كتاب التاريخ[22]، ويسميه البعض "كتاب مبتدأ خلق الدنيا"، ويسمى أيضا "إستفتاح الأندلس"، وهو من أقدم ما كتب أهل الأندلس عن تاريخ بلادهم[23].

*محمد بن وضاح، وهو أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بازع المتوفى عام 280هـ/893-894م، وهو من أبرز من جمع وروى قصص الوعظ عن الأتقياء المتعبدين، وقد وضع في ذلك كتابا سماه "كتاب العباد والعوابد"، وهو ضائع[24].

*أحمد بن أبي الفياض، وهو أبو بكر أحمد بن سعيد بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة 458هـ/1066م،[25]، وكان تلميذا لأبي عمر الطلمنكي، وقد ألف كتابا عفا عليه الزمن يسمى "العبر"، وألف في الجغرافية أيضا؛ فكتب كتابا في الطرق والأنهار وقد ضاع هذا الكتاب أيضا[26].

*ابن القوطية، وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم الشهير بابن القوطية المتوفى في قرطبة في 23 ربيع الأول عام 368هـ/8-11-977م، وهو صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس الذي يصل فيه إلى عهد عبد الرحمن الناصر[27].

*ابن حيان، وهو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين الأموي القرطبي المتوفى عام 469هـ/1076م، وصاحب المصنفات التاريخية العديدة، وأبرزها كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس الذي يتألف من عشرة أسفار ضاع معظمها، وكتاب المتين وكتاب الدولة العامرية[28].

*الرازي، وهو عيسى بن أحمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط الكناني المتوفى في شعبان سنة 379هـ/989م، وهو صاحب كتاب التاريخ المفقود، والذي يعتمد عليه ابن حيان في كتاب المقتبس[29].

* البرنسي (الهرنسي في الأصل وهو تصحيف)، وهو أبو عبد الله محمد بن حمادوه السبتي مؤلف كتاب المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس[30].

*ابن الرقيق، وهو إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني المتوفى بعد عام 417هـ/1026م، وصاحب كتاب تاريخ إفريقية والمغرب[31].

*أبو عمر بن عبد البر، وهو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري المتوفى سنة 463هـ/1070م، وقد وضع كتابا عن فقهاء قرطبة استعمله ابن الفرضي والضبي[32].

*تاريخ علماء إفريقية لأبي العرب التميمي، وهو أبو العرب محمد بن أحمد القيرواني المتوفى سنة 333هـ، وعنوان كتابه المنشور هو "طبقات علماء إفريقية وتونس"[33].

*ابن سيدة، وهو أبو الحسن علي بن إسماعيل المتوفى سنة 458هـ/1065م، وهو صاحب "كتاب العلم والمتعلم"، وهو من أكبر أصحاب المعاجم الأندلسيين، وقد درس على صاعد البغدادي وأبي عمر الطلمنكي، ووضع مؤلفات كثيرة بقي منها شرح لديواني المتنبي، ومعجمان: الأول "المخصص في اللغة"، والثاني هو "المحكم والمحيط الأعظم" في اللغة[34].

*والدولابي والصحيح الدلائي، وهو أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي المتوفى سنة 478هـ، وهو صاحب كتاب "ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان، والمسالك إلى جميع الممالك"[35].

*تاريخ المزني والصحيح ابن مزين، وهو أبو بكر محمد بن عيسى بن مزين المتوفى سنة 470هـ/1078م، وقد ألف كتابا في تاريخ الأندلس، ومن الأخبار الهامة التي تنسب إليه ذكر الرايات التي دخلت الأندلس مع الجيش الفاتح، وقبائل العرب التي كانت تنضوي تحتها، وهو صاحب الفصل الممتع الذي يحدثنا عن الملكية العقارية في الأندلس بعد الفتح[36].

*كما اعتمد المؤلف في القسم الجغرافي من كتابه على كتاب فضل الأندلس، وكتاب ابن مطروح، وكتاب عجائب الدنيا أو عجائب البلدان لابن الخراز، وكتاب الإمامة والسياسة لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة.

مصادر القسم التاريخي: اعتمد مؤلف المخطوط على عدد هام من المؤرخين ومنهم:

*ابن حيان صثاحب التاريخ ويعني به كتاب المقتبس من تاريخ بلد الأندلس وكتاب المتين وكتاب أخبار الدولة العامرية.

*ابن حزم: وهو أبو محمد علي بن حزم المتوفى سنة 454هـ/1063م، والكتاب المعني هو نقط العروس الذي يضم معلومات مقتضبة عن خلفاء المشرق والمغرب،

مرتبة فصولا بحسب جوامع مختلفة تربط بينهم، وكأنما هذا الكتاب نقط كان ابن حزم قد وضعها لينشئ حولها كتابا مطولا[37].

*ابن فرحون، وهو إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري المدني المتوفى عام 799هـ/1397م، وهو صاحب كتاب "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب" الذي يحتوي على 625 ترجمة لأعيان المالكية مشارقة ومغاربة من الإمام مالك إلى زمن المؤلف[38].

*كما اعتمد المؤلف على كتب أخرى في القسم التاريخي، وإن كانت أقل من الكتب المعتمد عليها في الفصل المخصص لجغرافية الأندلس، ومنها "صلة المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، وتاريخ الأقاصرة، وتاريخ الأندلس لابن مفلح، والتاريخ الكبير للبخاري.

محتويات المخطوط:

❖**القسم الجغرافي**: الفصل الأول منه في ذكر الأندلس وأهلها، وفيه يتحدث المؤلف عن موقع الأندلس وحدودها وصفاتها وعدد مدنها وجبالها وأنهارها، ويتضمن ما يلي:

*الخبر عما خصّت به الأندلس من الأشجار والنبات والمعادن والأحجار (الورقة 48و).

*الخبر عن فضل الأندلس، وما نقل في شأنها وفضلها من الأحاديث الواردة، ومنها قوله: "خرّج ابن بشكوال إمام المحدثين بالأندلس من الحديث النبوي أن الأندلس حيها سعيد وميتها شهيد"، (ورقة 49و) ومما جاء فيه أيضا قول المؤلف: "ومن فضائل الأندلس أنها لا يذكر على منابرها أحد من السلف إلا بخير، وهي ثغر من ثغور المسلمين لمجاورتهم الروم، واتصال بلادهم ببلادهم". (ورقة 51ظ).

*الخبر عن عجائب بلاد الأندلس (ورقة 51و).

*الخبر عن بلاد الأندلس على التفصيل مدينة بعد مدينة، وما اختصّت به كل مدينة من الفضائل والمحاسن، (بداية من الورقة 52و) ويبدأه بالكلام عن مدينة قرطبة ومحاسنها؛ فيقول "إنها قاعدة الأندلس وقطبها وقطرها الأعظم، وأم مدائنها ومسكنها ومستقر الخلفاء، ودار المملكة في النصرانية والإسلام، ومدينة العلم ومقر السنة والجماعة..."(ورقة 53ظ)، كما يذكر المؤلف موقعها ومساحتها، وعدد أرباضها ودورها ومساجدها وحماماتها وحوانيتها، وعدد الصقالبة بها وقراها وحجم جبايتها.

*الخبر عن جامع قرطبة وصفة بنائه وقدر مساحته. (بداية من الورقة 54و)

*الخبر عن أقاليم قرطبة وعددها، وهي على ما ذكره المؤرخون خمسة عشر إقليما يحتوي كل إقليم منها على حصون وقرى وبروج كثيرة، (الورقة 56ظ) ويختم كلامه بإيراد بيت شعر يمتدح فيه أحد الشعراء مدينة قرطبة وقاضيها ابن حمدين، ويقول فيه:

دع عنك زينة بغداد وبهجتها ولا تعظم بلاد الفرس والصين

فما على الأرض قطر مثل قرطبة ولا مشى فوقها مثل ابن حمدين. (الورقة 56و)

*الخبر عن بلاد الأندلس على التفصيل مدينة بعد مدينة: سائر المدن، ويبدأه بالحديث عن مدينة قبرة من بلاد غرب الأندلس وما خصت به، ثم أبدة وجيان، ومدينة طليطلة وأقاليمها، ومن مدنها يذكر مجريط التي بناها الإمام محمد بن عبد الرحمن الأوسط وطلمنكة، ومدينة الأشبونة من بلاد غرب الأندلس، وكذا مدن شنترين وشلب وبطليوس وبرتقال، ثم ينتقل إلى الحديث عن مدن الشرق؛ فيذكر مدينة باجة، ومن بلاد جوف الأندلس مدينة ماردة ومدينة شنتبرية، ثم يتحدث عن مدن الشرق، ومنها مدينة الفرج ووادي الحجارة ومدينة لبلة ومدينة إشبيلية، ثم بمدينة مورور وشذونة وحصونها وقراها، ثم ينتقل إلى الحديث عن جزيرة قادس وصفتها وذكر الصنم الذي كان فيها، والجزيرة الخضراء ومدينة رية وهي مالقة، ثم كورة تاكرنا ومدينة البيرة

واستجة وسرقسطة البيضاء ومدينة أفراغ ومدينة لاردة وطركونة وبرطانية وبلنسية وتطيلة وشاطبة وطرطوشة ودانية ومرسية وبسطة وطلياطة والمرية. (بداية من الورقة 56ر)

*ويختم كلامه في القسم الجغرافي بقوله: "وقد ذكرنا من بلاد الأندلس ما هو مشهور معروف، وما ملكه الإسلام، وتركنا ما سوى ذلك من الحصون والمدن الصغيرة خيفة التطويل، وتركنا بلاد جليقية على سعتها وبلاد الأفرنج على كثرتها لم نذكر منها شيئا لأنها لم يملكها المسلمون..."(الورقة 66ر)

❖القسم التاريخي:

*الفصل الثاني في ذكر من نزل الأندلس من الأمم والملوك من الطوفان إلى أن فتحها الإسلام (بداية من الورقة 66ر)، وينقل عن أهل التواريخ القديمة دون أن يذكر أسماءهم "أن أول من نزل جزيرة الأندلس وملكها وبنى بها المدن وغرس الأشجار بعد الطوفان بمائة سنة قوم يقال لهم الأندلس من ولد أندلس بن نقرش بن يافث بن نوح عليه السلام".(الورقة 66ر)

*ثم يعدد الشعوب التي سكنت هذه البلاد بعد انقراض الأندلس جرّاء الجفاف الذي مسّ بلادهم طيلة عشرين سنة، ومنهم الأفارقة الذين أقاموا بها مائة سنة واثنتين وخمسين سنة، ثم جاء عجم رومة الذين قتلوا الأفارقة وأبادوهم وملكوا الأندلس مائتا سنة وخمسين سنة، ثم ملوك الأشبان بعد حروب عظيمة كانت بينهم وبين آخر ملوك الرومان، ويذكر مع كل قوم حكموا الأندلس أسماء ملوكهم والمدة الزمنية التي حكم فيها كل منهم هذه البلاد. (من الورقة 66ر إلى الورقة 69ر)

*وفي الأخير يذكر المؤلف دولة القوطيين بالأندلس وعدد ملوكهم وأيامهم، ويقول إن ملكهم كان بالأندلس ثلاثمائة سنة إلى أن دخلها عليهم العرب وفتحها

المسلمون، ويورد المؤلف أسماء ملوكهم، وأبرز الأعمال التي قام بها كل واحد منهم. (من الورقة 69و إلى الورقة 70و)

*باب ذكر فتح المسلمين بلاد الأندلس، ومن ملكها من أمراء العرب إلى أيام عبد الرحمن الداخل، وفيها يتكلم عن ولاية موسى بن نصير وفتح بلاد المغرب، وتولية طارق بن زياد على طنجة، وقيام هذا الأخير بإرسال طريف إلى العدوة الأندلسية، ثم يقول: إن طارقا "أخذ في إنشاء السفن والاستعداد إلى الجواز إليها يعني الأندلس برسم غزوها"، وهو بذلك ينفي اعتماد المسلمين على سفن حاكم سبتة، ثم يتحدث المؤلف عن التحاق موسى بن نصير بالأندلس وفتحه لها. (بداية من الورقة 70و)

*الخبر عن ولاة الأندلس من العرب من حين فتحها إلى أيام عبد الرحمن الداخل. (من الورقة 71ظ)

*أمراء بني أمية، ويبدأ بالخبر عن دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس، وتملكه عليها هو وبنوه، فيقول: "كان جملة ملوك بني أمية بالأندلس ومبلغ دولهم بقصر قرطبة أربعة عشر ملكا، وعدد أيام بني أمية المذكورين مائتا سنة واثنتان وسبعون سنة وسبعة أشهر"، ثم يذكر اسم كل منهم ومدة حكمه لبلاد الأندلس. (من الورقة 72ظ)

*ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن كل واحد من حكام بني أمية؛ فيذكر اسمه بالكامل واسم أمه وكنيته ومولده وصفته ونقش خاتمه وعدد أبنائه الذكور وقضاته ووزراءه، ثم يتحدث بعدها عن أبرز الأعمال التي قام بها، وأهم الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والظواهر الطبيعية (زلازل، قحط، سيول،) التي وقعت خلال حكمه. (من الورقة 72ظ إلى الورقة 92و)

*الخبر عن الدولة العامرية، وقيام المنصور بن أبي عامر بالملك باسم الحجابة، ويبدأ ذلك بالحديث عن تولي المنصور للحجابة سنة 372هـ، ويورد معلومات غزيرة

عنه فيبدأ باسمه ونسبه واسم أمه، ثم يتحدث عن جده عبد الملك المعافري ووالده عبد الله، ويذكر المؤلف سبب اعتلاء المنصور وارتفاع شأنه، وتوصله إلى الملك.(الورقة 92و)

*ثم ينتقل إلى الحديث عن مناقب المنصور وسيره ومآثره، ويذكر أبرز الأحداث التي وقعت على عهده ومنها بناء الزاهرة (368-370هـ)، والوباء العظيم بالمغرب والأندلس سنة 373هـ، وولادة ابن حيان صاحب التاريخ سنة 377هـ، ثم يتحدث عن الزيادات التي أدخلها المنصور على جامع قرطبة (من شهر رجب سنة 381هـ إلى رجب سنة 384هـ). (بداية من الورقة 92ظ)

*الخبر عن غزوات المنصور بن أبي عامر، وهي كما يقول ستا وخمسين غزوة، ثم يذكر كل غزوة ونتائجها اعتمادا على ابن حيان القرطبي، وهو بذلك ينفرد بهذا الأمر لأن المصادر الأخرى لا تذكر إلا عددا محدودا من غزواته. (من الورقة 95و إلى الورقة 98و)

*الخبر عن دولة الحاجب عبد الملك المظفر ابن المنصور الذي غزا ثماني غزوات، ومات في غزوته إلى قشتيلية، وأخيه عبد الرحمن الناصر الذي قتله محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر يوم الجمعة لست خلون من رجب سنة 399هـ. (الورقة 98و)

*الخبر عن الطبقة الثانية من خلفاء بني أمية، وفيها يعود إلى نفس الأسلوب الذي تحدث به عن حكام بني أمية قبل المنصور بن أبي عامر، وخلال ذلك يورد المعلومات المتعلقة بالفتنة الأندلسية القائمة فيما بين سنتي 399-و422هـ(1008-1031م). (من الورقة 98ظ إلى الورقة 100ظ)

*الخبر عن الدولة الحمودية وملوك بني حمود إلى آخر حكامهم، وهم علي بن حمود والقاسم بن حمود ويحي بن علي بن حمود. (الورقة 100ظ إلى الورقة 101ظ)

*الخبر عن باقي خلفاء بني أمية، وهم عبد الرحمن بن هشام المستظهر بالله ومحمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله وهشام بن محمد المعتد بالله الذي "انقطعت بخلعه وموته مصابيح الدولة الأموية". (من الورقة 101ظ إلى الورقة 103و)

*الخبر عن الثوار المتغلبين على بلاد الأندلس بعد الأربعمائة الماضية للهجرة وهم ملوك الطوائف، وأولهم الجهاورة القائمون بقرطبة، ثم الحاجب الموفق مجاهد العامري، والفتى الكبير خيران العامري. (بداية من الورقة 103و)

*الخبر عن الدولة العبادية بالأندلس، ويتحدث فيها عن المعتضد بن عباد والمعتمد بن عباد، وعن نهايته على يد المرابطين. (من الورقة 105و)، وعن قيام ابن هود بشرق الأندلس وقتله الموحدين. (الورقة 106ظ)

*الخبر عن دولة بني الأحمر وتملكهم على بلاد الأندلس. (من الورقة 107و إلى الورقة 108و)

قيمة المخطوط:

يعتبر كتاب ذكر الأندلس من الكتب الهامة المتعلقة بجغرافية وتاريخ الأندلس نظرا لاعتماد مؤلفه على أمهات المصادر الأندلسية، وبخاصة المصادر الضائعة التي أمكنه الإطلاع عليها، وبالتالي حفظ لنا الكثير مما دونه الأندلسيون عن جغرافية بلادهم وتاريخها، ومما يؤكد أهمية هذا المؤلف اعتماد كثير ممن جاء بعده عليه، وتزداد أهميته أكثر إذا علمنا بأن المؤلف لا يكتفي بالاقتباس من بعض الكتاب فقط، ولكنه يضيف إلى ما يقتبس من الكتاب الآخرين معلومات أمكنه الحصول عليها من مصادر أخرى ضائعة، من ذلك ما ورد في قوله: "وذكر صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق مدينة طليطلة فقال: فهي مدينة عظيمة خصيبة، من أمنع معاقل الأندلس، كثيرة الأرزاق والقمح والعسل والفواكه والثمار والمياه، وسعة الربوع والمباني العجيبة وطيب الأرض وصحة الهواء..."،[39] وبالعودة إلى كتاب الإدريسي

نجده يقول: "وهي مدينة عظيمة القطر، كثيرة البشر، حصينة الذات، لها أسوار حسنة، ولها قصبة فيها حصانة ومنعة، وهي أزلية من بناء العمالقة، ...ولمدينة طليطلة بساتين محمدقة بها، وأنهار جارية مخترقة، ودواليب دائرة، وجنات يانعة وفواكه عديمة المثال..."[40]

وينقل عن الدلائي[41] العذري قوله: "مدينة لبلة تعرف بالمدينة الحمراء، وهي قديمة أزلية بها آثار للأول، وسورها عقد على تصاوير أربعة منها صنم تسميه العامة درديا، وصنم يقابله يسمى محيكا، وعلى كل صنم منهما ثان على رأسه المدينة..."[42]، وبالعودة إلى كتاب ترصيع الأخبار نجد العذري يقول: "تعرف مدينة لبلة بالحمراء، وهي أولية قديمة فيها آثار للأول، وهي على نهر يعرف بنهر لَهْشَرْ ...وسور مدينة لبلة عقد بناؤه على تصاوير خلق، وما أناف من سامق ذلك البناء موضوع على أعناقهم"[43].

كما ينقل عنه وصفه لمدينة قرطبة، ويقول فيه الدلائي: "قرطبة هي الغاية، ومركز الراية وأم القرى، ومزارة أهل الفضل والتقى، وقلب الإقليم، وينبوع منفجر العلوم، وقبة الإسلام وحضرة الإمام"[44]، وبالعودة إلى كتاب ترصيع الأخبار لا نجد أثرا لهذا الكلام لأن هناك انقطاع في الكتاب المطبوع، وهو ما يعني أن المؤلف قد احتفظ لنا في كتابه بالأجزاء المفقودة من هذا المؤلف الجغرافي.

وينطبق نفس الأمر عندما يقتبس عن الرازي حيث يقول نقلا عنه: "وقال الرازي مدينة لبلة كثيرة البركات، فائضة الخيرات، وبها صيد كثير من الطير والوحش والحوت، وعنبها لا نظير له، وعصفرها طيب"[45]، وبالعودة إلى الرازي نجده يقول حسب ترجمة ليفي بروفنسال: "لبلة جامعة لكل قصة من الفوائد، محبوة بصنوف الخيرات، لم يبعد عنها شيء من المرافق، جمعت البر والبحر والزرع والضرع والخيل والنتاج وأجناس الثمار وكثرة الزيتون والأعناب، وأرضها يجود فيها العصفر"[46].

يقتبس المؤلف فقرة طويلة عن ابن حيان، وتتعلق ببناء مدينة الزهراء[47]، والتي لا نجد لها أثرا في الجزء الخامس من كتاب المقتبس لابن حيان[48]،مما يعني أنه اقتبس هذه المعلومات من النسخة الكاملة التي أمكنه الإطلاع عليها.

الهوامش:

1- مجهول- ذكر بلاد الأنلس- تحقيق وترجمة لويس مولينا- المجلس الأعلى للأبحاث العامية- مدريد- 1983/

Una Description Anonima de Al-Andalus-editada y traducida por Luis Molina- c.s.i.c/instituto miguel Asin-Madrid-1983.

2- وهي المؤسسة العلمية التي قامت بطبع الكتاب.

3- أحمد بن النقري التلمساني- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب- تحقيق إحسان عباس- دار صادر-بيروت- 1997- ج1 ص 140.

4- نفسه- ج1 ص 158.

5- نفسه- ج1 ص 198.

6- نفسه- ج1 ص 226.

7- نفسه- ج1 ص 348.

8- الورقة 108 ر.

9- الورقة 62 ظ

10- الورقة 63 ر.

11- نزلها في النسخة 558.

12-واو زائدة.

13- بما في النسخة 558.

14- الورقة 47 ر.

15- محمد عبد الله عنان وعبد العالي لمدبر ومحمد سعيد حنشي-فهارس الخزانة الحسنية-ج1: فهرس قسم التاريخ والرحلات والإجازات- ص 197-198.

16- محمد المنوني-المصادر العربية لتاريخ المغرب-ج1-منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط-1404هـ/1983م-ص19.

17- نفسه-ص 44.

18- ك.بويكا-المصادر التاريخية العربية في الأندلس-تعريب نايف أبو كرم-منشورات دار علاء الدين-دمشق-ط1-1999م-صص 101-106.

19- المنوني-المرجع نفسه-ص 20.

20-نفسه- ص 46.

21- ابن الأبار القضاعي-التكملة لكتاب الصلة- تحقيق عبد السلام الهراس-دار الفكر-بيروت-1415هـ/1995م-ج2 صص26-27/ أحمد بن المقري التلمساني-نفح الطيب من حصن الأندلس الرطيب- تحقيق إحسان عباس-دار صادر-بيروت-1997-ج1 ص 25.

22- ك.بويكا-نفس المرجع- ص ص 46-48.

23- رضا هادي عباس- الأندلس:محاضرات في التاريخ والحضارة-منشورات إلجا-فاليتا-مالطا-1998م-ص 54.

24- بويكا- نفس المرجع-ص ص 68-69.

25- المنوني- نفس المرجع-ص 25.

26- آنخيل جنثالث بالنثيا-تاريخ الفكر الأندلسي-تعريب حسين مؤنس- مكتبة الثقافة الدينية-القاهرة-1955-ص 212.

27- بويكا-نفس المرجع- ص ص 115-116.

28- المنوني-نفس المرجع- ص 21.

29- بويكا- نفس المرجع-ص 136-137.

30- المنوني- نفس المرجع- ص 48.

31- نفسه- ص 21.

32- بالنثيا-نفس المرجع- ص 267.

33- رضا عباس- نفس المرجع- ص 77.

34- بالنثيا- نفس المرجع-ص 190.

35- رضا عباس-نفس المرجع- ص 59.

36- بالنثيا- نفس المرجع- ص 212

37- نفسه- ص 220.

38- المنوني-نفس المرجع- ص 93.

39- الورقة 57 ر.

40- أبو عبد الله الشريف الإدريسي- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق- تحقيق إسماعيل العربي-ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1983-صص275-276.

41- الدولابي في المخطوط، وهو تصحيف- الورقة 60و

42- الورقة 60 و.

43- أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي- نصوص عن الأندلس من كتاب "ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك"- تحقيق عبد العزيز الأهواني- مطبعة معهد الدراسات الإسلامية- مدريد- 1965- ص 110.

44- الورقة 52 ظ.

45- الورقة 60.

46 –E.Levy Provençal-la description de l'Espagne d'Ahmed Al razi-essai de reconstitution de l'original arabe et traduction française –Revista Al Andalus-XVIII-1953-p.92

47- الورقة 87.

48- ابن حيان-المقتبس الجزء الخامس-نشر ب.شالميتا وف.كورينطي وم. صبح-المعهد الأسباني العربي للثقافة-كلية الآداب بالرباط-مدريد-1979م.

تقديم مخطوط " الإمتاع بأحكام الإقطاع "
لعباس بن إبراهيم السملالي المراكشي
المتوفى سنة 1959

د.عبد الإله بنمليح، كلية آداب. فاس.

غني عن البيان أهمية الكشف عما تزخر به سائر الخزانات العلمية، سواء في ذلك العامة أو الخاصة (الأسر، الزوايا ..)، من نوادر المخطوطات، خدمة لتراثنا الإسلامي وهويتنا الحضارية، واستشرافا لمستقبل الأمة الإسلامية قاطبة.

وتندرج مساهمتنا في هذا الملتقى العلمي الكبير، الذي وفق " مختبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي" في اختيار موضوعه، وجعله تقليدا دوريا، وذلك ضمن محور "نماذج من عيون المخطوطات المغاربية"، بتقديم أنموذج - اعتبرناه لقيمته العلمية - أحد عيون التراث المغاربي المخطوط، وهو كتاب " الإمتاع بأحكام الإقطاع"لعباس ابن إبراهيم السملالي المراكشي، المتوفى سنة 1959.

ويتناول تقديمنا لهذا المؤلف الخطوات الثلاث التالية:

1 - التعريف بالمؤلّف عباس ابن إبراهيم.

2 - التعريف بمضامين كتاب " الإمتاع بأحكام الإقطاع ".

3 - علاقة المؤلّف بموضوع الكتاب.

1 - التعريف بالمؤلِّف

مؤلِّف كتاب "الإمتاع بأحكام الإقطاع" هو الفقيه القاضي أبو الفضل[1] عباس بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن المحمد السملالي المراكشي[2]، ولد بمراكش سنة 1294هـ / 1877م، ونشأ في أسرة علم، فقد كان من أسلافه فقهاء وعلماء وقضاة. تلقى تعليمه الأول بمدينة مراكش على يد شيوخ، منهم الفقيه محمد أزنيط والعلامة محمد بن إبراهيم السباعي والقاضي العربي ابن علال البربوشي الرحماني والفقيه عبد الرحمان ابن القرشي، وأجازوه جميعا عدا محمد أزنيط. كما حصل على إجازة علماء مغاربة ومشارقة آخرين كالشيخ ماء العينين الشنكيطي والشيخ أحمد ابن الخياط والشيخ المحمد القادري والشيخ أحمد بن الجيلالي والشيخ محمد بن جعفر الكتاني والشيخ عبد الكبير الكتاني والشيخ الصوفي أحمد الشريف السنوسي، ومن علماء مصر الشيخ محمد حسين والشيخ يوسف الدجوي وغيرهم.

وفي سن الخامسة والعشرين - سنة 1901/1319 - أذن له في التدريس، فاضطلع بهذه المهمة في مسجد رياض العروس، ليرتب في السنة الموالية 1902/1320، في المرتبة الثالثة في هيئة علماء مراكش. فاشتغل بالتدريس والتأليف في الفقه والتاريخ واللغة خاصة.[3]

ولم يعش المؤلف بمعزل عن أحداث عصره، المتسم بالاضطراب وظهور بوادر الهجمة الاستعمارية على بلاده. فقد قربه الخليفة السلطاني بمراكش الأمير عبد الحفيظ بن الحسن الأول، وعينه كاتبا بالبنيقة الأولى (ديوان الوزير الأول، بالمصطلح الحديث)، ورقي إلى المرتبة الأولى في الهيئة العلمية المراكشية.

وعندما أعلن عبد الحفيظ ثورته، وانطلق من مراكش يريد العاصمة فاس، وإزاحة أخيه السلطان عبد العزيز، رافقه في مسيرته، بتعيينه له قاضيا لمحلته. وانتهى الأمر بتولية عبد الحفيظ عرش المغرب، واستقرار المؤلف بمدينة فاس، في اتصال بالملك

وحاشيته وبالعلماء والفقهاء الذين كانت تعج بهم العاصمة السياسية والعلمية للمملكة. حينئذ لفت الأنظار إليه في المناظرات التي كانت تجمعه بعلماء فاس وفقهائها، فتقوت مكانته العلمية بذلك، وتعززت اجتماعيا بمصاهرته لآل الفاسي الفهري، الأسرة الشهيرة بمدينة فاس.

وكان عقد الحماية الفرنسية بالمغرب سنة 1330/ 1912 إيذانا بتحول كبير في حياة المؤلف، فقد عاد إلى مسقط رأسه مراكش لينصرف إلى التدريس والإفتاء والتوثيق.

ويبدو أن نجمه سطع من جديد بين علماء الحضرة المراكشية، فتم استدعاؤه إلى العاصمة الجديدة الرباط، ليعين بها قاضيا بمجلس الإستئناف الشرعي سنة 1915/1333، وبعد ثلاث سنوات 1918/1336 انتقل إلى مدينة سطات، قاضيا بمحكمتها ورئيسا لإستئناف أحكام قضاة دائرتها. ثم نُقِّل إلى قضاء مدينة الجديدة، التي ظل بها مدة ستة أشهر فقط، ليعين بعدها بمحكمة المنشية بمراكش 1930/1348.[4]

وظل بمنصبه، دون أن يصرفه ذلك عن التأليف، إلى أن أحيل على التقاعد بضعة أشهر قبل وفاته، يوم الأربعاء 20 شوال 1378/ 29 أبريل 1959. ليدفن بضريح سيدي محمد بن سليمان الجزولي بمراكش.[5]

خلف القاضي عباس ابن إبراهيم مجموعة من الكتب النفيسة في الفقه والحديث والأصول والأدب والسياسة والتاريخ، تم التعرف على عشرة منها:

- " الأجوبة الفقهية مع الأحكام المسجلة "، في أربعة أجزاء.
- " إظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال "، ألفه سنة 1907/1325.وهو شرح لمنظومته: " تنظيم درر الجَمال في مناقب أولياء مراكش سبعة رجال "، لعلها المعروفة ب" الرسالة المختصرة "[6]. طبع نصفها الأول بفاس، طبعة حجرية.
- " الإلماس فيمن اسمه العباس ".

- " الإمتاع بأحكام الإقطاع ".
- " الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ".
- " تاريخ ثورة الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ مصطفى ماء العينين".[7]
- حاشية على صحيح مسلم.[8]
- ديوان شعر.
- " القضاء على الإسلام بيد أبنائه".
- شرح منظومة السلطان مولاي عبد الحفيظ العلوي لجمع الجوامع[9].

ولم يكن عباس ابن إبراهيم يكتفي في تآليفه بما كان يتاح له بالدينة التي كان يوجد بها، سواء فاس أو مراكش، من كتب وأوراق وظهائر ورسوم، بل كان يرحل في سبيلها داخل المغرب وخارجه. فقد زار مدريد وباريس وليدن ولندن، رغم جهله باللغات الأجنبية.[10]

2 - التعريف بمضامين كتاب " الإمتاع بأحكام الإقطاع ":

يقع مخطوط " الإمتاع بأحكام الإقطاع " في مائة وخمس ورقات (105)، من الورقة 1 وجه إلى الورقة 53 وجه. وهو مكتوب بخط مغربي مقروء في مجمله، مسطرته 19، ومقياسه 16,5/ 11,5. محفوظ بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم د 13.

تأتي أولى ميزات هذا المخطوط من كونه مكتوب بخط مؤلِّفه، وهي ميزة لا يقدرها إلا من خبر خطوط النساخ وتحريفاهم وتصحيفاهم، كما أنها تجعل المقبل على تحقيقه أمام النسخة الأم.

يُحَصَّل تاريخ تأليف الكتاب، من آخر فقرة فيه، التي يقول فيها صاحبه: " وكان الفراغ منه في ليلة ثاني عيد الأضحى حادي عشر ذي الحجة الحرام متم شهور عام ثلاثين وثلاثمائة وألف" (الخميس 21 نونبر 1912).[11]

ويطرح مكان تأليف الكتاب؛ في غياب النص على ذلك من قبل صاحبه، احتمالين:

– الأول: بمدينة فاس، التي انتقل إليها رفقة الأمير عبد الحفيظ العلوي، وهي الفترة التي أشاد بها أحد الباحثين، حين وسمها بقوله: " ويمكن أن تعد هذه المدة من أخصب سني المؤلف، لأنه استطاع خلالها أن ينمي معارفه ويظهر مواهبه ويلفت إليه الأنظار".[12]

– الثاني: ابتدأ المؤلف تأليفه هذا في مراكش، وأتمه بفاس، مادام قد نص صراحة أنه أقدم على ذلك استجابة لرغبة "بعض فقهاء بلدنا مراكش"[13]، على حد تعبيره.

والراجح هو الاحتمال الثاني، باعتبار أن مرحلة فاس ربما أخذت من المؤلف وقتا كبيرا في خدمة السلطان العلوي، وفي مناظرة علماء الحضرة الفاسية، أكثر من إتاحتها الفرصة له للانصراف إلى التأليف. ثم إن فترة مراكش الأولى لم تقتصر على التدريس فقط، بل شهدت شروعه في التأليف، إذ الثابت أنه شرع في تأليف قصيدته الرائية: "تنظيم درر الجمال في مناقب أولياء مراكش سبعة رجال"، ثم أتبعها بشرح سماه: " إظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال". وهي فترة يقول عنها عبد الوهاب بنمنصور: "وفي خلال تلك السنين بدأت ميول المؤلف التاريخية تتأكد.."[14].

وسواء ألف الكتاب بمدينة مراكش أوأُتم بفاس، كما يفهم من تاريخه، أو ألف بمدينة فاس، فمن دون شك أن أصداء الصراع بين المغاربة والفرنسيين، حول ملكية الأرض، قد تناهت إلى مسامعه، ولم لا نقول إلى ديوانه "البنيقة الأولى" بلسان العصر. خاصة وأن كان يقيم بالعاصمة الثانية للمملكة: مراكش، حيث الخليفة السلطاني الأمير عبد الحفيظ، ثم بالعاصمة الأولى: فاس، حيث مقر السلطان العلوي. كيف لا

واكتساح الفرنسيين للمغرب كان قد انطلق منذ سنوات، وبالضبط منذ سـنة **1907**، من الشرق وكذا من الغرب، في سهول الشاوية ودكالة الواقعتين شمال مراكش.

ثاني ميزات الكتاب أن مؤلفه قام بتلخيصه بنفسه، في كتاب مـستقل يحمـل عنوان: " محصَّل تأليف الإمتاع بأحكام الإقطاع". ويقع في حوالي سـبع ورقـات[15]، اطلعنا عليها، وأمدتنا بمعلومات إضافية مهمة.

متح المؤلف من مضامين كتابه، عندما جعـل عنوانــه: "الإمتــاع بأحكــام الإقطاع"[16]، فقد استعمل مصطلح الإمتاع، موجها إياه نحو المتعة، بمفهومها المعروف، والإمتاع باعتباره وجها من وجوه الإقطاع: " إقطاع الإمتاع ".[17]

يفتتح المؤلف كتابه الإمتاع.. بمجموعة أبيات شعرية (ستة أبيات)، عبارة عن تقريظ لمؤلَّفه، نظمها تلميذه أحمد بن شعيب الأزموري، يقول مطلعها:

قد أمتع العباس بالإمتاع أهلَ النُهى وأجاد في الإقطاع[18]

وهو تقليد سار عليه المؤلف، ففي كتابه الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تضمين لمجموع تقاريظ في حق كتابه: " إظهار الكمال.."[19].

ويطل علينا المؤلف بمقدمة تحمل استشرافا للدار الأخروية، حيـث الخلـود والطمأنينة لعباد الله الصالحين، وإعراضا عن الحياة الدنيوية المليئة بالـسلب والنـهب والوصب.[20] فالأولى يتمتع فيها عباد الله بجنات الرضوان، اقتسموها جزاء إخلاصهم وتفانيهم، والثانية ".. يُرَوَّعون فيها"[21]، حسب تعبيره. وفي ذلـك تقـديم موفـور الإيماءات لموضوع الكتاب، وهو الإقطاع والأرض.

رتب عباس ابن إبراهيم كتابه "الإمتاع.."على خمسة فصول وخاتمة:

الفصل الأول: "في تعريف حقيقة الإقطاع، وأنها تطلق على إقطاع التمليك، وإقطـاع الإمتاع".[22] يمتد عبر الورقات 3و – 4و.

الفصل الثاني: "في ذكر الخلاف في أرض المغرب: هل فتحت عنوة؟ أو صلحا؟ أو مختلطة؟ أو غير ذلك؟ ببيان مُعْرِبٍ.."[23] الورقات 4و – 12و.

الفصل الثالث: "فيمن يجوز منه الإقطاع، فيحصل بذلك إباحة التمتع للمقطَع له والانتفاع؛ والتملك الذي شرطه له مشاع"[24]. الورقات 12و – 16ظ.

الفصل الرابع: "فيمن يجوز أن يقطع له إقطاع تمليك أو انتفاع.."[25] الورقات 16ظ – 20ظ.

الفصل الخامس: "هل يجوز تغيير الإقطاع بقسميه، سواء كان إقطاع تمليك، أو إقطاع انتفاع من الإمام الذي أقطعه أو غيره؟ أو يكون ذلك في حيز الإمتاع؟"[26]. الورقات 20ظ – 37ظ.

الخاتمة: "في ذكر أحاديث في الإقطاعات"[27]. الورقات 37 ظ – 53و.

هذا بالإضافة إلى مقدمة، لم ينص عليها المؤلف، تتضمن دواعي التأليف ومقاصده ومضامينه. الورقات 1و – 3و.

يكشف المؤلف، في المقدمة، عن مناسبة تأليف كتابه الإمتاع..، بقوله: " طلب مني بعض فقهاء بلدنا مراكش أن أكتب له ما وقفت عليه من كلام أئمتنا في الإقطاع على وجه البسط والإشباع.."[28]

سبب ثان يصرح به المؤلف وهو أن التآليف السابقة في موضوع الإقطاع، لم توفه حقه، فيبدأ بالشيخ خليل في مختصره ويتبعه بمؤلفات أخرى في الموضوع..[29]

ونفترض أن هناك أسبابا أخرى وراء ذلك، نطرحها في البداية فرضيات تحتاج إلى استدلال. مصداق ذلك:

- إشارته إلى أن كتابه يراد منه "الإمتاع والإنتفاع"،[30] حسب تعبيره.

- تنبيهه إلى ضرورة استقراء مضامين كتب النوازل والأحكام، "التي هي لباب الفقه، وإليها يُفزع عند إرادة حسم مادة التراع والخصام"[31].

فالمراد بالكتاب ضرورة نفعية، اقتضتها، إن لم نقل استوجبتها، ظروف قائمة، من اكتساح ومصادرة وتطاول..إلخ. وإذا أضفنا إلى هذا أن الفراغ من تأليفه كان في 21 نونبر 1912، أي بعد عقد الحماية الفرنسية على المغرب بحوالي ثمانية شهور (30 مارس 1912)، تبين لنا أن هناك دواع أخرى للتأليف.

3 - علاقة المؤلِّف بموضوع الكتاب :

تتيح وقفة متأنية عند عناوين فصول كتاب "الإمتاع بأحكام الإقطاع"، تسجيل ملاحظتين اثنتين:

– أولاهما أن مضامين الفصول الأربعة الأولى تكاد تكون معروفة، ووردت في تآليف مشرقية ومغربية سابقة. وقد كان المؤلف صادقا مع نفسه عندما أثبت أن دوره، في مجمل كتابه، هو "جلب النقول الصحيحة الكاشفة عن المعاضل حجابَ القناع"[32].

– ثانيهما أن الفصل الخامس، كما سيتضح، هو بيت القصيد في التأليف برمته. ولنتأمل عنوان هذا الفصل، كما أثبته المؤلف نفسُه: "هل يجوز تغيير الإقطاع بقسميه، سواء كان إقطاع تمليك، أو إقطاع انتفاع من الإمام الذي أقطعه أو غيره؟ أو يكون ذلك في حيز الإمتاع؟ مع بيان أن تبرعات الملوك مستغرَقي الذمة من تحبيسات، وصدقات، وهبات، وغيرها؛ غير نافذة؛ بل بائرة، وتُفسخ إذا لم تقع على وجه المصلحة؛ وليس لها في نظر أهل التحقيق فائدة"[33].

وإذا كان هذا العنوان العريض ينبئ بمسائل خلافية معقدة، فإننا سنحاول من خلال قراءة مضمون هذا الفصل، أن نفكك نصوصه في محاولة للوقوف على فرضية إمكانية ارتباط الكتابة لدى ابن إبراهيم المراكشي بالواقع القائم في الأرض المغربية في عصره، خاصة ونحن أمام قاض أشرف على فض أعداد هائلة من التراعات حول

الأرض، وانتقل بين مدن الرباط وسطات والجديدة ومراكش، وهي مدن تقع وسط أراضي خصبة مستهدفة من قبل السلطة الإستعمارية وكبار الملاك، إلى جانب المعمرين الفرنسيين، تلك هي سهول الشاوية ودكالة والحوز وجهتي زعير وزمور.

يقع الفصل الخامس من الكتاب فيما بين الورقات 20ظ - 37ظ، في حوالي 34 ورقة، أي بنسبة % 32,21 من مجموع الكتاب، أي حوالي الثلث؛ وفي ذلك ما يؤيد الفرضية التي طرحناها عن علاقة المؤلِّف بالكتاب، إذ نعتقد أن الفصل الخامس هو لب المؤلَّف، بل والغاية من تأليفه.

يعلق صاحب الكتاب على مضامين مؤلفه بقوله: "فدونك تأليفا مفصلا محصلا لا تكاد تجده مجموعا هكذا في ديوان ولا مسطورا كذلك ببنان"[34]. فهل نساير المؤلف في القول إن الهدف من تأليف كتابه هذا هو جمع أحكام الأرض من أمهات الكتب والمظان الفقهية والنوازلية ؟ أم أن الأمر على غير هذا الوجه ؟ ذلك ما ستكشف عنه قراءة محتوى الفصل الخامس منه.

أول ما يطالعنا به المؤلف في هذا الفصل هو اعتماده الكبير على النوازل الفقهية، أي تلك التي تتناول قضايا طرحت على المجتمع، وتطلب الأمر الإفتاء والحكم فيها. وفي ذلك دلالة على ارتباط الأحكام بخلفية تاريخية واضحة، تمتد إلى فترات بعيدة أحيانا، باعتبار اعتماده نوازل الونشريسي والبرزلي وابن رشد وغيرهم..

ينتقل المؤلف إلى القرن 19 وبداية 20، فيتحدث عن قضية تنازع حول أرض للسلطة (المخزن) يد فيها، بالنظر إلى حضور القائد عبد الحميد، ووصول أمرها إلى السلطان[35]. وبعد ذلك يثبت المؤلف نص نازلة طرحت بمدينة مراكش، في أوائل ذي القعدة من سنة 1330 / أكتوبر 1912، حول إقطاع السلطان[36].

وإذا ما ألحقنا بالقضية السابقة ما أردفه المؤلف بها، في موضوع: " بطلان تبرعات الملوك مستغرقي الذمة من تحبيسات وصدقات وهبات وغير ذلك"[37]، حسب

تعبيره، تبين لنا أن المؤلف يستحضر المشاكل التي أصبحت تعرفها أرض المغرب، وتدخل المخزن فيها بالحبس والهبة والصدقة. وفي استدلاله بجواب الفقيه عبد الله بن محمد العبدوسي (المتوفى سنة 849 / 1445)، في قضية مشابهة، دلالة على موقفه الصريح: " إن الملوك فقراء مدينون بسبب ما احتجروه على المسلمين بتصرفاتهم في أموال بيت المال بالهوى في أبنية الدور المزخرفة العالية والمراكب النفيسة والأطعمة الطيبة اللذيذة وإعطاء الأصدقاء، والمزاح بالباطل من الأموال، إلى غير ذلك من التصرفات المنهى عنها، فهذه كلها ديون عليهم وتكثر مع تطاول الأيام، فلا تصح تبرعاتهم وتحبيساتهم وهباتهم وصدقاتهم إلى غير ذلك، لا على أولادهم ولا على غيرهم من قرابتهم أو غيرهم من أصدقائهم.."[38]

وتوقُف المؤلف طويلا عند هذا الموضوع له دلالته أيضا، ففيه محاولة لقطع الطريق على كل تصرف مطلق في أراضي لا يصح للسلطان ذلك فيها، وفسخ ما عقده فيها من هبة أو تبرع أو تحبيس، احتجاجا منه بنصوص قديمة لفقهاء المذهب المالكي، تنص صراحة على بطلان ما عقده أولي الأمر في هذا الباب.

وهكذا يتوالى إثبات نوازل عديدة في موضوع تصرفات المخزن، وفتاوَى العلماء فيها بالفسخ ووجوب إعادة الأمور إلى نصابها، وفي ذلك ما ينبئ بوقوع تجاوزات في عصره، من هذا القبيل. خصوصا وأن المحتل الفرنسي بدأ يزحف، وبيديه البندقية ورجلاه تطآن الأرض، موضوع الكتاب أصلا.

وينتهي المؤلف إلى خلاصة مهمة جديرة بالتأمل، يقول فيها: " فتحصل من هذا كله أن شهاب الدين القرافي وسيدي عبد الله العبدوسي وأبا القاسم التازغدري وسيدي أحمد المزجلدي وأبا العباس اللجائي والشريف العمراني والشريف المزدغي وأبا العباس القباب وأبا مهدي بن علال وأبا محمد الوانغيلي وغيرهم، كلهم صرحوا برد تبرعات الملوك مستغرقي الذمة، وأبطلوها إذا لم تقع على وجه المصلحة"[39].

لا مجال للشك إذن أن المؤلف، وهو يثير هذا الموضوع، كان يستحضر واقعا قائما، بدأ اطلاعُه عليه في مدينة مراكش، حيث الخليفة السلطاني، وتبين له جليا، عند إقامته بالعاصمة فاس، حيث السلطان نفسه، وحيث مقر المخزن المغربي، خاصة وأنه كان يداوم حضور المناظرات التي كانت تجمعه بالعديد من فقهاء الحضرة الفاسية وعلمائها.

بل إن المؤلف يطلعنا على نصوص إدارية تنظم الأملاك المخزنية، " تتمة نورد فيها الفصل الأول من الباب الأول من الضابط المخزني لبيع الأملاك بالإيالة المغربية. ونصه: الفصل الأول فيما يتعلق بالأملاك التي لا يسوغ بيعها.."[40]

ويقدم المؤلف نماذج من الأراضي التي يمنع التصرف فيها، مثل" الأراضي المشتركة بين القبائل، وينبغي أن تبقى على حالها مع حفظ العمل الجاري بها."[41] ويسترسل المؤلف في تحديد أنواع الأراضي، التي لا سبيل إلى المساس بوضعها، إلا بالرجوع إلى المخزن وبإذنه؛ وقد حصرها النص الإداري، في ثمانية أنواع[42]، إذ " لا يسوغ للعمال والقضاة أن يصدروا أدنى تصريح بتحرير رسوم استمرار المِلك، أو شهادة بيع أو هبة أو مقاسمة أو مبادلة إلخ، ويستمر العمل على ذلك. نعم إن جميع المطالب التي تتقدم في هذا المعنى يجاب عنها بعدم قبولها، وإذا خالف ولاة المخزن المشار إليهم ما سُطر أعلاه، فالعهدة تكون عليهم. نعم إن جانب المخزن يحفظ لنفسه الحق في طلب فسخ أو مراجعة كل عقدة، وقعت في الأملاك التي لا يسوغ لأحد بيعها قبل صدور هذا الضابط بدون إذن شريف"[43].

الواضح أن تضمين المؤلف الفصلَ الخامسَ من كتابه بنودا من التنظيم العقاري ينطلق من دوافع وقائية، تهدف إلى حماية الأملاك المخزنية؛ كما يحمل في الوقت نفسه استحضارا للتجاوزات القائمة، واستشرافا للمشاكل التي تلوح في الأفق، مع حلول المستعمر. ثم إن في ما ختم به المؤلف هذا الفصل، نقلا عن التسولي في أجوبته، ما يثبت ما ذهبنا إليه: " .. إن قبائلكم هي أجنادكم وتركهم يستغلون أراضيهم

ويعطون الإدالات أفضل وأصوب، فيما يظهر، من ضرب الخراج عليهم"[44]. ويُثبت موقفُ المؤلف من الإقطاع العسكري، كما عرفته البلاد الإسلامية، عندما يستشهد بأن تراجع بني عامر في الأندلس عنه، كان وراء ضياع أراضي إسلامية هناك، إلى " أن دخلها الملثمون [يقصد أمراء الدولة المرابطية] فردوا الإقطاعات كما كانت في الزمان القديم"[45].

وبديهي أنه في ظروف مضطربة داخليا، والبلاد المغربية مهددة من الخارج، لا يمكن أن ننتظر من فقيه غير نظرة محافظة، ترى في الإبقاء على القديم ما يجنبها مشاكل الحاضر والمستقبل.

ويفرض المقام أن نتساءل عن حضور البلاد الجزائرية في كتاب الإمتاع..؟ يأتي جواب ذلك أن المؤلف رصد مجالات جغرافية عديدة تمتد من مشرق العالم العربي الإسلامي إلى مغربه، فمن الجزيرة العربية إلى العراق والشام إلى مصر والحبشة وبلاد المغرب والأندلس.

وبخصوص ما يعرف في العصر الوسيط بالمغرب الأوسط، أي بلاد الجزائر، يستعمل مؤلف الكتاب مصطلحين:

- الأول: المغرب، بمفهومه الواسع، وذلك حين يقتضي السياق التاريخي ذلك.
- الثاني: البلاد المغربية، ويقصد بها المغرب ببيئاته الثلاث: الأدنى والأوسط والأقصى.

وقمنا برصد ورود أسماء مدن وجهات جزائرية في الكتاب، فوقفنا عليها في ثلاث مناسبات:

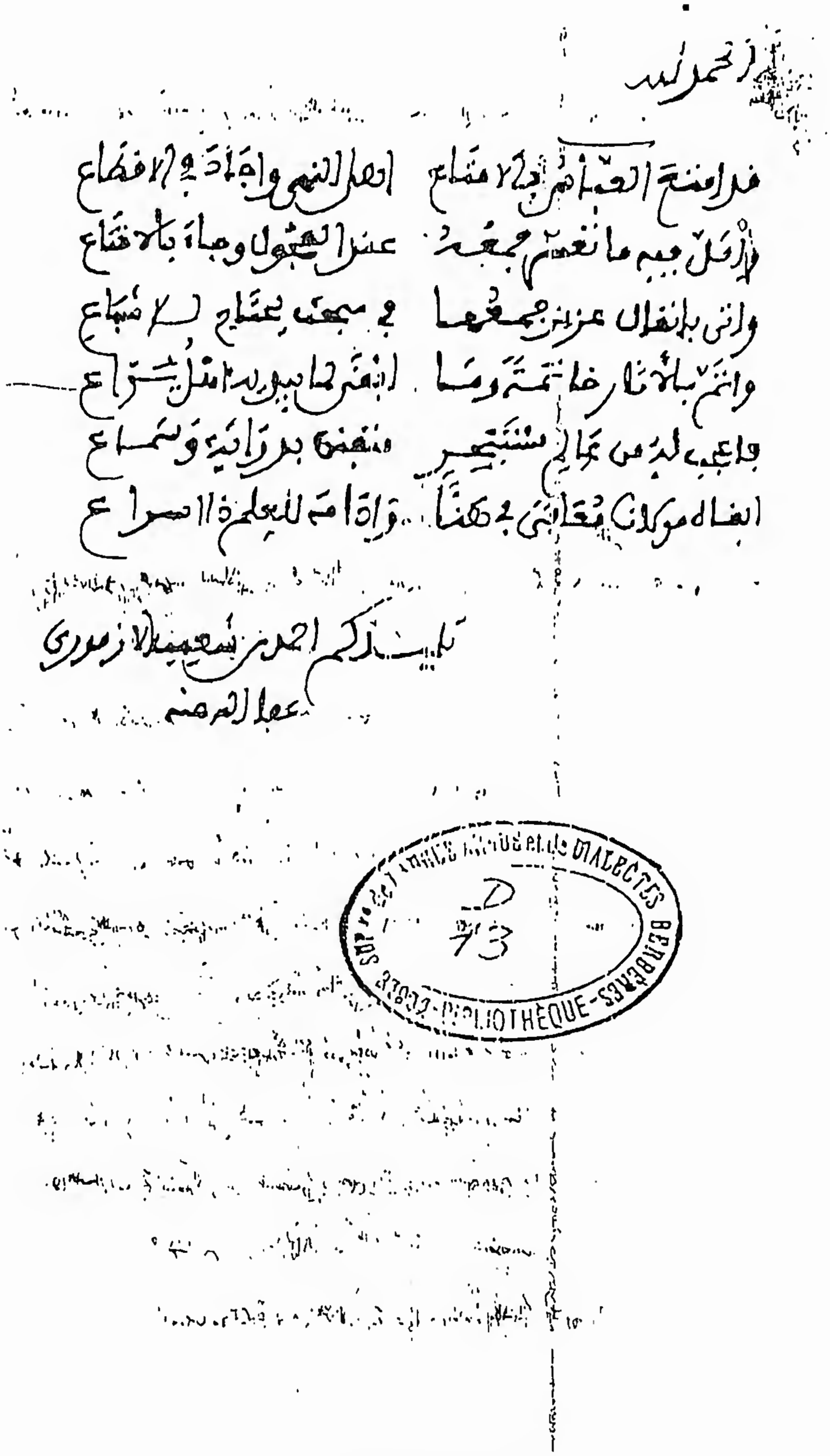
المناسبة الأولى: ورد فيها اسم المغرب الأوسط والزاب، وتُهم حكم أرض بلاد المغرب بامتدادها الكبير، فقد نقل المؤلف عن أحد مصادر العصر الوسيط، وهو "المقتبس في أخبار المغرب والأندلس"، عبارة: " حكم أرض المغرب التي يدخل فيها

مصر والقيروان وإفريقية والمغرب الأوسط والزاب والسوس الأدنى والأقصى، وبلاد الحبشة".[46]

المناسبة الثانية: ذُكر فيها اسم مدينة الجزائر، في جواب سيدي موسى بن عمر، "فقيه الجزائر"، حسب تعبيره، وذلك عمن تتوفر فيه أهلية الحصول على الإقطاعات.[47]

المناسبة الثالثة: ورد فيها اسم الأمير عبد القادر الجزائري، الذي وجه مجموعة أسئلة إلى الفقيه الشيخ التسولي، حيث يحيل المؤلف على أجوبتها.[48]

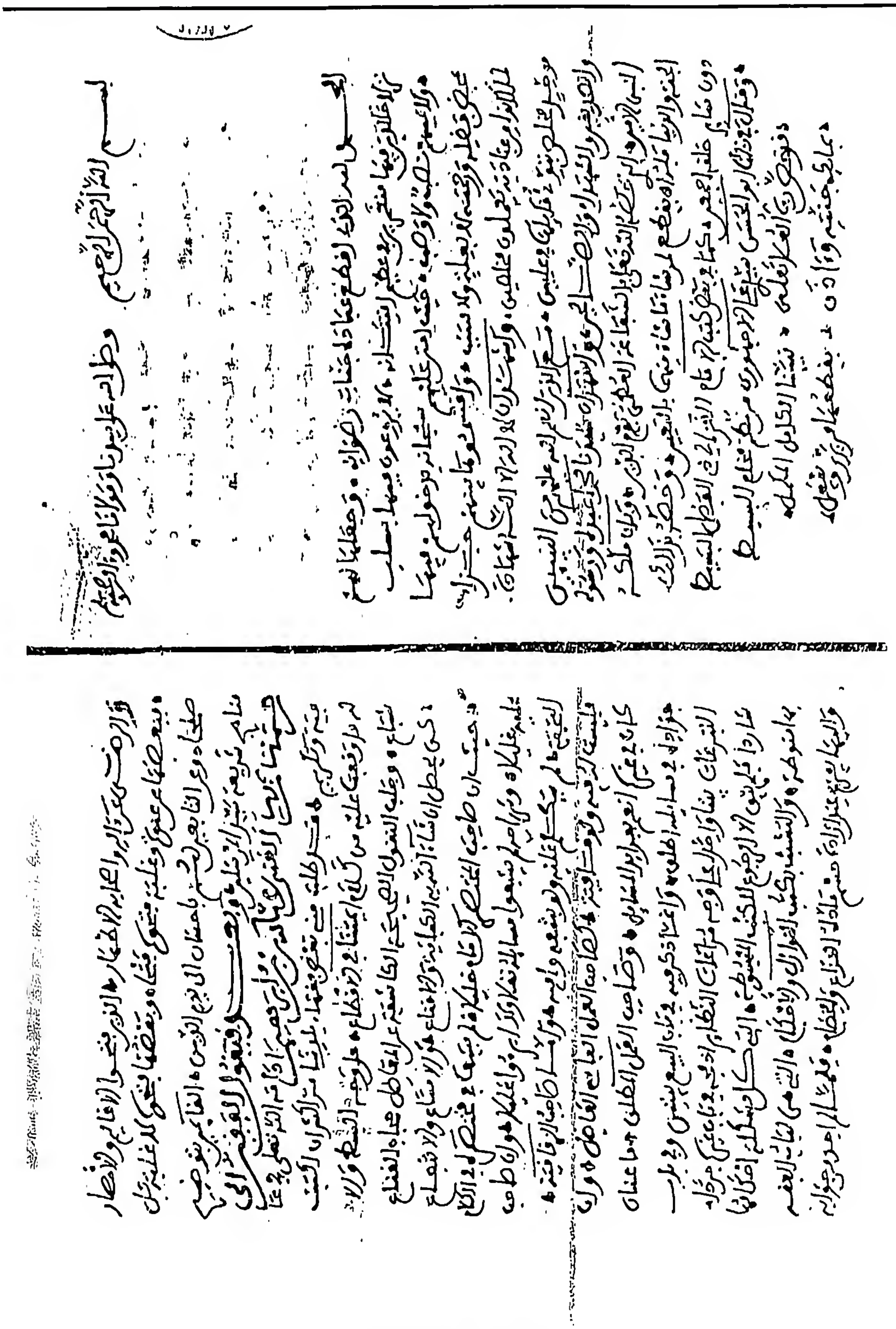
قصارى القول إن كتاب "الإمتاع بأحكام الإقطاع" مؤلف غزير الفائدة عظيم الأهمية، لعدة اعتبارات، منها انكبابه على موضوع ذو حساسية خاصة، هو الأرض، ثم احتواؤه العديد من النصوص الفقهية والنوازلية، إلى درجة جعلت مؤلفه يفاخر بذلك: "وقد بينا دلائل ذلك كله في أصله، بيانا شافيا لا يوجد مجموعا في غيره"[49]. بل إن المؤلف يعفينا من حصر وإحصاء المصادر التي اعتمدها، وتولى هذه العملية بنفسه، عندما نص على ذلك بقوله: " وقد راجعت على هذا التأليف نحو أربعة وخمسين تأليفا من تآليف الفقه المالكي"[50]، يستعرضها جميعها. وهو عمل وإن كان عظيم الفائدة، فإنه يظل ناقصا، ما دام لم يعرف طريقه إلى النشر محققا تحقيقا علميا ومفهرسا، بشكل يضبط النصوص المعتمَدة، بالرجوع إلى مظانها الأصلية، وييسر الاستفادة منه؛ وهذا ما نحن بصدده. وبالله التوفيق ومنه العون.


الحمد لله

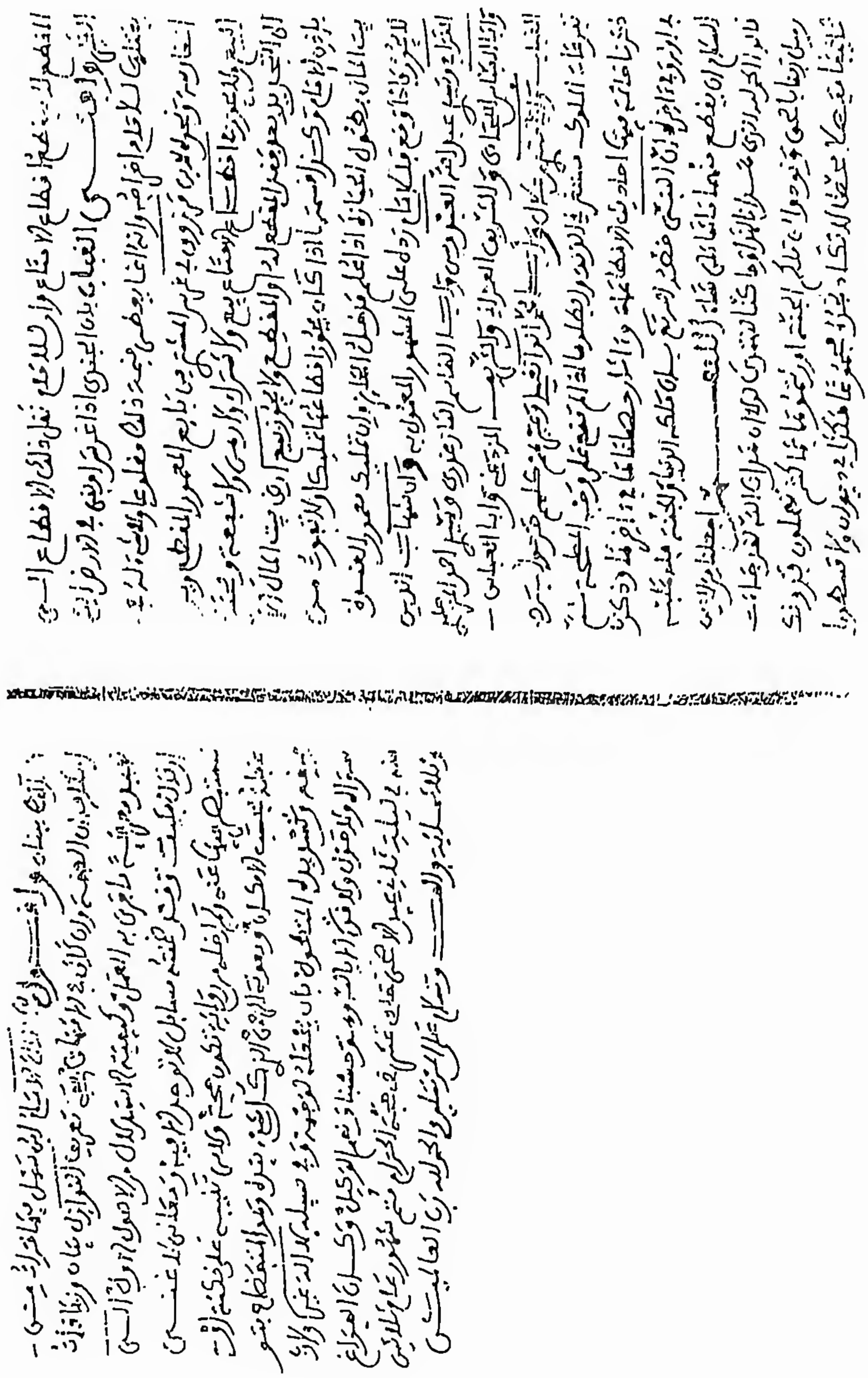
قد امتنع العباس في الامتاع اهل النهى وافاد في الاقطاع
ازال عنهم ما نعتهم جمعه عسر النقول وجاء بالاقناع
واتى بالانقال عن من جمعها في معقب يحتاج ليس مشاع
واتى بالانظار فيما تمسه ومما انتقى مما يبديه امثل يشراع
فاعجب لذي من عالم مستبحر منقح بدراية وسماع
ابقاه مولاه بمعاني جهنا واداه للعلماء اسراع

تأليف ... احمد بن سعيد الازموري
عفا الله عنه

صورة الورقة الأولى



صورة الورقة الثانية



صورة للورقة الأخيرة

هوامش البحث

1- عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ط.2، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1960، 1: 49.

2 عبد الوهاب بنمنصور، مقدمة تحقيق كتاب الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط، 1974، ج1، ص: د.

3 نفسه، ص: هـ.

4 نفسه، ص: و.

5 نفسه، ص: ز.

6 ابن سودة، م.س.، 49:1، حيث ينص على أن موضوعها: "تراجم أولياء مراكش أصحاب القباب الكبار.. وبيان المساجد وتسمية من بناها ثم .. الزوايا التي بمراكش وأصحاب طرقها".غير أن عودة ابن سودة إلى إثبات تأليف لعباس ابن إبراهيم، تحت رقم 1910، يقول فيه:" نظم در الجمال في السبعة رجال.."، 417:2، يدفع إلى القول بتأليف آخر، خصوصا وأن ابن سودة يشير إلى أن كتاب عباس ابن إبراهيم هو شرح المنظومة. 417:2، وذلك تحت رقم 1911.

7 لعله هو المقصود بتأليف في الشيخ أحمد الهيبة المتوفى سنة1919/1337، بعنوان "رسالة "، المشار إليه في دليل مؤرخ المغرب الأقصى، 212:1. وهو مخطوط الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 320.

8 عبد الوهاب بنمنصور، مرجع سابق، ج1، ص: ز.

9 نفسه، ص: ح.

10 نفسه، ص: ط.

11 عباس ابن إبراهيم السملالي المراكشي، الإمتاع بأحكام الإقطاع، ورقة 53و.

12 عبد الوهاب بنمنصور، مرجع سابق، ج1، ص: و.

13 – عباس ابن إبراهيم السملالي المراكشي، مصدر سابق، ورقة 2و.

14 – عبد الوهاب بنمنصور، مرجع سابق، ج1، ص: هـ.

15 – أوراقه من 1 وجه إلى 4 وجه، ومسطرته 14، ومقياسه 15,5/ 12. مخطوط الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 910، ضمن مجموع. ومرقم من ص 235 إلى ص 241.

16 عباس ابن إبراهيم، مصدر سابق، ورقة 2ظ.

17 نفس المصدر والورقة.

18 نفسه، ورقة 1و.

19 عباس ابن إبراهيم، الإعلام ..، 1 : 29 – 55.

20 عباس ابن إبراهيم، الإمتاع ..، ورقة 1ظ.

21 نفس المصدر والورقة.

22 نفسه، ورقة 2ظ.

23 نفس المصدر والورقة.

24 نفس المصدر والورقة.

25 نفس المصدر والورقة.

26 نفس المصدر والورقة.

27 نفس المصدر والورقة.

28 نفسه، 2و.

29 نفس المصدر والورقة.

30 نفس المصدر والورقة.

31 نفس المصدر والورقة.

32 نفسه، ورقة 20ظ.

33 نفسه، ورقة 2 ظ.

34 نفسه، الورقتان 52ظ و 53و.

35 نفسه، ورقة 25و.

36 راجع نص النازلة في الورقتان25ظ و26و.

37 نفسه، ورقة 26و.

38 نفسه، الورقتان 26و و26ظ.

39 نفسه، ورقة 34ظ.

40 نفسه، ورقة 35و.

41 نفسه، ورقة 35ظ.

42 نفسه، الورقتان 35ظ و 26و.

43 نفسه، ورقة 36و.

44 نفسه، الورقتان 37و و37ظ.

45 نفسه، ورقة 37و.

46 نفسه، ورقة 4ظ.

47 نفسه، ورقة 16ظ.

48 نفسه، ورقة 37و.

49 المحصل، م.س.، ورقة 3ظ.

50 نفس المصدر والورقة.

أبو العباس أحمد الونشريسي
ومخطوطه: المنهج الفائق في علم الوثائق.

د/أحسن زقور، جامعة وهران.

مقدمة:

مما لا شك فيه أن الحديث عن أي منتوج فكري لأي إنسان يقتضي الحديث عن حياة ذلك الشخص، مما يستلزم الإلمام بعصره وبالبيئة التي نشأ وترعرع فيها، وبالظروف التي واكبته فتأثر بها وأثر فيها، كما يقتضي الإلمام بأبرز أحداث وقته ومكونات شخصيته وثقافته والتيارات الموجهة لتفكيره، والحوافز التي حفزته لإنتاجه الفكري ذلك، وبذلك يمكن تحديد مكانته بين أهل زمانه، ومكانة منتوجه ذلك بين سائر منتوجاتهم الفكرية.

وإذا علمنا أن الشيخ أبي العباس الونشريسي قد قضى عمره بين دولتين متجاورتين هما دولة بني زيان ودولة بين مرين ثم بني وطاس، كان لزاما علينا أن نعرف ما ذكرناه آنفا في فترة حياته الأولى تحت ظل الدولة الزيانية وهي فترة الصبا والشباب وهي من (894هـ إلى 874هـ)، ثم معرفتها في فترة حياته المتبقية من عمره وهي من (874هـ إلى 914هـ) وهي فترة كهولته وشيخوخته إذ عاشها بفاس تحت ظل الدولة الوطاسية.

1- الحياة السياسية لعصر أبي العباس أحمد الونشريسي:

لقد عاش الشيخ أبو العباس الونشريسي في المغرب الإسلامي الذي كان يعج بالصراع الدائم بين الدول الثلاثة، دولة بني أبي حفص في المغرب الأدنى (تونس) ودولة بني زيان في المغرب الأوسط (الجزائر) ودولة بني مرين ثم الوطاسيين فالسعديين

في المغرب الأقصى، هذه الدول التي قامت على أنقاض دولة الموحدين بعد أفول شمسها وذهاب ريحها.

ولد الشيخ أبو العباس الونشريسي بالونشريس تحت ظل الدولة الزيانية ثم نشأ وترعرع في عاصمتها تلمسان، إذ تعلم فيها ثم علّم، ولما بلغ أشده أربعين سنة نفي إلى فاس بالمغرب الأقصى وهي يومها بأواخر دولة بني مرين وأوائل دولة الوطاسيين.

عاش الشيخ هذا الصراع بين الإخوة الأشقاء كغيره من العلماء وقلبه يتمزق عما آل إليه أهل الإسلام، أهل القوة الضاربة للأعداء المسيحيين وغيرهم، عاش هذه الفترة التي اشتغل فيها الأشقاء بضرب بعضهم بعضا وفسحوا المجال واسعا أمام الدول الكافرة في البرتغال وإسبانيا وسائر الدول المسيحية بأوربا، فسحوا المجال أمام المسيحيين بإسبانيا ليتّحدوا ويضربوا بقوة على الإخوة في الأندلس مما أدى إلى انحسار الإسلام من فردوس الغرب الإسلامي من الأندلس، من غرناطة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل طمع الأعداء حتى في الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، فغزا الأسبان سواحل المغرب الأوسط، وغزا البرتغال سواحل المغرب الأقصى.

ولنضرب شواهد على هذا الصراع الذي كان بين الأشقاء وهذا الطمع الذي حمل الأعداء على ضرب المسلمين في عقر ديارهم.

أ- تنازع الأمراء الحفصيين على قسنطينة وبجاية:

يقول الشيخ عبد الرحمان الجيلالي في كتابه تاريخ الجزائر العام: (لم يكن حسن الوفاق قائما بين حكام قسنطينة وحكام بجاية، فقد خضبت حروبهم المتوالية أرض الجزائر خلال القرن الثامن وطيلة سنوات من القرن التاسع الهجري.

كانت ولاية قسنطينة لأبي بكر بن أبي العباس أحمد الحفصي، فنازعه عليها ابن عمه الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا صاحب بونة -عنابة- وحاصرها سنة 796هـ/1394م فانتصر السلطان أبو فارس الحفصي لأخيه أبي بكر، وأوقع بابن عمه

صاحب بونة، فذهب يومئذ أبو عبد الله ملتجئا إلى فاس مستصرخا سلطانها المريني، ومكث هناك إلى أن عقد له سلطان مرين على جيش عظيم زحف به على بجاية سنة 810هـ /1407م فانتصر على صاحبها أبي يحيى فعزله وولى مكانه ولده المنصور ثم ارتحل عنها إلى تونس منتقما من سلطانها أبي فارس، فخالفه السلطان المذكور إلى بجاية فأقصى عن حكمها المنصور وجعل ولايتها لابن أخيه أحمد بن أبي بكر، ثم انبرى لمقاتلة أبي عبد الله فظفر به فقتله وبعث برأسه إلى من نصبه على باب فاس إغاظة لمؤيده وناصره سلطان بني مرين، وتقدم إلى تلمسان فاحتلها سنة 812هـ/1409م ثم كانت هدنة وصلح تبودلت فيه الهدايا والتحف بين ملوك الحفصيين وبني مرين)[1]. وهذا ما يبين لنا مدى الصراع المرير بين الأشقاء والطمع المهلك وحب الرياسة والإمارة حتى وإن كان على حساب الصالح العام وصالح الأمة الإسلامية، بل حتى وإن كان على حساب الأهل والأقارب وسائر الرعية التي حكمت بالقهر في ظل الشقاق والتناحر. وكلما انتصب ملك على عرش الدولة خلع ولاة وعمال الملك السابق وعوضهم بولاة وعمال موالين له عاملين من أجل تثبيت حكمه، داعين له ولسياسته، هذا إذا لم يثر عليه هؤلاء الولاة قبل عزلهم وحاولوا الاستقلال بولاياتهم. يقول الشيخ عبد الرحمن الجيلالي: (ولما انتصب السلطان أبو عمرو عثمان على عرش تونس مكان أخيه المنتصر المتوفي سنة 839هـ/1435م قام في وجهه صاحب بجاية وهو يومئذ علي بن عبد العزيز فامتنع عن مبايعته مدعيا أنه أحق بالملك من عمه، وقد شايعه على ذلك فقيه بجاية منصور بن علي بن عثمان، فنشأت عن ذلك حروب وخطوب انهزم فيها صاحب بجاية وامتلكها السلطان أبو عمرو عثمان في جمادى الثانية سنة 843هـ/نوفمبر 1439م فولى عليها ابن عمه عبد المؤمن بن أحمد الأول)[2].

- تملك الحفصيين للمغرب الإسلامي:

إن استيلاء الجزائر على ما كان بيد الحفصيين آنذاك من شرق الجزائر وكذا توسعها غربا حتى استولت على فاس عاصمة المرينيين، هو ما أدى إلى استيلاء

الحفصيين على سائر المغرب الإسلامي واشتداد شوكة هذه الدولة التي استعادت عزها بعد ضياع بزعامة السلطان الزياني إبي مالك عبد الواحد، وهذا ما جعل السلطان أبا فارس عزوز الحفصي يجهز جيشا ليزحف به غربا حيث استولى على تلمسان عاصمة الدولة الزيانية يوم السبت 13 جمادى الثانية سنة 827هـ/ 13 ماي 1424م ونصب عليها الأمير محمد بن الحمرة بن السلطان تاشفين وابن أخ السلطان أبي مالك عبد الواحد المهزوم، ثم واصل السلطان الحفصي أبو فارس زحفه إلى فاس عاصمة المرينيين، وقبل مداهمتها وصلته بيعة المرينيين فعاد عنها بدون حرب، ولما وصل إلى تونس جاءته بيعة صاحب الأندلس، وبذلك أصبح المغرب الإسلامي برمته تحت حكم الدولة الحفصية بزعامة السلطان أبي فارس.

- الأمير محمد بن الحمرة يتنكر للحفصيين:

عندما استولى أبو فارس عزوز على تلمسان وهزم السلطان أبا مالك عبد الواحد الزياني ولى عليها الأمير محمد بن الحمرة بن السلطان عبد الرحمن تاشفين الثاني وابن أخ السلطان المهزوم أبا مالك عبد الواحد، وكان صاحب حكمة ودهاء استطاع أن يستميل الرعية إليه حيث وطد ملكه ورفض الدعوة للسلطان الحفصي مستقلا بذلك ومنفردا بتلمسان. قال الشيخ عبد الرحمن الجيلالي: (عمل على اكتساب قلوب الرعية لحسن سلوكه وسداد سياسته فمال إليه الناس، وتوحدت كلمتهم حوله فثبت بذلك قدمه في الملك وتوطد سلطانه، ويومئذ رفض دعوة بني أبي حفص فألغى ذكرهم من الخطبة والمكاتبات وأعلن بتحرير البلاد واستقلال الدولة الجزائرية الزيانية عن غيرها من دول المغرب)[3].

إلا أن هذا الاستقلال لم يدم طويلا حيث تحرك السلطان أبو فارس عزوز الحفصي مرة ثانية من تونس نحو تلمسان حيث تم له فتحها من جديد في رجب 831هـ/ أفريل 1428م وأعاد السلطان أبا مالك عبد الواحد الذي كان قد هزمه وخلعه عن عرشه سنة 827هـ/1424م، ولم يسكت عن هذا السلطان محمد بن الحمرة

حيث استطاع أن يؤلف جيشا من العرب والبربر زحف به على تلمسان مرة ثانية حيث تم له مداهمتها والاستيلاء عليها يوم الخميس رابع ذي الحجة 833هـ/24 أوت 1440م فقتل عمه السلطان أبا مالك ودفنه بالقصر القديم.

ولكن لم تمض أكثر من ثمانية وأربعين يوما حتى فاجأه السلطان الحفصي أبو فارس عزوز بتلمسان مرة ثانية فأسره وذهب به إلى تونس ليبقى فيها أسيرا حتى وفاته سنة 840هـ/ 1436م، وولى مكانه عمه أبا العباس أحمد العاقل-أي عم محمد ابن الحمرة-.

قال الشيخ مبارك الميلي: (وخرج ابن الحمرة إلى جبال بني يزناسن ثم انتقل إلى جبال برشك وتنس واستألف عربها، وفتح تلمسان رابع ذي الحجة سنة 33هـ[4] وقتل عمه عبد الواحد، فنهض إليه عزوز، وأخرجه إلى جبال بني يزناسن ثانيا، وحاصره بها، فزين له بعض أصحابه النزول إليه ليلين له ، فرفعه معه إلى تونس، واعتقله بقصبتها حتى مات سنة 840هـ)[5].

وهكذا كان حال المغرب الإسلامي في هذه الفترة من الناحية السياسية: تناحر، تنافس، تشاكس، تباغض، تلاعب، والهدف واحد: حب الرياسة وبريق الكرسي، والانشغال عما هو أعظم من ذلك ، وكان هذا دائم الحدوث سواء بين الأشقاء في الدولة الواحدة أو بين الأشقاء في الدول الثلاث فهذه دولة بني أبي حفص تزحف على دولة بني زيان بعد ترقب وبعد انتظار لانتهاز فرصة نشوب الخلاف والشتات بين الأشقاء من بني زيان.

- حملة السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان التأديبية على السلطان الزياني محمد المتوكل:

في سابع شهر شوال سنة 866هـ/5 جويلية 1463م خرج السلطان أبو عمرو عثمان الحفصي من تونس متجها نحو تلمسان عاصمة بني زيان، وفي طريقه أخضع

معظم المدن والقبائل لسيادته حيث استولى على قلعة حليمة بجبال الأوراس كما استولى على أرض بني راشد وغيرها حيث جاءته الوفود تترا مبايعة له وناقمة على الحاكم الزياني الذي أذاقها المر باستبداده، وفي أثنائها كان على رأس تلمسان الزيانية محمد بن محمد بن أبي ثابت المتوكل الذي ثار على أبي العباس أحمد المعتصم الزياني المدعو: العاقل وعزله ثم أبعده إلى الأندلس.

قلت إن السلطان محمد المتوكل لما رأى أن لا طائل له أمام السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان أوفد له وفدا من العلماء ينوب عنه في مبايعته وعقد الصلح معه، وكان الوفد يضم: الشيخ أبا عبد الله محمد بن الشيخ أبي القاسم العقباني –شيخ أبي العباس الونشريسي الذي ندرس له عصره– والشيخ أحمد بن الحسن، ويرأسهما خال السلطان أبي الحسن على بن حمو بن أبي تاشفين حيث بايعوه وعقدوا معه الصلح نيابة عن السلطان محمد المتوكل.

وبعدها عاد السلطان أبي عمرو عثمان الحفصي إلى تونس معرجا على قسنطينة حيث عقد لحفيده أبي عبد الله محمد المنتصر بن أبي عبد الله محمد المسعود إمارتها، وتم للحفصيين السيادة على المغرب الأدنى والمغرب الأوسط.

– محنة الشيخ أبي العباس الونشريسي وطرده من تلمسان:

هكذا كانت عجلة الأحداث تسير في دولة بني زيان خلال هذه الفترة: عراك وفتن داخلية، وثورات مضنية متتالية، والتطاحن على الملك والرياسة أصبح مألوفا بين الإخوة تارة وبين الملوك المتجاورة تارة أخرى، والأسبان يخططون في خفاء لاحتلال القواعد والثغور الإسلامية والمراكز الاستراتيجية على البحرين المتوسط والأطلسي حتى لا تقع النجدة لمسلمي الأندلس الذين كانوا يعيشون محنتهم المهلكة، فاحتل الأسبان مدينة عنابة تمهيدا للسطو على المراكز الأخرى والبرتغال قد أخذوا يستعدون للاستيلاء على ميناء وهران –للمرة الثانية– دون أن يحرك الحاكم الزياني (محمد بن

محمد بن أبي ثابت المتوكل) ساكنا للدفاع عن ثغورهم التي صارت تتساقط في يد العدو تباعا، ولا التفت إلى تضرعات واستغاثات أهل الأندلس الإخوة الأشقاء.

وربما انتقد أبو العباس أحمد الونشريسي -وقد عرف بصراحته وتصلبه في الحق وغيرته على الإسلام- موقف السلطان محمد المتوكل السلبي إزاء هذه الأحداث التي جاءت من المسيحيين إلى عقر دارهم، وسياسته الفاشلة لعدم تبصره بتصريف الأمور بتعقل وحكمة، فلو عامل السلطان الحفصي (أبا عمرو عثمان) يومها بدهاء وحكمة لما لحقته تلك الهزيمة والإهانة والتجائه إلى الصلح معه مرغما بل ولاستماله إلى التعاون معه على محاربة العدو الأكبر الذي كان يعيث فسادا في الأندلس المسلمة، ويستعمل كل الوسائل البشعة لاستئصال أهلها وقلع جذور الإسلام منها، وهاهو ذا قد بلغت به الجرأة إلى اقتحامه الشواطئ الزيانية وغيرها -تحديا واستكبارا-.

وربما غضب الونشريسي لذلك واستنكر على السلطان الزياني محمد المتوكل مواقفه المزرية جهارا، فحملت هذا الأخير أنفة الملوك على طرده من تلمسان وانتهاب داره. كما يحتمل أن الونشريسي اتهم بالتحريض على مشايعة الملك الحفصي ومبايعته له، أو على الأقل كان من ضمن الذين رحبوا به وما أكثرهم أثناء قيامه بحملة تأديبية للسلطان محمد المتوكل معلقين عليه آمالهم أن يعمل على طرد العدو من شواطئهم بعد أن يئسوا وتيقنوا من عجز حاكمهم الزياني محمد المتوكل وسلبيته إزاء الأندلس، وتوفير الأمن الداخلي والذود عن حوزة الوطن.

وكيفما كان السبب فقد أصدر الأمر السلطاني من السلطان محمد المتوكل الزياني بنفي الشيخ أبي العباس الونشريسي من تلمسان ومصادرة أملاكه، فغادرها في غرة محرم سنة 874هـ-1469م[6] قاصدا فاس عاصمة الدولة المرينية المحتضرة، فوجد بها أصدقاءه من علمائها الذين رحبوا به، وأضفوا عليه من التقدير والتكريم ما أنساه ما أصابه بتلمسان، وكيف لا؟ وقد عرفوه من خلال كتاباته وفتاويه الكثيرة، ومن خلال احتكاكهم به وهو في تلمسان.

ب- استبداد الوزراء المرينيين:

كان السلطان المريني أبو عنان ذا شخصية قوية وسلطة واسعة استطاع أن ينهض بالدولة المرينية إلى القوة والمجد والعلا، وبعد موته خلفه سلاطين ضعاف لا حول لهم ولا قوة إذا استثنينا السلطانين أبا سالم إبراهيم بن علي وأبا فارس عبد العزيز المستنصر بن علي مما أدى بوزرائهم إلى الاستبداد وظلم الرعية والتسلط على السلاطين أنفسهم حتى، وتحولت السلطة إلى أيدي أوصياء ثعالب زرعوا الضعف والانقسامات في جسم الدولة، (وكانت أسرة الفودودي من أكثر كبار الموظفين خطرا على الدولة، وهكذا فقد خنق أحدهم السلطان أبا عنان وأغرق السعيد في البحر وخلع أبا تاشفين ثم نصب أبا زيان الأول الذي لم يلبث أن لقي حتفه خنقا على يد هذا الوزير (عمر)، وكان من أخطر الوزراء نفوذا: سليمان بن داود الذي عمل على قتل العالم الكبير ابن الخطيب. ومسعود بن رحو: الذي دبر اغتيال عدد من الوزراء، ثم كانت أسرة الوطاسيين التي لم يبق معها للملوك المتأخرين من المرينيين أيّ نفوذ يذكر)[7].

- نتيجة سوء الحكم في آخر دولة بني مرين:

وهكذا يتبين لنا مما سبق خطر هؤلاء الوزراء وضعف هؤلاء السلاطين، ولنتصور مدى الفوضى التي عمت أرجاء الدولة خاصة في عهد السلطان أبي عبد الله الحفيد الذي تمردت عليه قبائل الشاوية وطمع البرتغال في احتلال المغرب أكثر حيث احتل (آنفا) سنة 874هـ و(أصيلا) سنة 875هـ وتمرد عليه بنوا الأحمر بالأندلس واحتلوا كل المراكز المرينية هناك، كما خرج عليه محمد الشيخ الوطاسي من أصيلا زاحفا نحو فاس سنة 872هـ وكانت نهاية هذا السلطان الضعيف أن خلع من طرف (الحجاج الوطاسي). قال في الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى نقلا عن الحميدي في جذوة المقتبس: (لما قامت عامة فاس على السلطان عبد الحق وأقاموا هذا النقيب من أهل المدينة فاس إماما استمر بها وابنه وزيرا له إلى سنة خمس وسبعين وثمانمائة فعزل عن

الإمامة وكان الذي خلعه أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي، وكان ذلك سبب ذهاب الشريف[8] وهو السلطان أبو عبد الله محمد ابن علي الإدريسي المذكور إلى تونس لمدة يسيرة من خلعه، وبقيت حضرة فاس الجديدة في يد أخت أبي الحجاج المذكور وهي الزهراء المدعوة بزرهون مع قائده السجيري إلى أن تولى الأمر أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي والله غالب على أمره)[9].

- فترة حلول أبي العباس الونشريسي بفاس:

وفي هذه الفترة بالذات حل أبو العباس الونشريسي بفاس حاطا رحاله من تلمسان، فما كان منه إلا أن يشارك أهل الحل والعقد، إذ أسهم في تنحية هذا السلطان الضعيف، وتولية السلطان الوطاسي أبي عبد الله محمد الشيخ.

- اعتلاء بني وطاس عرش الدولة المرينية:

وبخلع أبي عبد الله الحفيد تطوى صفحة بني مرين من أبناء عبد الحق ليعتلي عرش هذه الدولة العريقة أبناء الأسرة الوطاسية وهم أبناء عمومة لأبناء عبد الحق والذين قدموا إلى المغرب مع أبناء عبد الحق وكان لهؤلاء أعمال بلاد الريف بالمغرب الأقصى، وعملوا مع أبناء عبد الحق في سائر الوظائف خاصة الوزارة حيث ساعدتهم هذه المناصب على الوصول إلى الرياسة.

قال في الاستقصا: (إن بني وطاس فرقة من بني مرين، غير أنهم ليسوا من بني عبد الحق، ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله حسبما تقدم كان لبني وطاس هؤلاء بلاد الريف، فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم وكان بنو الوزير منهم يسمون إلى الرياسة ويرومون الخروج على بني عبد الحق وقد تكرر منهم ذلك حسبما مر، ثم أذعنوا إلى الطاعة وراضوا أنفسهم على الخدمة فاستعملهم بنو عبد الحق في وجوه الولايات والأعمال واستظهروا بهم على أمور دولتهم فحسن أثرهم لديها وتعدد الوزراء منهم فيها)[10]

- السلطان محمد الشيخ الوطاسي:

لما تولى الملك المريني عبد الحق بن أبي سعيد سنة 823هـ كان الأمر في عصره في يد الوزراء الوطاسيين على رأسهم يحي بن يحي الوطاسي وكان رجلا مصلحا حاول أن يدخل تحسينات على نظام الملك، لكنه قد وشي عليه إلى السلطان عبد الحق فقتله وقتل معه كل الموظفين الوطاسيين، ولم ينج منهم إلا محمد الشيخ أخو الوزير يحي، إذ كان قد خرج إلى الصيد عندما جاءه خبر مقتل أخيه ومن معه، فعرج منها إلى الصحراء، ثم إلى أصيلا حيث عين ملكا عليها، ومنها أخذ يتربص بالسلطان أبي عبد الله الحفيد، إلى أن خلع من طرف أبي الحجاج يوسف بن منصور الوطاسي، إذ كان قد زحف إلى فاس فاسحا المجال واسعا أمام البرتغال ليستولوا على أصيلا في غيابه. وتم له دخولها بعد حرب ضروس بين الإخوة الأشقاء المتعادين فاعتلى عرشها وضمها إلى ملكه ومن ذلك الحين أصبح هو سلطان دولة بني مرين، حيث سميت بعدها دولة بني وطاس.

قال في الاستقصا: (ولما ملك الشيخ –أي محمد الشيخ– أصيلا واستفحل أمره بها تشوفت إليه الأعيان من أهل فاس، والرؤساء من أهل دولة السلطان عبد الحق –قات الوزراء الوطاسيين– وصاروا يكاتبونه ويقدمون إليه الرسائل سرا وربما دعوه إلى القدوم على أن يبذلوا له من الطاعة والنصرة ما شاء، فاستمر الحال على ذلك إلى أن قتل السلطان عبد الحق وبويع الحفيد أبو عبد الله فحينئذ أرهف محمد الشيخ حده واستفرغ المطالبة جهده إلى أن استولى على الحضرة، وصفا له ملك المغرب)[11] ونقل السلاوي عن مرآة المحاسن قال: (لما بايع أهل فاس أبا عبد الله الحفيد قام محمد الشيخ الوطاسي في أصيلا واستتبع القبائل واستفحل أمره وحاصر فاسا وقتا بعد وقت إلى أن دخلت في طاعته في رمضان سنة ست وسبعين وثمانمائة، وخرج منها الحفيد، ودخلها محمد الشيخ المذكور في أوائل شوال من السنة المذكورة –876هـ– وهو مورث الملك لبنيه من بعده)[12].

- حالة المغرب الأقصى أوان اعتلاء الوطاسيين عرش الحكم:

وهكذا يتبين لنا مما سبق اعتلاء عرش الدولة المرينية من طرف محمد الشيخ الوطاسي بعد حرب ضروس بين أبناء العم، فورث الحكم والبلاد تعج بالفتن والانقسامات والثورات على السلطان، والانفصال عنه، والرعية متذمرة من الوضع الذي آلت إليه دولتهم التي كانت مهابة الجانب لا يطمع فيها طامع، وكيف لا يتذمر الناس وقد أصبح الأسبان والبرتغال يتقاسمون دولتهم –وحكامهم لا يحركون ساكنا لانشغالهم ببعضهم البعض– وفي كل مرة ينقضون على مدينة أو ناحية بقوتهم المتصاعدة، ليجدوا أمامهم قوى منهارة، قوى خائرة، أعياها الزمان نتيجة الحروب الطويلة التي كانت رحاها دائرة بين الأشقاء، بين بني مرين أنفسهم، وبين بني مرين وبني زيان بالمغرب الأوسط، وبينهم وبين بني أبي حفص من جهة أخرى، وبين بني زيان وبني أبي حفص من جهة ثالثة، وهكذا وجدنا النصارى يهاجمون ثغور المسلمين من حين إلى آخر.

- البرتغال بالمغرب الأقصى:

لقد أخذ صرح بني مرين يتهاوى منذ أن ركن ملوك هذه الدولة إلى الدعة والراحة وتركوا الجهاد ضد الأعداء وحملوا السلاح في وجوه إخوانهم وانهمكوا في التهالك على الرياسة وأصبح هم كل سلطان نفسه وعشيرته على حساب رعيته فذهبت هيبتهم من نفوس رعيتهم وانتشرت الفوضى في كل الميادين واستبد الولاة فتشتت الوحدة المغربية واضطربت الأحوال، وملوك الأسبان والبرتغال على الضفة الأخرى يترصدون مثل هذه الفرص التي ما كانوا يحلمون بها أبدا والإسلام قوة في الأندلس وفي الشمال الإفريقي بل وصل بهم الأمر إلى أن تعاهدوا في مؤتمر (طور ديزلاسي) المنعقد سنة 899هـ على استئصال الإسلام من الأندلس والشمال

الإفريقي، وفعلا فقد اقتسما الغنيمة: الجزائر لإسبانيا، والمغرب للبرتغال. (وقبل هذا وجدنا البرتغال يترل في سبتة ويحتلها سنة 818هـ، ثم استولوا على آنفا سنة 873هـ ثم في سنة 876هـ احتلوا أصيلا في غياب السلطان محمد الشيخ، وفي سنة 910هـ احتلوا موقع أكادير، ثم آسفي سنة 918هـ ثم أزمور سنة 919هـ، ثم احتلوا المعمورية سنة 921هـ)[13] قال في الاستقصا: (فلما دخلت المائة التاسعة ومضى صدرها، وتداعت دول الغرب من بني أبي حفص بإفريقية، وبني زيان بالمغرب الأوسط وبني مرين بالمغرب الأقصى، وبني الأحمر بالأندلس وأشرفت على الهرم وحدثت الفتن بين المسلمين ودامت فيهم، واشتغلوا بأنفسهم دون الالتفات إلى جهات العدو ومطالبته في أرضه وبلاده على ما كان لهم من العادة قبل ذلك: وافق ذلك ابتداء ظهور الجلالقة وهم الأصبنيول، والبرتغال وهم البرطيقيز بجزيرة الأندلس، واستفحال أمرهم، فكثرت أسفار البرتغال في البحر المحيط ودام تغلبهم فيه، ومرنوا عليه، حتى حصلوا على عدة جزائر منه، وكشفوا بعض الرؤوس الساحلية من أراضي السودان وغيرها، ثم شرهوا لتملك سواحل المغرب الأقصى، فهجموا عليها وجالدوا أهلها دونها، حتى تمكنوا منها ونشبوا فيها فقويت شوكتهم وعظم ضررهم على الإسلام وطمحت نفوسهم للاستيلاء على ما وراء ذلك)[14].

ج- سقوط دولة بني الأحمر واستيلاء الأسبان على غرناطة وطرد المسلمين منها:

بدأت شمس الإسلام تأفل في بلاد الأندلس منذ أمد طويل، ومنذ أن اشتغل الأشقاء ببعضهم وتنازعوا على السلطة والزعامة وتركوا الجهاد وركنوا إلى الأرض، وعلى النقيض من هذا كان العدو في جد يبني قوته الضارية التي هزم بها المسلمين هناك. وفعلا فقد كانت آخر أنفاس الدولة الإسلامية هناك من بني الأحمر في عهد أبي عبد الله بن أبي الحسن الذي نازع عمه أبا عبد الله المدعو بالزغل على زعامة غرناطة، آخر معاقل الإسلام في الأندلس، قال في الاستقصا: (... ثم أن العدو عمد لأسيره أبي عبد الله بن أبي الحسن، فوعده ومناه وأظهر له من أكاذيبه وخدعه غاية هناء، وبعثه

للتشغيب على عمه طلبا لتفريق كلمة المسلمين وعكس مرادهم وتوصلا إلى ما بقي عليه من حضور المسلمين وبلادهم، وطالت الفتنة بين العم وابن الأخ، وكل عقد كان بين العدو وبينه انحل وانفسخ، وخبت العامة الذين هم أتباع كل ناعق في ذلك ووضعت وكان ذلك أعظم الأسباب المعينة للعدو على التمكين من أرض الأندلس والتهامها واستئصال كلمة الإسلام منها، ثم إن ابن الأخ –أي أبا عبد الله ابن أبي الحسن– استولى على غرناطة بعد خروج العم –أي أبي عبد الله الزغل– منها إلى الجهاد ففت ذلك في عضده وعطف إلى وادي آش فاعتصم بها، وحاصر العدو مالقة فقاتله أهلها بكل ما أمكنهم حتى إذا لم يجدوا للقتال مساغا نزلوا على الأمان فاستولى العدو عليها أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة (892هـ) ثم استولى بعد ذلك على وادي آش وأعمالها صلحا ودخل في طاعته صاحبها أبو عبد الله العم بعد أن استهوى العدو قواده بالأموال الجزيلة، ثم أن العدو خذله الله راسل أبا عبد الله بن أبي الحسن صاحب غرناطة وعرض عليه الدخول في الخطة التي دخل فيها عمه من النزول له عن البلاد على أموال جزيلة يبذلها له ويكون تحت حكمه مخيرا في أي بلاد الأندلس شاء فشاور رعيته فاتفق الناس على الامتناع والقتال فعند ذلك أرهف العدو حده وجعل غرناطة وأهلها من شأنه بعد أن استولى أثناء هذه الفتن والتضريبات على حصون كثيرة)[15] وفي يوم 22 جمادى الآخرة سنة 896هـ خرج الأسبان لمحاصرة غرناطة وإرغام حاكمها أبا عبد الله بن الحسن على الاستسلام وتسليم قصر الحمراء وبالفعل فقد تم لهم ذلك بعد حصار طويل وفي 2 ربيع الأول سنة 897هـ دخل الأسبان قصر الحمراء بعد أن استوثقوا على شروط معاهدهم مع المسلمين بخمسمائة من أعيان غرناطة رهنا خوف الغدر... وبعد مدة تبين أن الغادر هو العدو الأسباني، إذ لم يلتزم بشروط المعاهدة وأخذ يُنصّر المسلمين بالقوة والقهر.

- تنصير أهل الأندلس بعد سقوط غرناطة:

قال في الاستقصا: (وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت (قرس) وأماكن كذلك منها (بلغيق وأندرش) وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا)[16].

- إجلاء المسلمين من الأندلس بعد سقوطها:

ولما ضاقت بهم الأندلس بما رحبت وذاقوا الويلات: أجلاهم النصارى عنها نهائيا سنة **1017هـ**. قال في الاستقصا: (ولما أجلاهم العدو عن جزيرة الأندلس: خرجت ألوف منهم بفاس وألوف أخرى بتلمسان ووهران، وخرج جمهورهم بتونس فتسلط عليهم في الطرقات الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى من الأوباش، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم، وكذلك بتطاوين وسلا وبيجة الجزائر، ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى وهو المنصور السعدي منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا: كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور، وحصنوا قلعة سلا وهي رباط الفتح بنوا بها القصور والحمامات والدور)[17].

من غريب المفارقات أن الحياة العلمية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين كانت تسير على عكس الحياة السياسية في المغرب الإسلامي إذ كانت فترة عطاء وفترة ازدهار علمي رائع حيث كان تشجيع الدولة للحركات العلمية يتخذ صورا وأشكالا مختلفة على مر العصور فمن بناء المدارس والزوايا والمساجد إلى تزويدها بالخزائن العلمية، ومن مساعدة الطلبة بالمنح والجوائز إلى عقد المجالس العلمية ومشاركة الملوك فيها كطلبة أو مناقشين، إلى تبجيل العلم والعلماء ورفعهم إلى مستوى عال في هيكل الدولة، وكانوا مع ذلك لا يختارون للوظائف الدينية من خطابة

في المساجد وقضاء في المحاكم ومجالس للشورى إلا ذوي الكفاءة العلمية والورع الديني كما يتبين لنا فيما يلي:

لقد ظهرت عدة مدن في الأقطار الثلاثة تعتبر مراكز إشعاع للعلم وقبلة للمتعلمين والمعلمين إذ كانت تزخر بمدارسها ومساجدها التي كانت تشع علما ساطعا على الراعي والرعية ومن هذه المدن نذكر: فاس وسلا ومكناس وطنجة وسبتة وآسفي وأزمور وآنفا وأغمات والقصر الكبير ووجدة بالمغرب الأقصى.

وتلمسان وطبنة وقسنطينة وتاهرت وبجاية ومازونة ووهران وتنس والجزائر وعنابة وبسكرة ووراكلة بالمغرب الأوسط.

والقيروان وتونس بالمغرب الأدنى.

ومن أشهر المدارس التي ظهرت في هذه المدن نذكر ما يلي:

- مدرسة الحلفائيين بفاس وهي أول ما بني من مدارس في عهد بني مرين، وتدعى مدرسة الصفارين، وكانت مجهزة بخزانة علمية كبيرة.
- مدرسة البيضاء أو فاس الجديدة بناها أبو سعيد سنة 720هـ وكان لها طلبة يرتلون القرآن وأحباسا كثيرة، وفي عهد العلويين حولت إلى معهد للتخصص العلمي[18].
- مدرسة الصهريج بفاس، بناها أبو الحسن سنة 721هـ قرب مسجد الأندلس وكان يومئذ خليفة لوالده[19].
- مدرسة العطارين: بنيت سنة 723هـ في عهد أبي سعيد عثمان على يد الشيخ عبد الله بن القاسم المزوار بفاس.
- مدرسة الطالعة بسلا: بناها أبو الحسن سنة 733هـ.

- المدرسة البوعنانية بفاس: بناها أبو عنان ابن أبي الحسن سنة 757 هـ وكان لها أوقافا كثيرة.

- المدرسة المصباحية بفاس: نسبة إلى أول أستاذ فيها هو أبو الضياء مصباح بن عبد الله اليلصوتي.

- مدارس تلمسان الخمس وهي:

مدرسة منشار الجلد بتلمسان وكذا مدرسة ولدي الإمام والتي أسسها أبو حمو موسى الأول ثم المدرسة التاشفينية التي أسسها أبو تاشفين بن أبي حمو موسى حيث كانت أفخم مدرسة بالمغرب الأوسط بقيت مركز إشعاع إلى أن حولها المستعمر الفرنسي بعد هدمها إلى دار البلدية.

ومدرسة العباد وكانت خارج تلمسان حيث قام بإنشائها السلطان أبو الحسن المريني سنة 748هـ.

والمدرسة اليعقوبية التي أسسها أبو حمو موسى الثاني سنة 765هـ. وكان الملوك الزيانيون يولون هذه المدارس عناية خاصة ويجرون الأرزاق والمنح للأساتذة والموظفين بها وكانت هذه المدارس تعتبر معاهد عليا للتعليم ولتكوين الإطارات في شتى المجالات[20].

وإلى جانب هذه المدارس التي كانت تعتبر مدارس نظامية يأوي إليها الطلبة في نظام داخلي على الأغلب وتجري للأساتذة مرتبات، أقول إلى جانبها كانت المساجد تعتبر جامعات تعطي العلوم المختلفة بنظامها الحلقي، ونذكر من أبرز هذه المساجد:

جامع فاس الجديد الذي بني سنة 677هـ في عهد أبي يوسف وبنيت له مقصورة سنة 889هـ ويتصل الجامع بالقصر الملكي بواسطة باب يؤدي إلى بيت الصلاة، وجامع القرويين بفاس وجامع العباد قرب تلمسان الذي بناه أبو الحسن

المريني سنة 740هـ وكان يحتوي على مدرسة ملحقة به وله مبرتان من الأوقاف إحداهما لتعليم الأميين والأخرى لإرواء الظامئين[21]

(وجامع القصبة بتلمسان والجامع الكبير وهما من بناء أبي الحسن المريني، ومسجد أولاد الإمام ثم جامع وجدة الذي بناه أبو يعقوب، ومسجد سيدي إبراهيم الذي شيده حمو موسى الثاني الزياني، ومسجد المنصورة بتلمسان ثم مسجد سيدي أبي مدين الذي شيده السلطان أبو الحسن المريني، ومسجد سيدي الحلوي الذي أسسه أبو عنان المريني، وإلى جانب كل مدرسة من المدارس التي ذكرناها آنفا كان يوجد مسجد للصلاة والحلق)[22] يقول الدكتور إبراهيم حركات: (وفي هذا العهد بدأ تخصيص أوقاف لكراسي معينة للتدريس، ومنها:

1-كرسي سليمان الونشريسي 705هـ/ 1306م لتدريس كتابي التفريع والمدونة بجامع الأندلس.

2-كرسي أبي الحسن الصغير الزويلي علي بن محمد 719هـ/1319م لتدريس كتاب "تهذيب البراذعي" للمدونة بجامع الأزدغ بحومة فندق اليهودي.

3-كرسي أبي الحسن علي الصرصري لتدريس كتاب التهذيب أيضا، أنشأه أبو عنان، وكل الجوامع المذكورة بفاس)[23].

4-كرسي أبي العباس الونشريسي 876هـ لتدريس المدونة بالمدرسة المصباحية بفاس، وظل يدرس فيه إلى أن توفاه الله، فخلفه ابنه عبد الواحد الونشريسي، ثم خلفه الشيخ الحميدي.[24]

- طريقة التدريس:

أما طريقة التدريس في المدارس السالفة الذكر وما يدرس فيها من علوم فيقول عنها عبد الحميد حاجيات:

(أما طريقة التدريس الجاري بها العمل آنذاك فكانت طريقة الإلقاء والشرح، يقوم أحد الطلبة النجباء بقراءة نص من كتاب مشهور في المادة المدروسة، ويتولى الأستاذ شرحه فقرة بعد فقرة حسبما يتيسر له من غزارة حفظه وسعة اطلاعه، والطلبة يقيدون في كراريسهم ما يسترعي انتباههم من شرح الأستاذ وأجوبته على أسئلة الطلبة).

- برامج التدريس:

ثم يواصل حجيات فيقول: (ومن جهة أخرى، فقد بقيت العلوم الدينية تحتل الصدارة، غير أن معظم العلماء كانوا يعنون إلى جانب ذلك بكثير من العلوم الأخرى، من لغة ونحو وبلاغة ومنطق وتاريخ وطب وحساب وتنجيم وغير ذلك، ويؤلفون فيها كتبا عديدة، فاتسعت دائرة العلوم بالنسبة للطلبة وكثرت مشاركة العلماء في علوم مختلفة، بالإضافة إلى تخصصهم في أحد المجالات العلمية أو أكثر وكذلك انتشرت ظاهرة تأليف المختصرات ونظم القصائد في شتى العلوم لتسهيل تلقينها وذلك أن كثرة العلوم ووفرة التأليف وضخامة حجم العديد منها قد جعلت الطلبة لا يقدرون على استيعابها جميعا وأصبح الكثير منهم يكتفون بحفظ المختصرات ويستعينون بما ألف من الشروح عليها لإيضاح ما جاء غامضا فيها)[25].

- الكتب الأكثر انتشارا:

أما الكتب التي انتشرت أكثر في المغرب الإسلامي في هذه الفترة فهي مدونة وموطأ الإمام مالك ومختصر الشيخ خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر ابن الحاجب وغيرها، ولهذا جاءت معظم الكتب الفقهية التي ألفت في هذه الفترة هي شروح لها وحواشي على شروحها، وشروحا لمختصرات أخرى، حيث كانت ظاهرة تأليف المختصرات واضحة قبل وأثناء هذا العهد.

- موقف أهل العلم من تدريس المختصرات وعقمها:

ولقد اختلف الناس في قبول أو رفض هذه الظاهرة –ظاهرة المختصرات وما عليها–، فمنهم عبد الرحمن بن خلدون، ومحمد المقري اللذين كانا يلومان طلبة عصرهما لاقتصارهم على المختصرات وإرهاق أنفسهم في حفظها والانكباب على شروحها حيث كانت طريقة تلقي هذه العلوم وغيرها هكذا عقيمة مرهقة للطالب كما يقول ابن خلدون في مقدمته: (وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا –يعني القرن الثامن الهجري– يجهلون طرق التعليم وإفادته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم، يطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه، ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مباديها وقبل أن يستعد لفهمها)[26].

ثم يذكر ابن خلدون تأثير العالمين: القاضي أبي القاسم ابن زيتون وأبي علي ناصر الدين المشذالي الزواوي في كل من تونس وتلمسان وبجاية واتصال سند التعليم في هذه المراكز وانقطاعه في المغرب الأقصى إذ يقول: (وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوًا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم)[27].

- وصف حالة الطالب التعسة بالمغرب:

ثم يصف حالة الطلبة في هذا القطر فيقول: (إنك تجد طالب العلم منهم –المغاربة– بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى نفسه منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علّم وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم أنه

المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك، ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكن طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة، وهي بتونس خمس سنين، وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة، لا مما سوى ذلك، وإن أيسر الطرق للحصول على هذه الملكة العلمية والحذق في العلوم هو فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأها ويحصل مرامها)[28].

ويذكر ابن مريم في بستانه نعي محمد المشذالي المعاصر لابن خلدون على طلبة العلم آنذاك قوله: (ثم كل أهل هذه المائة –أي المائة الثامنة للهجرة– عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات وشق الشروح والأصول الكبار فاقتصروا على حفظ ما قل لفظه ونزر حفظه، وأفنوا أعمارهم في حل لغوزه وفهم رموزه، ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح، فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح، بل هو حل مقفل، وفهم أمر مجمل، ومطالعة تقييدات زعموا أنها تستنهض النفوس، فبينما نحن نستكبر العدول عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ أتيحت لنا تقييدات للجهلة بل مسودات المسوخ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون)[29].

- **المقارنة بين طريقة تعليم أهل إفريقية وأهل المغرب:**

ويذكر ابن خلدون في مقدمته كيف كان التلميذ يبدأ مشواره مع العلم والتعلم، ثم يأسف للنتائج التي كان يصل إليها فيقول: (وأما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها، إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه.

وعنايتهم بالخط تبع ذلك، وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين جازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس واستقروا بتونس وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك)[30].

ثم يذكر حال التلميذ بالمغرب فيقول: (فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة)[31].

- نتائج الاقتصار على حفظ القرآن الكريم فقط:

ويواصل ابن خلدون في مقدمته ليبين لنا نتائج ذلك التعليم فيقول: (فأما أهل إفريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة، لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها، وليس لهم ملكة في غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام، وربما كان أهل إفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب: لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه، فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل، إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة)[32].

ثم يأسف على أهل المغرب أنهم لم يأخذوا بطريقة الأندلس في تعليمهم للأطفال إذ كانوا يقدمون لهم آنذاك دروس اللغة والأدب والحساب أولا، ثم حفظ القرآن وسائر علوم الدين ثانيا، إذ يقول: (ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله

التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق... ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره، يقرأ ما لا يفهم، وينصب في أمر غيره أهم عليه)[33].

ورغم هذه الطريقة العقيمة في التعليم كما رأينا عبد الرحمن بن خلدون ثائرا عليها إلا أنه قد برع في هذا العهد –وإن كانوا قلة– علماء أجلاء وفقهاء فطاحل اشتهروا بالزعامة في العلم والرياسة في الدين وما خلى قطر من الأقطار منهم أبدا، حتى لقد وجدنا من العلماء من بلغ صيته حتى المشرق الإسلامي قضاة وأساتذة، منهم: برهان الدين إبراهيم الصنهاجي وبدر الدين الغماري، وأحمد بن يعقوب الغماري وكلهم قضوا بالشام.

وكل هذه العوامل التي ذكرناها سابقا سواء أكانت سياسية أم فكرية لا محالة أنها قد أثرت في شيخنا أبي العباس الونشريسي التأثير البالغ، كما لا محالة أنه قد أثر فيها التأثير البالغ حيث ترك بصمات كثيرة ظاهرة شاهدة له على هذا التأثير، فمن هو هذا الفقيه البارع يا ترى؟.

3- ترجمة الشيخ أبي العباس أحمد الونشريسي:

قال عن نفسه في أول صفحة من كتابه المنهج الفائق: "يقول أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي، الونشريسي الأصل، التلمساني المنشأ الفاسي الاستيطان والقرار وفّقه الله..."

وهكذا يكون الشيخ قد أراحنا من تعب البحث عن اسمه ونسبه وبلده الذي ولد فيه والبلدة التي نشأ فيها، ثم بلده الذي استوطن فيه واستمر قراره فيه.

فاسمه إذن: أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي.

ومكان ولادته: بلدة ونشريس، وهي من الدولة الزيانية يومها.

ومكان نشأته وترعرعه: تلمسان عاصمة الدولة الزيانية.

ومكان استيطانه وقراره: مدينة فاس بالمغرب الأقصى عاصمة الدولة المرينية ثم الدولة الوطاسية بعد، فالدولة السعدية.

تاريخ ميلاده ثم وفاته: جاء في نيل الابتهاج ما نصّه: إن أبا العباس الونشريسي قد توفي سنة 914هـ وعمره نحو الثمانين سنة[34].

ومن هذه العبارة نستنتج أن تاريخ ميلاده كان في حدود سنة 834هـ-1430م وتاريخ وفاته قد صرح به أحمد بابا التنبكتي وهو 914هـ-1508م وقد دفن بباب الفتوح قرب ضريح محمد بن عباد.

بعض شيوخه:

وسأكتفي بذكر بعض شيوخه الفطاحلة الذين أسهموا في تكوين شخصيته الفذة، منهم:

1-أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني الحافظ الحجة في الحديث (ت 854هـ)[35].

2-أبو عبد الله محمد بن علي بن قاسم الأنصاري الشهير بالمريّ (ت 864هـ)[36].

3-أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي الشهير بابن العباد (ت 871هـ)[37].

4-أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق الكفيف (ت 901)[38].

إلى غيرهم من فطاحل علماء تلمسان.

بعض تلاميذه:

1-أبو زكريا يحي السوسي، إذ لازم الشيخ حتى صار من كبار الفقهاء في عصره[39]

2-أبو محمد الحسن بن عثمان الجزولي، إذ لازم الشيخ إلى سنة 908هـ[40]

3–أبو محمد عبد السميع المصمودي الفقيه حيث لازم الشيخ إلى أن تفقه عليه[41].

4–أبو محمد عبد الواحد الونشريسي ابن أبي العباس (ت 955هـ)[42].

بعض شهادات العلماء فيه:

1–قال عنه أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتاني: "الفقيه الكبير، الحافظ المحصل الشهير العلامة المشارك القدوة، المنصف الأسوة، حامل لواء المذهب المالكي على رأس المائة التاسعة وإمام المغرب والمشرق"[43].

2–وقال عنه ابن عسكر في دوحته: "الشيخ الإمام المصنف الأبرع الفقيه الأكمل الأرفع، البحر الزاخر، والكوكب الباهر، حجة المغاربة على أهل الأقاليم، وفخرهم الذي لا يجحده جاهل ولا عالم"[44].

- آثاره العلمية:

لقد عاش أبو العباس طيلة حياته ممتهنا للعلم، تعلما وتعليما ثم تأليفا فترك تلاميذ أفذاذًا خاصة في الفقه المالكي كانوا بعده نجوم المذهب منهم ما ذكرت سابقا وغيرهم كثير، كما ترك مؤلفات كثيرة قد بلغت أربعا وعشرين مؤلفا أو تزيد كانت الأقباس النورانية في درب العلوم، أذكر بعضا منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

1–المنهج الفائق والمنهل الرائق والمغني اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

2–إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك في القواعد الفقهية المالكية.

3–المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب.

4–تعليق على مختصرات ابن الحاجب الفقهي.

5–الدرر القلائد وغرر الدرر والفوائد في الفقه المالكي.

6-مختصر أحكام البرزلي.

7-الفهرسة.

8-عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق.

- عرض الكتاب المحقق:

1- اسم الكتاب ونسبته إلى مؤلفه:

لم يترك لنا الشيخ مجالا للبحث عن اسم كتابه وعن نسبته إليه إذ كفانا عناء النصب في البحث عنهما فقال في الصفحة الأولى من كتابه هذا بعد البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

"يقول أضعف عبيد الله الأوفى إلى كريم مولاه وشاكرا على الذي أولاه:

العبد المستغفر الفقير الحقير: أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي الأصل، التلمساني المنشأ، الفاسي الاستيطان والقرار وفقّه الله: الحمد الله الذي بحمده يفتتح ويختتم، ويستكمل كل أمر ذي بال ويستتم... وترجمتها بالمنهج الفائق والمنهل الرائق والمغني اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق".

-فعلمنا إذن من هذا النص اسم الكتاب ونسبته إليه.

ولهذا فقد أجمعت كل المصادر على هذا الاسم وهذه النسبة لمؤلفه، سواء كانت مصادر التراجم التي ظهرت فيها ترجمة أبي العباس وذكرته معه كما في نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي أو الكتب التي اعتمد أصحابها على هذا الكتاب أو نسخ المخطوطة المختلفة، وفي الحقيقة فإنه ما من مؤلف في علم التوثيق جاء بعد أبي العباس إلا وقد اعتمد كثيرا أو كليا على هذا الكتاب، وكلهم مجموعون على اسم الكتاب وعلى نسبته إلى أبي العباس ما عدا الأستاذ حاجي خليفة في كتابه كشف

الظنون على أسامي الكتب والفنون إذ نسبه خطأً إلى أبي العباس أحمد بن يحي بن أبي محلة التلمساني (ت 776هـ).

2- الغرض من تأليف الكتاب:

وأبو العباس أحمد الونشريسي قد كفانا عناء البحث عن الغرض من تأليف هذا الكتاب في ثناياه كذلك إذ بادر في الصفحة الأولى منه كعادته في معظم تآليفه إلى التصريح بهدفه وغرضه من مؤلفه هذا إذ قال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم:

"أما بعد: فإني لما رأيت علم الوثائق من أجلّ ما سُطر في قرطاس، وأنفس ما وُزن في قسطاس، وأشرف ما به الأموال والأعراض والدماء والفروج تستباح وتحمى، وأكبر زكاة للأعمال وأقرب رُحمى، وأقطع شيء تنبذ به دعوى الفجور وترمى، وتطمس مسالكها الذميمة وتُعمى، وكان جمهور المنتصبين في هذا الوقت لعقدها قد قصر عن إحكام أحكامها باعُهم، وفرّ في مجالها الرحب انطباعهم واطرحوا أسرارها، وهتكوا أستارها، ونبذوا دقائقها المهمة إلى وراء، واقتصروا على المسطرة، حتى أكل شرار الخلق بالباطل أموال الورى، رأيت على إضاعتي وقلة بضاعتي: أن أضع مقالة جامعة في طريقتها المثلى، نافعة إن شاء الله تحفظ وتتلى، يفهمها الذكي والبليد، ويشفع بها الشيخ والوليد، تغني من سار بسيرها، عن مطالعة الكثير من غيرها، وترجمتُها بالمنهج الفائق، والمنهل الرائق، والمغني اللائق، بآداب الموثق وأحكام الوثائق. والله أسأل متقربا إليه، ومتواضعا بين يديه، أن يجعله من نافع الأعمال لديه، خالصا لجلاله محسوبا للعبد الفقير المذنب في حسنات أفعاله، كما أسأله جل اسمه أن يستر قبائح جهلي، وأن يغفر لي ولكافة أهلي، فهو الذي لا إله غيره يؤمل، وعليه في كل الأمور التّكلان والمعوّل".

3- محتوى الكتاب:

وقد قسم الكتاب إلى ستة عشر بابا كما صرح به هو كذلك إذ قال مبادرا إلى ذكر ذلك في الصفحة الثانية:

"وحصرته في ستة عشر بابا:

الباب الأول: في حكم الكتب والإشهاد وسبب مشروعيتهما.

الباب الثاني: في شرف علم الوثائق وصفة الموثق وما يحتاج إليه من الآداب.

الباب الثالث: في حكم الإجارة على كتابتها، وفي وقت تعيينها وتعيين دافعها، وفي حكم الشركة المستعملة بين أربابها.

الباب الرابع: فيما ينبغي للموثق أن يحترز منه ويتفطن إليه.

الباب الخامس: في الأسماء والأعداد والحروف التي تنقلب وتتغير بإصلاح يسير.

الباب السادس: فيما عليه مدار الوثائق وذكر المعرفة والتعريف.

الباب السابع: في التأريخ وبأي شيء يؤرخ أبالليالي أو بالأيام؟، واشتقاق الشهور وأسمائها وما يضاف إليه منها شهر وما لا يضاف إليه منها، وفي المذكر منها والمؤنث، وفي الألفاظ التي تستعمل في أول الشهر ووسطه وآخره وفيما لابدّ للشاهد أن يؤرخ فيه شهادته من العقود، وما ليس عليه أن يؤرخه، وفي العقود التي تؤرخ باليوم والساعة.

الباب الثامن: في حكم الاعتذار عما يقع في الوثيقة من محو أو بشر، أو لحن، أو تخريج، أو إفهام، وكيفية الاعتذار ومحله.

الباب التاسع: في كيفية وضع الشهادات.

الباب العاشر: في الألفاظ التي يتوصل الموثقون بها إلى إجازة مالا يجوز شرعا.

الباب الحادي عشر: في العقود التي يجب فيها ذكر الصحة والتي لا يجب ذكرها فيها.

الباب الثاني عشر: في العقود التي لابد فيها من ذكر معرفة القدر.

الباب الثالث عشر: في العقود التي ينبغي للموثق أن يضمن فيها معاينة القبض والسداد، وذكر الأشياء التي لا تقبل فيها الشهادة مُجملة، وذكر ما ينبغي أن يكون من الوثائق على نسختين أو نُسخ.

الباب الرابع عشر: في العقود التي ليس على الشاهد قراءتها ولا حفظ ما فيها.

الباب الخامس عشر: في ذكر ما تخالف فيه وثائق الاسترعاء سائر الوثائق، وفي استفهام الشهود واستفصالهم، وذكر العقود التي ينبغي للعدل أن لا يضع شهادته فيها.

الباب السادس عشر: وهو لباب اللّباب وخاتمة ما تقدم من الأبواب في التنبيه على ما لا يسع إهماله من عيون الفتاوى من أحكام كل باب"، فهكذا قد بين الشيخ محتوى كتابه بتوضيح محتوى كل باب فيه، ثم شرع يفصل كل باب تفصيلا، ولأنقل بعض ما في هذه الأبواب على سبيل التمثيل حتى يتضح ما نقول:

1-"الباب الأول في حكم الكَتْب والإشهاد وسبب مشروعيتهما: اعلم وفقنا الله لطاعته أن العلماء رضي الله عنهم وأرضاهم اختلفوا في حكم الكَتب والإشهاد، فذهب جمهورهم إلى أن الأمر به أمر ندب وإرشاد إلى حفظ الأموال وإزالة الريب..." حيث بين فيه بدقة حكم الكَتب والإشهاد واختلاف الأئمة فيه ذاكرا حجة كل إمام في الغالب.

2-"الباب الثاني في شرف علم الوثائق وصفة الموثق وما يحتاج إليه من الآداب: اعلم أن عَلم الوثائق من أجلّ العلوم قدرا، وأعلاها إخافة وخطرا، إذ بها تثبت الحقوق، ويتميز الحرّ من الرقيق..." حيث أخذ يعدد شرف هذا العلم ومكانته في حياة الناس ثم مكانة الموثق وما ينبغي له أن يتصف به من الآداب والأخلاق العالية، واصفا لنا

حالة الموثقين في بلاده في ذلك الزمان ومتأسفا شديد الأسف على ما وصل إليه هؤلاء الموثقون من انحطاط في الأخلاق وإهمال في التوثيق.

3-"الباب الثالث في حكم الإجارة على كتابتها وفي وقت تعيينها وتعيين دافعها، وفي حكم الشركة المستعملة بين أربابها: اعلم أن العلماء رضي الله عنهم وأرضاهم اختلفوا في جواز أخذ الأجرة على كَتب الوثائق، فأجاز ذلك قوم ومنعه آخرون ..." وأخذ يذكر حجة كل فريق بإسهاب وردهم على غيرهم، كما تطرق إلى مسألة أخذ الأجرة من بيت المال أو من العاقد واختلاف الأئمة فيها، وجواز الشركة في الإشهاد وفي الكَتب بإسهاب طويل.

4-"الباب الرابع في ما ينبغي للموثق أن يحترز منه ويتفطن إليه: اعلم جعلني الله وإياك ممن أخذ حظه من الحزم وكفله، وجنبنا طرق الإهمال والغفلة، أن مما ينبغي للموثق أن يتحرز منه أن يتمم عليه زيادة حرف في الكتاب، فقد تغير الألف المعنى إذا زيدت، مثاله أن يقر رجل بألف درهم لرجل فيكتب في الوثيقة أقر أن له عنده ألف درهم وإن لم يذكر نصف المبلغ أمكن زيادة الياء فتصير ألفي درهم..." حيث أخذ يعدد الإمكانيات التي إن أضاف فيها أو أنقص الموثق حرفا أو بعض الحروف تغير المعنى فزاد في المبلغ أو أنقص، أو تغير طرف العقد، أو تغير جنس العاقد حتى...

4- مصادر الكتاب:

ولقد كفانا كذلك الشيخ أبو العباس عناء البحث والتتبع لمصادر الكتاب إن ما من قارئ له إلا ويجد الشيخ يذكر صراحة مصادره ذاكرا لها بأسمائها أو بأسماء مؤلفيها، أو ناقلا لنصوص لا يجد عناء في الكشف عن مصادرها ومن هذه المصادر أذكر بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر:

المترع النبيل في شرح مختصر خليل لابن مرزوق التلمساني، الإحكام في تمييز الفتاوى من الأحكام لشهاب الدين القرافي، وثائق ابن العطار، وابن الهندي وابن مزين

ومختصر ابن عرفة، وتبصرة الحكام لابن فرحون، ووثائق ابن زمنين، وابن مغيث، وابن فتوح والجزيري، كتاب الشهادات للمتيطي، والغرناطي، وغرائب الأحكام لأبي المطرف السبعي، وأحكام ابن سهل.

5- مكانة الكتاب بين سائر كتب علم التوثيق:

لقد جاء الشيخ أبو العباس بكل ما يحتاج إليه الموثق في كل صغيرة وكبيرة من المستوى الأخلاقي وأبسط أحكام التوثيق إلى أدقها مما جعل كل من جاء بعده من الموثقين أو من المؤلفين في علم التوثيق لا يستطيع أن يستغني عنه أبدا، فصار المصدر الرئيسي لكل موثق ولكل باحث ومؤلف إلى يومنا هذا، وجدير بكل مهتم بهذين الميدانين الاطلاع على هذا الكتاب والوقوف على ما فيه من أخلاق للموثق وأحكام ومسائل في التوثيق خاصة في هذه الأيام التي تعقدت الحياة على الناس وصاروا محتاجين إلى ضبط وتوثيق عقودهم المختلفة حتى تصان الأموال والأعراض والأنساب و...

- النسخ المخطوطة:

النسخة الأولى: نسخة الخزانة العلمية بالمسجد الأعظم بتازة تحت رقم: 352.

وأولها: "الحمد لله الذي بحمده يفتتح ويختتم، ويستكمل كل أمر ذي بال ويستتم، وصلى على سيدنا ومولانا محمد الذي أكمل به الرسالة والنبوة وختم، وعلى آله شموس الهدى وأقمار الدجى وبدور الظلم، وأصحابه أعلام السنة وسلم، صلاة وسلاما..."

وآخرها: "... في الدعاء بالتوفيق والهداية إلى سواء الطريق والختم بالحسنى وحلول المقام الأسنى، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا طيبا مباركا فيه إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين"[45].

النسخة الثانية: نسخة الخزانة العلمية بالمسجد الأعظم بتازة تحت رقم: 1/355

أولها: "الحمد لله الذي بحمده يفتتح كل أمر ويختتم، ويستكمل كل أمر ذي بال ويستتم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أكمل به النبوة والرسالة وختم، وعلى آله شموس الهدى وأقمار الدجى وبدور الظلم، وأصحابه أعلام السنة..."

وآخرها: "... وأدركه الشيخ أبو الحسن ابن حرزهم وهو مقيد وتبرك به ودعا له ونال من بركاته وحمد الله والده على ذلك وقال لي: يا ولدي حدث عندك بدعاء أبي الفضل. انتهى ما وجد من هذا التأليف المبارك"[46].

النسخة الثالثة: نسخة الخزانة العلمية بالمسجد الأعظم بتازة تحت رقم 2/355.

وأولها: "بدعاء أبي الفضل سرى وعهده فيك، وحكى بعضهم أن أبا الفضل هذا أحيا ليلة بسجدة يدعو فيها على القاضي أبي محمد دبوس قاضي مدينة فاس ومؤلف كتاب الإعلام بالمحاضر والأحكام..."

وآخرها: "... قال ابن رشد في فائق الجامع: بقفصة وغيرها من البلاد أن الرجل إذا أراد نكاح المبتوتة كلفها أن تشهد على نفسها أنها سمعت مطلقها يقول لها. انتهى"[47].

النسخة الرابعة: المطبوعة طبعة حجرية سنة 1298هـ بفاس بالمملكة المغربية.

أولها: "الحمد لله الذي بحمده يفتتح ويختتم، ويستكمل كل أمر ذي بال ويستتم..."

وآخرها: "... أن الرجل إذا أراد نكاح المبتوتة كلفها أن تشهد على نفسها أنها سمعت مطلقها يقول لها" .

الهوامش:

1 تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن الجيلالي ج3، ص 60، 61.

2 المرجع نفسه، ج3، ص61.

3 المرجع نفسه ، ج3، ص196.

4 أي سنة 833هـ

5 تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مبارك الميلي، ط/ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.

6 نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص87 لأحمد بابا التنبكتي، ط/مصر 1351هـ

الخيرية للمنجور ص 50 ط/ دار الغرب 1336هـ-1976م، بيروت.

7 المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات ج4، ص66، دار الرشاد، المغرب الأقصى.

8 الشريف: هو أبو عبد الله محمد بن علي الإدريسي الجوطي العمراني من بيت بني عمران وهم فرقة من أدارسة فاس، وهو من الشرفاء.

9 الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، السلاوي أحمد، ج2 ص159، المطبعة البهية بالقاهرة 1312هـ.

10 نفس المصدر السابق ص159 ج2.

11 نفس المصدر السابق ج2 ص 159.

12 نفس المصدر السابق ج2 ص160.

13 المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات ج4 ص172، 173 بتصرف.ط/ المغرب دار الرشاد الحديثة.

14 الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، السلاوي الناصري ج2، ص 156،155 المطبعة البهية بالقاهرة 1312هـ/ 1894م.

15 الاستقصا، اللسلاوي، ج2 ص 152 المطبعة البهية بالقاهرةن مصر 1312هـ/ 1894م.

16 نفس المصدر السابق ج2، ص 152، 154.

17 نفس المصدر السابق ج2، ص152، 154.

18 المغرب عبر التاريخ إبراهيم حركات ج4 ص134 دار الرشاد الحديثة المغرب الأقصى.

19 المصدر نفسه ج4 ص 134.

20 الجزائر عبر التاريخ ج3 ص438 تأليف مجموعة من الدكاترة والنص للدكتور عبد الحي حاجيات المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 بتصرف.

21 المغرب عبر التاريخ، حركات ج4 ص187 بتصرف.

22 نفس المصدر السابق ج4 ص137 بتصرف.

23 المصدر نفسه، ج4 ص137.

24 الفهرس للمنجور، ص 53.

25 الجزائر عبر التاريخ ج4 ص 438، 439، مجموعة من الدكاترة منهم حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.

26 مقدمة ابن خلدون ج2 ص 118.

27 المصدر نفسه ج2 ص118.

28 نفس المصدر السابق ص 119.

29 البستان لابن مريم ص217، الجزائر 1326هـ/ 1908م.

30 مقدمة ابن خلدون ج2 ص 277 ط/ باريس.

31 نفس المصدر السابق ج2، ص 276.

32 نفس المصدر السابق ج2 ص 278.

33 المصدر نفسه ج2 ص 278.

34 نيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي، ص 88، ط/ مصر 1351هـ.

35 الوفيات للونشريسي ص 144 دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط 1396هـ -1976م

36 نيل الابتهاج ص 118.

37 شجرة النور الزكية ص 264 لمخلوف ط/ دار الكتاب العربي -بيروت.

38 نيل الابتهاج ص 330.

39 فهرسة المنجور ص 51.

40 نفس المصدر السابق ص 5.

41 فهرست المنجور ص 51.

42 شجرة النور الزكية لمخلوف محمد ص 282.

43 سلوة الأنفاس 153/2 ط/ فاس، المغرب الأقصى.

44 دوحة الناشر لابن عسكر ص 38.

45 فهرس مخطوطات الخزانة العلمية للمسجد الأعظم بتازة لعبد الرحيم العلمي: 468/1 -469، ط/ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.

46 نفس المرجع السابق 470/1.

47 نفس المرجع السابق 471/1.

عرض لمخطوط أبي مروان عبد الملك بن زهر

"الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد"

د. غازي جاسم الشمري، جامعة وهران

السادة الأساتذة المشاركين في الملتقى المغاربي الثاني للمخطوطات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسعدني أن أرفع أسمى آيات الشكر والتقدير والامتنان للسادة الأساتذة مديرة وأعضاء مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي في جامعة منتوري على دعوتها الكريمة للمشاركة بأعمال الملتقى، وأني في الوقت الذي أتمنى لأعمال ملتقاكم العلمي النجاح والتوفيق وأن تتكلل جهودكم بكل خير لما فيه خدمة التراث العربي الإسلامي، يؤسفني أن أعلمكم بعدم قدرتي مشاركتكم لتزامن ذلك مع تاريخ مناقشة أطروحة دكتوراه تشرف عليها جمعية الأستاذ الدكتور محمد صغير غانم.

سادتي المحترمين:

كما تعلمون أن جهود علماء المسلمين لم تتوقف عند الاقتباس عن غيرهم من الأمم في العلوم المختلفة، بل تجاوزوا ذلك إلى الشرح والنقد والتعليق في مرحلة معينة، ثم في مرحلة لاحقة إلى وضع كتابات خاصة بهم اعتمادا على التجربة والاختبار الدقيق. ورغم أن الكثير من هذه العلوم قد تخطت المدى الذي أوصلها إليه علماء المسلمين، إلا أن فضلهم في ما أدوه في سبيل تقدمها ورقيها لم ينسه التاريخ.

إن موضوع مداخلتي هو التعريفُ بمخطوط "الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد" لأبي مروان عبد الملك بن زهر، الطبيب الأندلسي الشهير المتوفى سنة 557هـ/1162م المؤلف ينحدر من أسرة أندلسية عريقة اشتهرت بتوارث العلم والأدب والوزارة لمدة تجاوزت الثلاثة قرون، من القرن الخامس إلى السابع الهجري، حيث كان جده وسميه أبو مروان عبد الملك بن محمد ابن زهر حاذقا في علم الطب، وكان ممن أسهموا في إقامة العلاقات العلمية بين المشرق والمغرب، حيث تعلم الطب في مصر والعراق والقيروان وتولى رياسته هناك، ثم حمل علمه إلى الأندلس، واستوطن دانيه، حيث نال شهرة واسعة ولم يغادر مدينته حتى توفي بها سنة 470هـ.

ويجمع مؤرخو العلوم وغيرهم على أن أشهر رجال هذه الأسرة هو أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر- صاحب المخطوط- ولد في اشبيلية، رغم أن المصادر التي بين أيدينا لا تشير إلى تاريخ ذلك، ونشأ بها، حيث أخذ صناعة الطب عن والده وأستاذه أبي العلاء، وأخذ بقية العلوم عن شيوخ عصره آنذاك ومنهم أبو محمد عبد الرحمن ابن عتّاب العالم الفقيه، المتضلع بالحديث والقراءات والتفسير واللغة.

وممن كتب بالإجازة لأبي مروان وأبيه أبي العلاء، الأديب البصري أبو محمد القاسم بن علي الحريري صاحب كتاب "المقامات" و"درة الغواص" وغيرها من كتب الأدب واللغة المشهورة.

وقد تفرغ أبو مروان لمزاولة مهنة الطب والتأليف فيها، وطبقت شهرته الآفاق لقدرته الفائقة على تشخيص المرض ووصف العلاج، مستندا في ذلك إلى الملاحظة والتجربة والاختبار. وخلف ورائه تراثا علميا كبيرا، بعضه منشور ومعظمه مخطوط والقليل منه مفقود. وهي:

1- كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد

2- كتاب الأغذية والأدوية.

3- كتاب التيسير في المداواة والتدبير

4- كتاب الزينة

5- التذكرة في أمر الدواء المسهل

6- رسالة في علتي البرص والبهق

7- مقالة في علل الكلي

8- تفضيل العسل على السكر

9- كتاب القانون

ويحتل أبو مروان بن زهر مكانة رفيعة في تاريخ الطب الإسلامي تجعله في مصاف كبار أطباء عصره، وقد ترجم بعضها إلى اللاتينية والفرنسية والعبرية منها كتاب "التيسير في المداواة" و "علل الكلي" و "التذكرة".

وكانت كتاباته محل اهتمام العديد من المستشرقين والباحثين العرب ويأتي في مقدمتهم الدكتور جابريال كولان، ثم رينو (H.P.J.Renaud) والمستعربة الاسبانية روزاكوني بربانت، حيث نالت درجة الدكتوراه عن بحثها حول كتاب الاقتصاد لابن زهر.

وكان الأستاذ محمد العربي الخطابي سباقا في الإشارة إلى مكانة ابن زهر العلمية وذلك من خلال دراسته المنشورة في جزئين "الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية". وقام بنشر رسالتي "التذكرة" و"تفضيل العسل على السكر" و"القانون" وحقق كتاب الأغذية ونشره ضمن كتابه "الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي".

ونال الباحث جعفر يايوش درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي عن رسالته التي أعدها تحت إشرافنا الموسومة ب "أبو مروان عبد المالك بن زهر ودوره في تطور الحركة الطبية في بلاد الأندلس.

لقد أضاف أبو مروان بن زهر إلى علم الطب أشياء كثيرة وجديدة من خلال كتاب "الاقتصاد" حيث وصف الأورام السرطانية وغير السرطانية وأشار إلى أورام غشاء القلب وهو أول من تنبه إلى التغذية الصناعية (حقن الغذاء عن طريق الشرج) وتناول أمراض الرأس والدماغ والجهاز التنفسي والهضمي والبولي والتناسلي، وأمراض العظام المختلفة وأمراض الجلد والقلب والكبد والطحال، ووصف الأدوية لكل داء وكيفية تحضيرها وتركيبها ومقاديرها وأنواع الأغذية والأشربة والمراهم والدهون العلاجية.

وتناول كذلك العديد من الأمراض الجلدية كالجرب والجذام والبهق والبرص والحكة وغيرها. ووصف الطفيليات التي تنقلها وأسباب الإصابة بها، وقد عنى ابن زهر بالأمراض المتوطنة في بيئة معينة، رغم أن هذا الموضوع سبقه إليه أطباء عرب آخرون كأحمد الطبري والحارث بن كلدة والزهراوي وابن حبيب، حيث بينوا العلاقة بين المستنقعات وانتشار الأمراض والأوبئة.

- وصف المخطوط ومحتواه:

إن النسخة التي نقوم بتحقيقها من كتاب "الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد "كتبها عبد الملك بن زهر سنة 515ه للأمير إبراهيم بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حينما كان واليا على أشبيلية من قبل أبيه، وتقع في 141 قطعة (ورقة) مصورة عن النسخة الموجودة في مكتبة الأسكوريال تحت رقم 834 وهي مبتورة البداية، عبارة عن 7 مقالات مكتوبة بخط أندلسي قديم غير مشكل أو منقط في غالب الأحيان.

وهي نسخة مصورة عن المخطوط الموجود في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم Arabe R.10.504.959.

وهناك نسخة أخرى من كتاب "الاقتصاد" مخطوطة موجودة في الخزانة الحسنية بالرباط وتقع في 95 ورقة، تحت رقم 1598 مجموع، 2430/ مجموع، 150/ 13ز/مجموع وكل ورقة من المخطوط مؤلفة من 19 سطرا، فيها بعض الأخطاء الإملائية من الناسخ والكلمات غير مهموزة مثل ماء، (ما) دواء (دوا) الأعضاء (الأعضا) وهكذا وتكاد تخلو من العناوين الفرعية إلا ما كان من الإشارة إلى الانتهاء من مقالة والانتقال إلى أخرى، مثال ذلك (أما ما يعجل الطلق عند المرأة، وأما الإستحاضة، وأما الكسر، وأما القولنج، وأما قصر الرحم أو طوله، وأما الشعر النابت، وأما القمل) وهكذا في محل المخطوط تقريبا.

وأحيانا يستطرد إلى موضوعات طبية أخرى، غير التي كان يشرحها، ثم ينتبه إلى نفسه ويستدرك فيقول "وقد كتبت في هذا الشأن ما أداني إليه مقتضى الكلام حتى طال مقالي عن معهود المقدمات، فقد آن أن أقطعها في هذا الموضع إن شاء الله تعالى. تمت المقالة الرابعة من كتاب الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد".ورقة 26.

وتتكرر مثل هذه الاستطرادات المفيدة في صفحات المخطوط، ثم يتدارك الأمر بقوله كما في ورقة 32 "وما طبع الناس عليه من شهوات موبقات في حبائل الهرم في العاجل إلا من وقى الله. وما أرى أن أعظم الأسباب في ذلك إلا محتوم الأجل، وقد خرج بي نسق الكلام إلى ما ليس عليه فلنرجع إلى ما كنا فيه بسبيله من تقوية الدماغ".

وينبه ابن زهر إلى شيء خطير جدا وهو الأخطاء الطبية القاتلة فيقول في الورقة 107 "وفي خلال مرضه لم يوفق أحد إلى فصده، وفي كل ذلك فروا (أي الأطباء) عن الفصد لأنهم رأوا شيخا وزعموا أنه لا يجب للشيخ أن يستفرغ الدم ولا الصفراء وليس هذا أول رجل قتله الأطباء، ولم يكن قصدي ذكر حال الرجل، لكن ساقها الكلام، وقد قلت لك أن الورم يحدث عن أحد الأربعة أو عن أكثر من واحد".

وجاء في محل آخر من المخطوط "وأنا أقسم بالله على أني اعتقد أنه متى تولى أحد علاج مريض ولم ينذر بما يحدث له ومات المريض أن الطبيب قاتله، وأنه جدير بأن يلحقه المكروه في نفسه وماله ولا أعرف صناعة بلغ الاستخفاف فيها إلى حد بلغ في هذه الصناعة".

ويتبع ابن زهر منهجية خاصة تتمحور في تذكير القارىء لكتابه بما سبق شرحه وذكره. فعند تشخيصه للأورام وأسباها وأنواعها كتب يقول في ورقة 97 "وقد قلت لك أن الورم يحدث عن أحد الأربعة أو عن أكثر من واحد. كما قلت لك.

وقد يحدث عن غير هذه كلها، لكنها تنسب إليها. كما نقول بلغمي وصفراوي وسوداوي ودموي. وقد شرحت الأمر قبل شرحا. وبقي الكلام في علاج الأورام.

والأورام كلها تتضح إلا ما كان عن سوداء محضه، وهذا الورم هو المسمى على الحقيقة بالسرطان. وإنما سموه بالسرطان لأن العروق التي من حوله تنتفخ وتظهر فشبهوه بالسرطان. وهذا الورم إذا كان عن خلط محض فلا تطمع في علاجه ونصحه لأنه كالرماد مثلا في الاحتراق، وكما أن الرماد لا يمكن أن يشعل النار فهو كذلك ولو رمت ذلك بعامة الجهد. وأما الورم والخراج فعلاجه شامل، وقد أثبت لك في علاج الأورام قوانين في غير هذا الموضع".

ومن خلال ثنايا المخطوط نتعرف إلى العلاقة التي كانت تربط الطبيب ابن زهر بالسلطة المرابطية القائمة آنذاك والتي تراوحت بين القبول والرضى والشكر والثناء والسخط والسجن والتشريد.

حيث يقول في الورقة 95:

"وإني لأذكر وأنا في سن الصبا أني دعيت إلى بعض ملوك هذه الدولة، فلما دخلت عليه وجدت بين يديه جماعة من أطباء الوقت وشيوخهم، فلما أخذت موضعي

شكى الرجل إلي بأنه قد أصابه أورام عظيمة عند الخاصرة، فسألته عن الوجع، فذكر أنه شديد، ولم يكن به حمى، وكان سنه نحو السبعين، وكان كثيرا ما يأكل الأغذية الغليظة ويشرب العسل وأشباهه وربما كان يأكل الطعام على الطعام، فلما سمعت قوله قلت له...".

وقد جرت مناظرة بين ابن زهر والأطباء الموجودين بحضرة الأمير المرابطي الذي اغفل ذكر اسمه، أثبت من خلالها جهلهم بصناعة الطب.

" فلما قلت له ذلك احمر ثم قال أعطينها، فقلت له: أو نسيت فقال: إنما انظر ذلك الآن فإني لم أجعل إليه بالا، فقلت له: لقد هان الأمير عليك والحق أولا بأن هنت على نفسك، فأظهر الغضب وما أظهره من الجهل كان أقبح وأبين، ولما شمخ بأنفه، عندها جربت معه إلى غير طريق البرهان فافتضح وأخترق المجلس" ثم يعقب "وقد كنت قبل ذلك أجزع للمناظرة وأفرق منها".

وكتب يقول في الورقة 114 حول نفس الموضوع- العلاقة مع السلطة المرابطية: "ولما كانت تغيير أحكام هذه الدولة السنية والمملكة المرابطية والرياسة اللمتونية لها عوايد فاقت في الفصل كل عادة وطابقت للشيء معه في غير إرادة ومعظم طبوبها طفرات ولطوخات أو كيف شئت أن تسميها، وكان هذا الكتاب موضوعا بحسب أمرها ممثلا فيه ما يطابق تبرير مذهبها، إذ الأمر به يحثه غلابها وشمس أفقها وسمائها، رأيت أن أسلك في الطب ما يتوخاه وأثبت بحسب قدرتي ماله هواها على الله أمرها، نعتمده ونرضاه، فإنها أعلى الله أمرها قد أخذت بالحديث المشهور لأنه قال عليه السلام فيلطخها بعنبر أو زعفران وليس في الأمم من تابعت في الزعفران أمره وسلكت فيه متبركة به أثره مما جاء عنه صلى الله عليه وسلم إلا أهل هذه الدولة والله يوفق ويسدد".

ويتابع في ورقة 136 يقول "دعيت إلى امرأة من ملوك هذه الدولة في غلام مملوك كان لها بمنزلة الابن وقد أصابه مرض فلما وصلت إليه رأيت الصبي لا يحتمل مرضه ورأيت مادة المرض أعظم من قوته وكان الوقت صيفا وكان البلد حارا وكان الغلام فتى وكان مزاجه حارا يابسا، وكانت عادته الإقلال من الطعام والاهتمام والسهر، وكانت مهنته الجد والتعب".

فنحن نلاحظ بالإضافة إلى العلاقة القائمة بين السلطة والطبيب ابن زهر قوة الملاحظة وتشخيص الحالة المرضية، والمحيط، ثم ينتقل بعد ذلك إلى العلاج والمداواة. وكتب في الورقة 98 من المخطوط "وأني لاعرف امرأة من ذوي الشأن من أهل الأندلس

دعاني زوجها إلى إطلاع ورم كان بها في قدمها... وقد كان أعيى الأطباء نصحه فلما كشفته أيقنت أنه ورما سوداويا لا يقبل العلاج فعما قليل هلكت المرأة".

ويفهم من النصوص السابقة أنه كان على وفاق تام مع أمراء الدولة المرابطية، لكنه سرعان ما ينكب ويسجن هو وأبوه، ولم تنته معاناته إلا سنة 537هـ حيث عاد أبو مروان بن زهر إلى أشبيلية، ثم التحق بمراكش على أيام الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، حيث أكرم وفادته، وعاش بقية حياته معززا مكرما.

إن الطبيب ابن زهر كما لاحظنا أثناء تحقيقنا للمخطوط يمنح دورا هاما للفحص والمشاهدة العيانية للحالة المرضية. يقول في الورقة 77 "وذكر الناس أنه قد يكون في الفروج آفة أخرى، لكن لم أسمع ذلك ممن أثقه ولا رأيته في كتب التشريح" ثم يضيف "وهذا قانون ذلك نقيس عليه، وليس يمكن أن يضع لك علاج شخص في كتاب".

وجاء في الورقة 29 "وأما إذا برزت فعلاجه نوم المريض على قفاه دائما وأسع في إحكام ذلك الحرق بما تقدم ذكري إياه، وأمنعه من القيام والسعال والعطاس والصياح وبالجملة عن الحركات التي تعرض للبدن".

ثم ينتقل إلى التشريح في ورقات عديدة من المخطوط ويؤكد على ضرورته لأنه يساعد الطبيب على تشخيص الداء وتعيين الدواء. يقول في الورقة 91 "فإن سألتني ما معنى الخلع والجبر قلت لك معرفة أعضاء الإنسان على استقامتها وذلك عن طريقتين، إما طريق التقليد وهو يأخذ الأمر سماعا من غيرك وإما بطريق التشريح، وأمره سهل، فإن تشريح العظام لا يحتاج فيه إلى حيوان حي ولا يحتاج فيه إلى اختبار الحركات ولا يعوقك عن ذلك كما يعوق في تشريح العروق والعضل والعصب فوران الدم وسيلانه حتى يحول بينك وبين الذي تريد رؤيته، وأما تشريح العظام فأمر سهل، نقّ البدن من اللحم أجمع، وعرّ على ما هي عليه واجعلها على شكلها الطبيعي وانظر إليها كيف هي فإن انخلع عضو أو انكسر، فاسع إلى جبره على تلك الحال، فإن سألتني عن الشكل الطبيعي، أجبتك، فهو الشكل الذي لا يحدث كللا في عضا [illegible] ألما، كمثل شكل اليد إذا مالت على الصدر".

ويتناول أبو مروان بن زهر في المقالة السادسة، ورقة 106 مجموعة من الأمراض الجلدية حيث يقول "إني أريد أن أذكر في مقالتي هذه إصلاح تشوه البدن كلها، والبشره وما يسببها والجرب والمسامير والأورام والخراجات وما بها كلها، والضرب بالسوط وما يحدث عنه من الألوان وأعظم من هذا كله البرص الأبيض والبهق الأبيض والأسود والداء العظال وهو الجذام.

ثم نجد في المخطوط الإشارة إلى كيفية صنع الأدوية وبضمنها الأشربة والدهون والمراهم العلاجية ومقاديرها والمواد الأولية التي تحضر منها كالأعشاب المختلفة والثمار والزيوت والدهون والورود والحبوب والألبان وغيرها.

كتب يقول "واسقه شراب تمر هندي بقدر ما يحتمل" وفي مكان آخر "واسقه كل يوم من هذا المعجون بماء فاتر".

ويرد ذكر الجلبان والحصرم (العنب قبل نضوجه) ودهن البابونج وشحم خصي الديوك، ماء الورد، شحم الدجاج، الترياق الفاروق، شراب عرق السوس، حجر اليهودي القرنفل، الصندل، الكافور، سعد العراقي، رماد شجر التين، ماء الدلاع، ماء الخيار، ماء الشعير، دهن اللوز، فراخ الحمام.

وعند تحديده لنوع الدواء فإنه يأخذ بالاعتبار السن والوقت والبلد والمزاج ونوعية المرض، ثم يذكر أوزانها بالأوقية والدرهم والرطل والقيراط والقوطل.

ويبين طريقة التحضير "واصبب عليها من الخل ست قوطولات واطبخها حتى تفوح رائحة الورق منها وأضف إليها فلفلا، فإذا أخذ حده من الطبخ. اعتصرها، ثم اسحقه واعجنه واخلط الجميع بلبن أرانب واستعمله بعد أن تغسل الموضع".

وجاء في نهاية الكتاب "فهذا حد الكلام بحقه فأنا قاطعه في هذا الموضع جاعل مقالتي هذه كالخاتمة لسائر مقالات هذا الجزء وإن أمكنني الأجل سأتمم الجزء الباقي على ما وعدتك إنشاء الله وبه التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل. تمت المقالة السابعة وبتمامها تم الكتاب والحمد لله وكفى وصلواته على عباده الذين اصطفى وهو حسبي توكلت عليه".

سادتي المحترمين- هذه بإيجاز أهم محتويات كتاب "الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد"، الذي نسهر على تحقيقه ونشره في القريب العاجل إن شاء الله ليكون في متناول الباحثين وطلبة العلم.

مرة أخرى أتمنى لمحفلكم العلمي الثاني هذا المزيد من النجاح والتوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

"التراث العلمي المخطوط بدور الأرشيف المغربية"
أصوله القديمة ومظاهر من قيمته المعرفية

أحمد الطاهري، جامعة تطوان (المغرب)

تحتفظ دور الأرشيف وخزائن الكتب المغربية بجزء هام من التراث العربي المخطوط في مختلف أصناف التأليف. وتشكل المكتبة العامة بالرباط ومكتبة جامعة القرويين العتيقة بفاس والمكتبة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط وخزانة جامع ابن يوسف بمراكش والمكتبة العامة والمحفوظات بتطوان والخزانة الناصرية بتمكروت ومكتبة الزاوية العياشية، وغيرها من دور الأرشيف العامة والخاصة والمحبسة بمختلف جهات المملكة المغربية[1]، ثروة علمية لا تقدر بثمن، قد توارثتها الأجيال بالنسخ والضبط والمقابلة والتصنيف والزخرفة والتسفير، على مدار قرون خلت. وهو ما تناوله أحد الدارسين ببحث رائد عن تاريخ الوراقة المغربية[2].

حقيقة أن القسم الأوفر مما تم الاحتفاظ به من المصنفات المخطوطة بالخزائن المذكورة يتضمن فضلا عن المصاحف الكريمة والكتب الموضوعة في علوم التفسير والقراءات والتوحيد والفرائض، جملة من كتب الرقائق والكرامات والأوراد والأذكار. كما تتضمن عيونا مؤلفة في اللغة والنحو والأشعار والأخبار، وفي السيرة التراجم والأنساب، وفي الحديث والفقه والأحكام "وغير ذلك من العلوم المباحة بمذاهب أهل الأندلس"[3] والمغرب، والمقصود ذلك الفريق من الفقهاء المالكية الذين استقبحوا مذهب الخليفة الحكم المستنصر في رعاية الحكمة والفلسفة وعلوم الأوائل. كما تزخر بالمصنفات الموضوعة في علم الفلك والنجوم والأسطرلاب، وفي المواليد والنيرنجات والطلسمات، وفي الحساب والأوفاق والمواقيت والظلال، وفي الأنواء والأزمنة

وأوقات السنة، وفي المعادن والأحجار والجواهر، وفي الحيل والهندسة والأثقال، وفي الكيمياء والطبائع والحكمة، وفي الأوزان والأكاييل، إلى ما يند عن الحصر من العلوم والمعارف الفرعية. ناهيك عما تختزنه من تعاويذ وجداول ورموز، وأحجبة وأدعية، ومؤلفات في السحر والشعوذة واستخراج الكنوز، مما شاع التصنيف فيه خلال القرون المتأخرة.

وبرغم الجهود التي بذلت منذ القرن التاسع عشر وطوال القرن الماضي في نشر عيون من التراث المغربي المخطوط، لم تتمكن الطباعة الحجرية[4] ولا أصناف الطباعة والنشر وتقنيات الحاسوب المعاصرة، من إنجاز ما ظل القلم اليدوي القديم يعاركه بصفة دائبة على مدار ما ينيف عن اثني عشر قرنا، بوازع الحفاظ للأجيال المستقبلة على المعارف الموروثة. أسفر ذلك عن حدوث خلل بنيوي هدد في الصميم صيرورة التراث المكتوب، إذ عجز التقدم التقني الهائل في ميدان تقنيات الكتابة والتواصل عن السير بوتيرة القلم اليدوي في ضمان استمرارية كافة مكونات التراث المغربي المخطوط. بينما اختلت أحوال مئات المخطوطات واعتلت أوراقها بفعل الأرضة والرطوبة وعوادي الزمن، مما تطلب التدخل باستعجال لانقاذ ما أمكن بالإصلاح والترميم. ولعل في انبهار الجيل المتأخر من أهل القلم المغاربة المتمدرسين بمظاهر العلم والمعرفة لدى غيرهم من الأمم، واحتدام التنافس بين النخب المنفعلة على التقليد والتناغي في ترويج أفكار الغير، ما ثبط الهمم إلى حد الانفصال عن الأصول.مع ذلك، لم ينقطع الاهتمام بجملة من الجوانب التقنية في المخطوط المغربي[5] الذي ما فتئت مناحيه الفنية والجمالية تثير حساسية المهتمين. وبالمثل، لم تذخر ثلة من الباحثين المغاربة والأجانب جهدا في دراسة وتحقيق نصوص مختارة في جملة من حقول العلم والمعرفة، بما يشد الانتباه إلى ثراء مكامنه. ومع ذلك نظل إلى اليوم دون القدرة على تقويم مضامين مجمل الإرث المخطوط بما يكفي من الدقة العلمية. بل وما زلنا

متعثرين في إعداد فهارس موضوعاتية كفيلة بضبط مجمل النصوص التي تتضمنها المجاميع المخطوطة في مختلف مجالات المعرفة. وهو ما يتطلب إجراء قراءات واسعة في كافة المتون المحفوظة لتصنيف مادتها العلمية وضبط حقولها المعرفية وإسنادها لأصولها المرجعية بالكشف عن عناوينها ومؤلفيها ونساخها وتواريخ نسخها، إلى ما عدا ذلك من المعلومات التقنية.

ويخيل إلينا أن التراث العلمي المرتبط بالحكمة والفلسفة وعلوم الطبيعة قد ظل دون غيره من مكونات المحفوظات المغربية الأقل حظوة. وسنقتصر في هذا المقام على إجراء قراءة جزئية فيما أمكن الاطلاع عليه من كتب الطب والفلاحة والنبات، المحفوظة ببعض المكتبات المغربية. غاية المنى تلمس الخيوط الرفيعة التي ربطت بلاد المغرب خلال القرون الهجرية الأولى بعلوم الأوائل من الأمم والحضارات الدائرة. ولا مناص في هذا الصدد من الإقرار بأن "كتب العلوم القديمة المؤلفة في المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل"[6] قد آلت إلى مصير مؤلم، حسبما يتضح من توالي عمليات القهر والمتابعة وكتم الأنفاس والتنكيل، التي بلغت حد البتر الشامل لهذا القسم من الفكر العلمي بالمغرب والأندلس وقد سعينا في أكثر من مناسبة[7] إلى توجيه الاهتمام إلى مفصل مركزي في سياق الاختلال الحضاري بالغرب الإسلامي. ويتعلق الأمر بدور الطاغية المنصور بن أبي عامر في إسكات صوت الحكمة والفلسفة والعلوم المرتبطة بها، في عملية اجتثاث عميقة للفكر العلمي المغربي، لم يفلح الباحثون إلى الآن في تقدير حجمه وخطورة آثاره على استمرارية الفعل الحضاري بالغرب الإسلامي، خلال القرون اللاحقة. ولا تعوزنا التفاصيل عن مشاهير الحكماء والعلماء والفلاسفة، ممن أخذ بالشبهة وأطبق عليه في السجن، وعمن ناله النفي أو تعرض للصلب وقطع اللسان، وما إلى ذلك من أصناف النوائب والمحن. وبعدما عمد الطاغية إلى إتلاف ذخائر مكتبة الحكم المستنصر الذائعة الصيت بما تضمنته من عيون "الكتب في أنواعها

ما لم يجمعه أحد من الملوك"[8]، بث الجواسيس في ربوع العدوتين المغربية الأندلسية لترصد الأنفاس وتتبع خزائن الكتب بالإفساد والإحراق.

وثمة تقويم لمضامين إحدى أغنى خزائن الكتب التي لم يعرف لها مثيل في مجمل الحوض الغربي للمتوسط، سواء على مستوى ما تضمنته من كتب الطب والفلاحة والنبات، أو ما جمعته من موروث عن حضارات الأمم القديمة في شتى أصناف العلم والمعرفة، إلى حدود الستينات من القرن الهجري الرابع. ويتعلق الأمر بمكتبة الحكم المستنصر التي جمعت من التآليف ما "لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل إنها كانت أربعمائة ألف مجلد"[9]. وهو ما قدره ابن حزم مشافهة على لسان خازنها، بقوله: "أخبرني تليد الفتى وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الكتب فقط"[10]. ويتعلق الأمر في اعتقادنا بالخزانة الأصل التي تفرع عنها الجزء الأوفر من العيون الموصولة بعلوم الأوائل، متدفقة في شكل موجات منسابة على مدار القرون المتأخرة، إلى أن التقف الوراقون المغاربة بعض متونها فانتسخوها وتعهدوا شذراتها بالنسخ والمقابلة وضمنوها مؤلفاتهم.

ومن المفيد التذكير بإقدام الخليفة الحكم المستنصر على إقامة أقدم وأكمل وأرقى مكتبة علمية متخصصة في الطب بالجناح الغربي لدار الإسلام، يرجع إليها الفضل فيما تفرع عن هذه الحقول من تداعيات علمية طوال القرون اللاحقة، إلى أن وصلت إلينا في شكل عيون مبثوثة في كتب الطب والصيدلة والنبات. وإمعانا في ربط المعارف النظرية والاختبار التجريبي بالإنتاج الصيدلي وربط نتائج البحث العلمي بحاجيات فقراء الأمة، عمد الخليفة الحكم المستنصر بإيعاز من الطبيب الحكيم أحمد بن يونس بن أحمد الحراني إلى إلحاق جملة من المختبرات بهذه الخزانة. وهو ما أشار إليه بعض المترجمين بالقول: "وتولى إقامة خزانة بالقصر للطب لم يكن قط مثلها، ورتب لها

إثني عشر صبيا صقالبة طباخين للأشربة صانعين للمعجونات واستأذن أمير المؤمنين أن يعطي منها من احتاج من المساكين والمرضى"[11].

ويتعلق الأمر بالذخائر النفيسة التي لم يتورع الطاغية المنصور بن أبي عامر، المترقي من دهاليز المخابرات العسكرية ــ إذ كان عينا على العسكر ــ إلى قمة هرم السلطة، عن الإجهاز عليها "فأمر بإحراقها وإفسادها فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة وغيرت بضروب من التغايير"[12]. بلغت مغالاته في معاداة الفكر الحر والتنكيل بأهله أن اشتهر في الآفاق بكونه "أشد الناس في التغير على من علم عنده شيء من الفلسفة والجدل في الاعتقاد والتكلم في شيء من قضايا النجوم"[13]. ولم يكن ملوك وسلاطين المغرب والأندلس ــ على وجه العموم ــ والرؤساء المتوثبين في الآفاق ليندوا عن قاعدة معاداة الحكمة والفلسفة، وما ارتبط بهما من علوم الأوائل. فقد وطد يعقوب المنصور الموحدي ــ على سبيل المثال ــ العزم "أن لا يترك شيئا من كتب المنطق والحكمة باقيا في بلاده، وأباد كثيرا منها بإحراقها بالنار وشدد في أن لا يبقى أحد يشتغل بشيء منها"[14]. ولم يذخر الصنف المشار إليه من الفقهاء المنتسبين للمالكية ممن زاغ عن الأصول وعن تعاليم أهل التقوى من كبار أئمة المذهب المالكي[15] جهدا في تأليب جهال العامة على كل من لا يوافقهم الرأي، في عملية ارتداد حضاري لم تتوقف عن التدحرج بالقهقرى إلى اليوم. بلغ الحصار الفكري ــ وإن بدرجات متفاوتة طوال القرون اللاحقة بعموم البلاد المغربية ــ أن "كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة إسم زنديق وقيدت أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان"[16].

ومن حسن طالع التراث العلمي أن تم استثناء كتب الطب والحساب من الضربة العامرية التي أتت على الأخضر واليابس من جملة المصنفات في "علوم الأوائل، حاش كتب الطب والحساب"[17]، على حد تعبير المصادر التاريخية التي تناولت هذا

الحدث الجلل. ولا يخفى ارتباط الطب والصيدلة والنبات بعلوم الأوائل وآراء الحكماء الأفاضل. مما يفصح عن دور هذا الحقل العلمي في الاحتفاظ ببعض المنافذ مشرعة على علوم الأوائل، من خلال استمرارية النقول والنسخ عن الأصول الأولى، في سلسلة لم تكل على مدار القرون المتأخرة.

يتجلى ذلك بوضوح من خلال إجراء تحليل توثيقي في جملة من المتون المخطوطة من كتب الطب والصيدلة المحفوظة بالمكتبات ودور الأرشيف المغربية. وليس من قبيل المصادفة أن تحظى مصنفات الطب والصيدلة والنبات بالذات، وكتب الحساب أيضا دون غيرها من المصنفات العلمية التجريبية والنظرية، بحيز هام ضمن دور الأرشيف المغربية. لقد كان للاستثناء العامري أبلغ الأثر في توجيه الصنف المذكور من الفقهاء المالكية المعاصرين للطاغية واللاحقين أيضا إلى القبول بهذا الإرث واستثنائه، برغم ما يشوب متونه من آراء الفلاسفة ويلتصق به من أقوال الحكماء الأوائل وفلاسفة المسلمين. هكذا تمكنت جملة من النصوص الطبية والصيدلية وكتب النبات السابقة عن القرن الخامس الهجري، فضلا عن الاقتباسات الموروثة عن الحضارات القديمة، من اختراق القرون لتصل إلينا سالمة ضمن مخطوطات مفهرسة في جملة من المكتبات المغربية، التي تمكنت من الاحتفاظ بجزء مما سلم من محتويات الخزائن المغربية الأندلسية القديمة. إلا أن القسم الأوفر من هذا الإرث قد انتقل في شكل اقتباسات موثقة أو غير موثقة ضمن المصنفات التي وضعت بعدئذ في علوم الطب والحكمة والتشريح، وفي تعديل الأمزجة وتركيب العقاقير والأدوية، وتحليل ماهية الأعشاب والأشربة والأغذية، ووصف الأمراض والعلل والأوبئة، إلى ما يند عن الحصر من التقاييد والمجربات والوصفات العلاجية.

حقيقة أن هذا الإرث الطبي المخطوط بالمغرب قد حظي منذ مدة بعناية جملة من الدارسين[18] والمفهرسين الذين اندرجوا على إحصاء مضامينه ضمن لوائح ببليوغرافية. نذكر منها على سبيل المثال اللائحة المقتضبة التي وضعها أحدهم لبعض

"المخطوطات الطبية بالمغرب"[19] المحفوطة في حوالي سبعة خزائن. ومن المعلوم أن المخطوطات الطبية بالمكتبة العامة بالرباط قد حظيت منذ منتصف القرن الماضي بفهرسة مفصلة[20]. كما حظيت الخزانة الملكية بالرباط بعدئذ بفهرسة مماثلة تنحو إلى الإحاطة بكافة النصوص المخطوطة في علم الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات[21]. إلا أن مقابلة هذه الفهارس مع المتون المخطوطة يفصح عن نسبية التطابق بين المحتويات الحقيقية واللوائح الببليوغرافية المعلنة. ومن خلال تحليل مضامين جملة من المجاميع المخطوطة بالخزائن المذكورة، وجرد البطائق الخطية لكافة للمخطوطات المفهرسة بالمكتبة العامة بالرباط، ومقابلتها بمتون المخطوطات المحفوظة بها، أمكن الاستدراك على الفهارس القائمة، بما يفتح إمكانات العثور على مصنفات ونصوص جديدة، مما اعتبر في حكم المفقود.

وهو المشروع الذي باشرنا العمل فيه على مراحل منذ بداية التسعينات من القرن الماضي. وقد أثمر في مرحلة أولى تحليلا توثيقيا وتاريخيا[22] في حوالي أربعين مخطوطا من كتب الطب والفلاحة والنبات وذات الصلة، المحفوظة بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا وبالمكتبة الوطنية بباريس والمكتبتين العامة والحسنية بالرباط والمكتبة العامة بتطوان. كما أثمر بعدئذ صياغة فهرسة[23] مفصلة في محفوظات المكتبة العامة بالرباط مما يندرج ضمن هذا الحقل المعرفي، والتي تظل هي الأخرى في حاجة إلى الاستدراك. وحتى نتمكن من بلوغ الغاية، عمدنا إلى دراسة وتحقيق نص فلاحي أندلسي من العصر المرابطي مستخلص من أصل فلاحي مفقود لمحمد بن مالك الطغنري، مما تم العثور عليه وفق منهجية التنقيب المعتمدة[24]. وتجدنا الآن في طور تعميم هذه التجربة على غيرها من خزائن المخطوطات بالمغرب وإسبانيا[25]. ومن الملاحظ أنه على عكس مخطوطات الطب والنبات والصيدلة التي تعد بالمئات، قليلة هي كتب الفلاحة التي تحتفظ بها دور الأرشيف المغربية. والغالب على الظن أن ذلك يرجع لعدم استثناء أصولها من الترخيص العامري، فتعرضت مثل غيرها من الكتب المرتبطة بالحكمة والفلسفة وعلوم

الأوائل للطمس والإتلاف. خصوصا وأن الجزء الأوفر من التراث الفلاحي المغربي الأندلسي مرتبط أشد الارتباط، ليس فقط بتعاليم قدامى حكماء الإغريق، بل وكذا بـــــ "أسرار الفلك والأحكام على الحوادث من حركات النجوم"[26] وغير ذلك من "أفعال الكواكب"[27] والطلسمات القديمة المرتبطة بالمعتقدات الوثنية في حضارات وادي الرافدين البابلية والآشورية والسريانية وبـــ"عجائب الهند"[28].

وقد أمكن من خلال الإصرار على النبش في بعض الفتات الداثر من كتب الفلاحة السابقة عن القرن الخامس الهجري[29] من تلمس خيوط باهتة لكنها دالة عن عمق الجرح الناتج عن إتلاف مكتبة فلاحية ضخمة، لم يسلم منها إلا بعض العناوين. ومما شجعنا على ذلك ما نص عليه صاعد الأندلسي بقوله معلقا على آمال حكماء وفلاسفة عصره، بنجاة النزر اليسير من الكتب "التي وجدوا في خلالها أغلاقا من العلوم القديمة كانت قد أفلتت من أيدي الممتحنين لخزانة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر"[30]. إنها ذات الأغلاق المبثوثة ضمن التراث العلمي المحفوظ الذي نشد إليها الانتباه، علنا نتمكن من لمها وانتشال بعض عيونها من طي النسيان، بما قد يعيد الحرارة إلى الخيوط الواصلة بين حضارات الأمم القديمة وبلاد المغرب. وقد لا تعوزنا القرائن الدالة على اعتماد أوائل الحكماء والمصنفين في علم الفلاحة بالمغرب والأندلس عن استقصاء آراء الفلاسفة والحكماء اليونان الذين تواترت أسماؤهم بإسهاب فيما وصلنا من كتب الفلاحة[31]. نذكر منها على سبيل المثال "كتاب قود المياه لفيلون البيزنطي"[32]المصنف خلال القرن الثالث قبل الميلاد. ونتوفر على جملة من الدلائل الكاشفة عن استخدام تعاليم هذا الكتاب في استنباط المياه الجوفية من طرف أهل نكور وبادس[33] بريف المغرب. وقد بلغت من الشيوع بين أهل الأندلس أن نعتوا بكونهم "يونانيون في استنباطهم للمياه"[34]. ويتعلق الأمر حسب تقويم علماء الفلاحة بالأندلس بــــ "أحسن كتاب ألف في هذا المعنى، لا بد لمن أراد قود ماء من موضع بعيد إلى مدينة أو قرية أونحوهما من تصفح هذا الكتاب"[35]. وغني عن البيان أن ثمة

فقرات كاملة من هذا الأصل اليوناني القديم قد تم الاحتفاظ بها ضمن ما أفلحنا في الإطلاع على مضامينه من الارث الفلاحي المحفوظ. وأثناء ذلك صادفتنا جملة من الاقتباسات المتعلقة باستنباط وقود المياه ضمن مصنفات ابن وافد[36] وابن بصال[37] الطليطليين وابن حجاج الإشبيلي[38] ومحمد بن مالك الطغنري[39]. كما اندرج علماء الفلاحة المغاربة والأندلسيون على الأخذ عن "الفلاحة الرومية"[40] والفلاحة الهندية[41] والفلاحة الفارسية[42] فضلا عن المعارف المنقولة عن "العرب القدامى"[43]، سيما المتمرسين منهم بأساليب الفلح والري وخزن المياه في بلاد العرب السعيدة. إلا أن أهم ما يثير الانتباه دأب علماء الفلاحة المغاربة على النهل منذ وقت مبكر من حضارات وادي الرافدين القديمة. وقد أمكننا من خلال مقابلة متن كتاب الفلاحة المترجم من طرف ابن وحشية من السريانية إلى العربية، بمضامين جملة من المصادر المغربية الأندلسية، من الوقوف على بصمات كاشفة عن شيوع الإرث الفلاحي الكلداني القديم في الثقافة العلمية والممارسة الفلاحية بالمغرب.

ومن أبرز الأصول المعتمدة في ترجمة ابن وحشية "كتاب دواناي البابلي في أسرار الفلك والأحكام على الحوادث من حركات النجوم"[44]. أما جوهر المادة الفلاحية المترجمة فتنسب "إلى ثلاثة من حكماء الكلدانيين القدماء ذكروا أن أحدهم ابتدأه وأن الثاني أضاف إلى ذلك المبتدأ شيئا آخر وأن الثالث تممه، وكان مكتوبا بالسريانية القديمة في نحو ألف وخمس مائة ورقة"[45]. وسواء فيما يتعلق بكتاب فيلون البيزنطي أو بمصنفات دواناي البابلي والحكماء الكلدانيين الثلاث ضغريث وينتوشار وقوثامى، ثمة مؤشرات بالغة الأهمية في الكشف عن تسربها منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري إلى المغرب الأقصى بواسطة أحد كبار حكمائها ممن أحكم اللسان السرياني واستبحر في علم الفلك أثناء مقامه ببلاد الرافدين. ويتعلق الأمر بصالح بن طريف البرغواطي الذي اشتهر بكونه "يخبر بأشياء قبل كونها مما تدل عليه النجوم عندهم فتكون على ما يقول أو قريبا منه. وعلى غرار ما هو مفصل في الفلاحة النبطية

شاع لدى أهل المغرب ممن أخذوا بمذهب صالح بن طريف "علم استجلاب روحانية ما يشاؤونه من الكواكب"[46].

كما أمكن الوقوف على اقتباسات من طلسمات وروحانيات قدامى النبط من الكلدانيين ضمن أحد أقدم المصنفات الأندلسية في الحكمة والفلسفة، ويتعلق الأمر بكتاب غاية الحكيم لابن مسلمة المجريطي[47]. وبعدما تجمعت لدينا جملة من القرائن، لم نتردد عن الإقرار بوجود حلقة مغربية مطموسة يرجع إليها الفضل في تدفق أولى موجات الحكمة والفلسفة وعلوم الأوائل منذ عهد مبكر إلى المغرب ومنه إلى الأندلس. ومن المعلوم أن المذهب البرغواطي المغربي النشأة قد تم بتره بصفة تامة من الخريطة الفكرية والمذهبية، وإقصائه جملة وتفصيلا من ملة الإسلام، مما كان له أبلغ الأثر في طمس هذه الحلقة، التي لم نذخر جهدا في إعادة تجميع خيوطها الباهتة ضمن كتاب يصدر لنا قريبا بحول الله[48].

حقيقة أن ثمة قسط من الإرث النظري القديم المتداول في المصنفات الفلاحية المغربية الأندلسية قد تم اقتباسها بشكل غير مباشر من خلال الترجمات والشروح العربية التي أجراها الحكماء وعلماء الفلاحة للكتب الحكمية بديار المشرق. وقد أمكن من خلال جرد مضامين الإرث الفلاحي المغربي الأندلسي المخطوط والمطبوع من الوقوف على أسماء ثلة من مشاهير المترجمين والشراح المشارقة المعتمدين في هذا الحقل[49] من أمثال ابن ماسويه وثابت بن قرة وإسحاق بن سليمان، فضلا عن موسى بن نصر الفارابي وأبو يوسف يعقوب الكندي وغيرهم. إلا أن ما يميز المكتبة الفلاحية المغربية الأندلسية، نهلها المباشر من بعض الأصول الموروثة عن الأمم القديمة، من خلال ترجمات علمية مجهولة بوشرت منذ فترة مبكرة. ناهيك عن دور الإرث العلمي الشفوي المغربي في إثراء القواميس الفلاحية.

وقد أشرنا في مناسبات سابقة إلى إحكام اللسان الأمازيغي والعربي والعبراني والسرياني والعجمي من طرف أحد أوائل المترجمين المغاربة، ممن أفلح في إجراء أقدم

ترجمة للقرآن الكريم باللسان الأمازيغي. ولا تعوزنا القرائن عمن "كان من ملوك إفريقية عارفين بلسان العرب"[50] قبل الإسلام. وبالمثل، فمن رجالات العرب الفاتحين من كان على دراية بلغة نصارى المغرب "وكان يعرف لغتهم وقد تعلمها بالشام"[51]. ولعل في هذه القرائن ما يدعونا إلى التحفظ من البديهيات المتعارفة. مصداق ذلك، مل تنم عليه كتب الفلاحة المغربية الأندلسية من مصطلحات علمية أمازيغية.

فقد ورد ضمن الاختصارات الفلاحية في سياق تعريف الزوان وهو الشيلم الذي ينبت في حقول القمح "ويقول له البرابر أيد"[52]. كما عمد في مكان آخر إلى تعريف التربة الموافقة لغرس النخل المسماة بالعربية "الصلح وهو إذقه"[53] باللسان الأمازيغي. وقد أفصح عن معنى "عروق الأرض يأكلها الناس في الغلاء ويعرف بأرنى"[54] بلسان المغاربة الأمازيغ. وثمة أصناف من خرق الكتان التي تستحدم في التلقيم تعرف لدى المغاربة الأمازيغ باسم "اشتب"[55]. ولم يتردد علماء الفلاحة المغاربة عن اقتباس مصطلحات أمازيغية ونحتها وفق البناء العربي، نذكر منها /تسمخت/ وهي الذرة البيضاء بالفصحى، التي أصبحت "يقال لها السمخى"[56]في القاموس الفلاحي. وثمة تراكيب لغوية أمازيغية البناء لا تمت إلى العربية بصلة قد اندرجت في المصادر الفلاحية[57]، بما يكشف عن عمق التفاعل اللغوي بين المستويين الأمازيغي والفصيح.

وتزخر المصنفات النباتية والصيدلية بما يند عن الحصر من المصطلحات الأمازيغية القديمة التي اندثرت منذ قرون من القواميس المحلية، بما يوفر إمكانيات هائلة لإعادة بناء ما انطمس من اللسان المغربي. فقد ورد في أحد مشاهير كتب النبات الأندلسية أن مصطلح الفقوص يقع على ما لم ينضج أنواع القثاء والبطيخ "وتسميه المصامدة أقزان وتسميه زناتة إيغسيمن"[58]. وبالمثل، فشجر الآبنوس الضحم "يعرف بالبربرية بحطب السودان فيقولون إسغارن إمشاتن وبعضهم يقول إسغارن يزان أي العود الأسود"[59]. وثمة نوع من الشجر ينبت بجبال بني ذهنة بنواحي فاس "يسمى بالبربرية دازرغينت"[60]. ومن المعلوم أن ثمة تشعبات ضمن اللسان الأمازيغي مرتبطة

بتنوع الفروع القبلية التي قلما نجد بينها من يحيط بكافة الاختلافات المحلية، "مضطلعا بلغة البربر يفهم غير لسان من ألسنتهم"[61]. وقد عمد أحد النباتيين المغاربة إلى ضبط بعض المصطلحات العلمية بلسان قومه، مدققا في ترجمة النبات الشوكي المسمى الاسبرنج بالقول: "وهو عندنا بالبربرية أززوي"[62]. كما ذكر أحدهم أن "أطريكال اسم بربري ومعناه رجل الطير"[63]. وفي متن أحد الفوائد الملحقة بالمخطوط الطبي المحفوظ في المكتبة العامة بالرباط ورد أن الحيوان المعروف بــــ"أم سيس هي عند البرابر تمكرزت"[64]. وثمة إشارة ضمن نفس هذا المخطوط المجموع في الأدوية إلى أن عشبة "الجعيدة هي تورزريزن عند بعض البرابر"[65].

وقد أمكننا الوقوف على جملة من النصوص المخطوطة الكفيلة بتنبيه الغافلين —ممن آثر المهاترات الكلامية والجدال الانطباعي عن مشاق البحث العلمي – إلى قيمة المصادر العربية في إعادة بناء ما اندثر من اللسان الأمازيغي. نذكر منها على سبيل المثال "معجم المفردات الطبية بالبربرية وما يقابلها في اللغة العربية"[66]. ومن المعلوم أن ثمة مصنفات صيدلية قد صيغت مصطلحاتها في لغات عديدة، نذكر منها "كتابا في شرح الأدوية باللسان اليوناني والسرياني والفارسي والعجمي"[67]. لعل في هذه الأمثلة التي انتقيناها من ضمن آلاف المصطلحات العلمية الأمازيغية المبثوثة في مئات المصادر العربية المخطوطة التي أمكننا الاطلاع عليها بدور المحفوظات المغربية، ما يكشف عن جزئية القواميس اللغوية التي دأب البعض على تأليفها، من خلال الاقتصار على إثبات بعض العبارات الشائعة وتأويل دلالاتها من خلال منهج التأمل الانطباعي. وقد آن الأوان ــ فيما يبدوــ للانتقال بالثقافة المغربية، بفضل غزارة المادة العلمية المحفوظة ضمن التراث المخطوط، من طور الانطباع وردود الفعل العفوية إلى مرحلة البناء العلمي وتوسيع مجالات التراكم المعرفي.

حقيقة أن معظم الأصول الطبية والصيدلية الموروثة عن حضارات الأمم الداثرة قد انتقلت إلى المغرب والأندلس عبر الترجمات التي أنجزت بديار المشرق.

وتزخر المصادر الطبية المغربية بالإحالات على الحكماء الأوائل من أمثال أبقراط وجالينوس، كما بينا ذلك ببعض التفصيل في مناسبة سابقة[68]. وهو ما أشار إليه ابن جلجل في عبارة جامعة بقوله متحدثا عن خلافة عبد الرحمن الناصر، و"في أيامه دخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم"[69]. ولا غرو، فقد تفانى في بعث رسله من التجار وغيرهم ليستجلبوا "من بغداد ومصر وغيرها من ديار المشرق عيون التواليف الجليلة في العلوم القديمة والحديثة"[70]. مع ذلك، فمن المفيد الانتباه إلى دور الرافد الثاني الذي ساهم في بلورة أصول الطب والحكمة بالمغرب والأندلس. ويتعلق الأمر ببعض النصوص الطبية المترجمة عن اللغة اللاتينية مما كان متداولا لدى أهل البلد منذ الفترة السابقة للإسلام. وقد تواتر الخبر عن أولية "كتاب مترجم من كتب النصارى يقال له الإبريشم"[71] وعن غير ذلك مما "ألفه الفضلاء المتأخرين من العجم"[72]. وتزخر كتب التراجم والطبقات بأسماء حكماء العجم ممن ترك بعض البصمات المبكرة في نشأة المدرسة الطبية المغربية الأندلسية. نذكر منهم جواد الطبيب النصراني وخالد بن يزيد النصراني وابن ملوكة النصراني وغيرهم[73]. وهو ما يندرج ضمن الفرع الطبي المعروف ضمن التراث المخطوط باسم "طب العجم"[74].

ولعل في تمكن المدرسة المغربية الأندلسية من الجمع بين الأصول الإغريقية ومخلفات الحضارات المشرقية الداثرة وبين بقايا ما تخلف ببلاد الغرب من النصوص اللاتينية والمحفوظات المتواترة بالأمازيغية والعجمية في ألسنة المغاربة والأندلسيين، ما مكنها من ملامسة مستويات حضارية غير معهودة. ولا تعوزنا القرائن الكاشفة عما تم نقله من اللسان اللاتيني والأمازيغي، ومن مختلف العجميات الأندلسية، إلى أحضان الفصحى. نذكر منها "كنز الفلاحة"[75] الذي ترجم من اللاتينية إلى العربية بمدينة قرطبة، أيام السلطان يعقوب المنصور الموحدي، وغير ذلك مما نقل عن "أهل العلم باللسان اللطيني"[76]. ناهيك عما توارثته الأجيال من نقول كتابية وشفاهية عن "اللسان اللطيني"[77]. كما ظل الإخباريون إلى حدود القرن الخامس الهجري وطوال

القرون اللاحقة يتناقلون ما "وقع في تواريخ العجم القديمة"[78] في مصنفاهم، ويباشرون الاقتباس من "الكتب المؤرخة للأخبار القديمة"[79]. نذكر من ذلك ما أثبته شيخ مؤرخي الأندلس أبو مروان بن حيان "في المقتبس [عن] رواة العجم"[80]. كما أشار ابن النظام إلى رواية اابن حيان مترجمة باللسان العربي عما "نقله الإخباريون [من] علماء عجم الأندلس"[81]. وثمة روايات منقولة في كتب الفلاحة عن المصادر اللاتينية القديمة[82] أو مبثوثة في متوها بالترجمة من لسان "الروم"[83].

واضح أن استيعاب مضامين التراث العلمي المحفوظ بدور الأرشيف المغربية وإخضاع ما تبقى من نصوصه للفهرسة والتقويم والنقد، يفتح آفاقا غير منتظرة أمام البحث العلمي في تاريخ الإجتماع اللغوي ببلاد المغرب. فبقدرما يسمح بانتشال جزء هام من مكونات اللسان المغربي الأمازيغي والعجمي الأندلسي، بقدرما يوفر إمكانيات معاينة التطور اللغوي أثناء قرون عز العطاء الحضاري بالغرب الإسلامي[84]. إذ تمكنت العربية الفصحى بفضل اختضاها للموروث العلمي الإغريقي واللاتيني والأمازيغي والعجمي والفارسي والهندي والسرياني والعبري إلى غير ذلك من الروافد اللغوية والحضارية القديمة من تبوأ مركز الصدارة، باعتبارها اللغة العالمة لكافة شعوب المعمور. وهو ما لم تتمكن كافة لغات الوطنيات المعاصرة من تحقيقه، بما يستحث الهمم على التأمل مليا في هذه الحقيقة التاريخية.

وعلى خلاف القوميات العرقية والوطنيات المغلقة التي تمخضت عن حركات الاستقلال بأروبا الغربية خلال العصر الحديث، شكلت العربية الفصحى طوال قرون عز العطاء الحضاري مجالا رحبا للثقافة والعلوم، وأداة لتدبير الخطط والدواوين، لما يند عن الحصر من الأمم والشعوب. وهو ما تسعى المجموعات الاقتصادية الكبرى لتحقيقه اليوم. إلا أن النخب المنفعلة بالأقطار العربية المأخوذة بهوس تقليد الغير، لا تتورع عن التفريط في الموروث مشرأبة الأنظار إلى هوية الأخر دون أن تفلح بحكم نواميس الخلق من اكتساها، فتظل في حيص بيص.

الهوامش:

1 لمزيد من التفاصيل عن المكتبات المغربية، أنظر: *BINBINE, A.Ch, Histoire des bibliothèques au Maroc,* Publications de la Faculté des Lettres Rabat, 1992.

2 محمد المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1991.

3 صاعد الأندلسي، طبقات الأمم (=طبقات الأمم)، تحقيق حياة بوعلوان، بيروت، 1985، 163.

4 عن دخول الطباعة الحجرية إلى المغرب وحجم ما نشرته من التراث المخطوط، راجع: محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، الرباط 1973 وكذلك فوزي عبد الرزاق، المطبوعات الحجرية في المغرب، الرباط 1989.

5 محمد المنوني، تقنيات وإعداد المخطوط المغربي، ضمن المخطوط العربي وعلم المخطوطات، تنسيق أحمد شوقي بنبين، منشورات كلية الآداب الرباط، 1994. راجع أيضا أحمد شوقي بنبين، دراسات في علم المخطوطات والبحث البيليوغرافي، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1993.

6 نفس المصدر والصفحة.

7 راجع: أحمد الطاهري، عامة قرطبة في عصر الخلافة، دراسة في التاريخ الاجتماعي الأندلسي، الرباط 1989، 206ـــ 208. أنظر كذلك: دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس عصري الخلافة والطوائف (=دراسات ومباحث)، الدار البيضاء 1993، 119ـــ121.

8 الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، 1952، 13.

9 المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (=النفح)، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1968، ج1، 395.

10 ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، بيروت، 1983، 100.

11 طبقات الأطباء، 113.

12 طبقات الأمم، 163ـــ164.

13 ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س كولان/ ليفي بروفنسال، بيروت 1980، ج2، 292.

14 ابن أبي أصيبعة، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء (=طبقات الأطباء)، تحقيق نزار رضا، بيروت، 1965، 523.

15 لمزيد من التفصيل عن خصائص هذا الصنف من الفقهاء راجع: أحمد الطاهري،"المناخ الثقافي والتطورات الفقهية بالأندلس خلال عصر الطوائف" ضمن دراسات ومباحث، 125ـــ 142.

16 النفح، ج1، 221. راجع أيضا: الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، القاهرة 1967، 119ـــ120.

17 طبقات الأمم، 163.

18 خصص العلامة محمد المنوني رحمة الله عليه عملا رائدا في هذا الحقل بعنوان: تاريخ الطب العربي بالمغرب، مخطوط خاص في مكتبة العلامة محمد المنوني وبخط يده.

19 أنظر: عبد العزيز بنعبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، المطبعة الاقتصادية، 1960، 95ـــ 103.

20 علوش، ي.س. وعبد الله الرجراجي، فهرس المخطوطات العربية، ج2، الرباط، 1958، 334ـــ 368.

21 محمد العربي الخطابي، فهارس الخزانة الملكية، ج2، الرباط، 1982.

22 أحمد الطاهري، الطب والفلاحة في الأندلس بين الحكمة والتجريب: مساهمة في التأصيل التاريخي للتراث العلمي بالغرب الإسلامي (=الطب والفلاحة)، الدار البيضاء، 1997.

23 أحمد الطاهري بالإشتراك، فهرس كتب الطب والفلاحة والنبات المحفوظة بالمكتبة العامة بالرباط، الدار البيضاء، 2002.

24 اختصارات من كتاب الفلاحة، وضع ابن ليون التجيبي (=اختصارات من كتاب الفلاحة)، دراسة وتحقيق أحمد الطاهري، الدار البيضاء، 2001.

25 وهو المشروع الذي يوجد حاليا في طور الإنجاز من طرف مجموعة البحث في الأرشيف المغربي الأندلسي ضمن مشاريع المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني بالرباط. تحت عنوان: "كتب الطب والفلاحة والنبات المحفوظة بالمكتبة الحسنية بالرباط والأسكوريال بإسبانيا".

26 ابن وحشية، الفلاحة النبطية (=الفلاحة النبطية)، تحقيق توفيق فهد، دمشق، ج1، 8.

27 نفسه، ج1، [م30].

28 نفسه، ج1، [م35].

29 لمزيد من التفصيل بهذا الخصوص راجع الركن الذي خصصناه لإحصاء بعض الأصول المفقودة من التراث الفلاحي الأندلسي، ضمن: اختصارات من كتاب الفلاحة، 23ـــ 35.

30 طبقات الأمم، 164ـــ 165.

31 لمزيد من التفصيل بهذا الخصوص راجع: الطب والفلاحة، 94.

32 أبو الخير الإشبيلي، كتاب الفلاحة (فلاحة أبو الخير)، نشر التهامي الجعفري، فاس، 1357 هجرية، 5. لمزيد من التفصيل عن هذا الكتاب ومؤلفه، أنظر: CARRA DE VAUX, B., “L´invention de l´hydraulis”, *Revue des Etudes Greques* XXI, 1908, 332-40.

33 البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (=مسالك البكري)، نشر دي سلان، باريس 1965، 102.

34 ابن غالب، تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، نشر لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، م1 ج2، القاهرة 1955، 281؛ أنظر كذلك: النفح، ج3، 151.

35 فلاحة أبو الخير، 5.

36 أنظر: MILLAS VALLICROSA, J.M. "la traducción castellana del tratado de agricultura de Ibn Wāfid, *Al-Andalus*, vol. VIII, Madrid, 1934, p. 296

37 كتاب الفلاحة، نشر خوصي ماريا ميلاس باليكروصا ومحمد عزيمان، تطوان 1955، 52 و 175.

38 كتاب المقنع في علم الفلاحة (= المقنع في الفلاحة)، مخطوط المكتبة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط، رقم 69، 3.

39 نزهة البستان، 40.

40 الطغنري، كتاب زهر البستان ونزهة الأذهان (=زهر البستان)، مخطوط المكتبة العامة بالرباط، رقم د 1260، صفحات 34، 43، 44.

41 أنظر كتاب مجموع في الفلاحة (=مجموع في الفلاحة)، مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم د 1410، ورقة 117 وجه.

42 زهر البستان، 56؛ مجموع في الفلاحة، ورقة 107 وجه.

43 مجموع في الفلاحة، ورقة 115 وجه.

44 الفلاحة النبطية، ج1، 8.

45 نفسه، ج1، 9.

46 نفس المصدر والصفحة.

47 أبو مسلمة المجريطي، غاية الحكيم في الأرصاد الفلكية والطلاسم الروحية، نشر محمود نصار، طبع في لبنان، بدون تاريخ، 44.

48 ويتعلق الأمر بكتاب: حفريات في أصول مفقودة من تاريخ المغرب خلال القرون الهجرية الأولي، قيد النشر.

49 المقنع في الفلاحة،3، 102؛ زهر البستان،55، 220؛ كتاب في علم الفلاحة، مخطوط المكتبة الحسنية، الرباط رقم 6342، 58؛ مجموع في الفلاحة، ورقة 147 وجه. لمزيد من التفصيل راجع: الطب والفلاحة، 96ـ97.

50 الواقدي، فتوح إفريقية، تونس، 1966، ج1، 7.

51 نفسه، ج1، 36.

52 اختصارات من كتاب الفلاحة، 302.

53 نفسه، 293.

54 نفسه، 294.

55 نفسه، 298.

56 نفسه، 302.

57 فقد تم التعبير عند نقع الكتان إذا بلغ حالة النقاوة بعبارة: "قرب للخروج" أنظر: نفسه، 305. ويتعلق الأمر بترجمة حرفية لعبارة أمازيغية للدلالة عن نقاء المغسولات إذ يقال: /إفغ/ أي خرج بمعنى أصبح نقيا أو /إقرب أذفغ/ أي اقترب من النقاوة.

58 ابو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق محمد العربي الخطابي، الرباط 1990، ق2، 641.

59 نفسه، ق 1، 39.

60 الوزير الغساني، ريحانة الجيوب في خواص العقاقير والعشوب، مخطوط المكتبة العامة الرباط، رقم 162، 83.

61 ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن 1938، 82.

62 كتاب في المفردات الطبية، مخطوط المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، رقم 826، ضمن مجموع، 162.

63 مخطوط المكتبة العامة بالرباطن رقم د 2389، 1.

64 محمد بن علي البعقيلي، أدوية مجربة، مخطوط المكتبة العامة بالرباط، ضمن مخطوط مجموع رقم ج 167، صفحة 43.

65 نفسه، 22.

66 مخطوط المكتبة العامة بالرباط مجهول المؤلف، ويقع في 204 صفحات. رقم د 2389.

67 تأليف عبد الغني ابن أبي سرحان بن مسعود الزموري المتطبب، مخطوط المكتبة العامة بالرباط، رقم د 1363 (ورقات 186 ظهر ـــ200 ظهر)

68 راجع: البعد الفلسفي والممارسة التجريبية في الصناعة الطبية، ضمن الطب والفلاحة، 57ـــ59.

69 طبقات الأطباء، 98.

70 طبقات الأمم، 162.

71 طلقات الأمم، 186؛ طبقات الأطباء، 92.

72 اللمودي، كتاب تحقيق المباحث الطبية في المسائل الخلافية، مكتبة الأسكوريال، رقم 892، ورقة 46.

73 طبقات الأطباء، 93، 96، 97.

74 مخطوط المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، رقم 592 (ضمن مجموع)

75 مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرين، الرباط 1984، 31.

76 البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1968، 107.

77 العذري، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك (=ترصيع الأخبار)، تحقيق عبد العزيز الأهواني، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد 1965، 95.

78 النفح، ج1، 139.

79 ترصيع الأخبار، 97.

80 أنظر: النفح، ج1، 131.

81 النفح، ج1، 133.

82 ابن العوام، كتاب الفلاحة، تحقيق بنكيري، المطبعة الملكية، مدريد 1802، 240ـ 241.

83 زهر البستان، 80.

84 عن بعض مظاهر الوضعية اللغوية بالمغرب والأندلس راجع أحمد الطاهري: أدب لحن العوام بالمغرب والأندلس، ضمن دراسات ومباحث، 19ـ 33.

أهمية المخطوط في الكشف عن جوانب غفل من تاريخ التربية والتعليم في تاريخ المغرب المعاصر
(مخطوط كناشة المعارف لمحمد بن الحسن الحجوي أنموذجا)

د.محمد اليزيدي جامعة فاس

تكتسي دراسة المخطوطات أهمية قصوى في الكشف عن العديد من مناطق الظل وملئ العديد من الفراغات التي تعتري تاريخ المغرب، غير أن الملاحظ خلال السنوات الأخيرة ظهور موجة من الباحثين بدأت تدير ظهرها تدريجيا للمخطوطات واتجهت لاعتماد الوثيقة الأجنبية مصدرا أساسيا لكتابة تاريخ المغرب.

وفي هذا الصدد يشكل المتن الذي تركه الفقيه محمد بن الحسن الحجوي مصدرا هاما ورافدا أساسيا لكتابة تاريخ المغرب المعاصر وبالأخص ما يتعلق منه بتاريخ التربية والتعليم.

- ترجمة الحجوي

محمد بن الحسن بن العربي بن محمد بن أبي يعزى بن عبد السلام بن الحسن الحجوي التعالبي الزينبي، ونسبة الثعالبي إلى الثعالبة بوطن الجزائر والجعفري نسبة إلى جعفر بن أبي طالب والزينبي نسبة إلى زينب بنت علي بن أبي طالب وفاطمة البتول ولد بفاس في أسرة عالمة منفتحة 4 رمضان 1291 هـ / 22 ديسمبر 1874 في الدار التي أسسها والده بكرنيز ، وفي سن السادسة عشر أي سنة 1307 التحق الحجوي بجامعة القرويين ودرس على شيوخها العلوم النقلية والعقلية ومن الذين لازم الحجوي دروسهم لزوم الظل ، نذكر الفقيه سيدي محمد بن التهامي الوزاني وسيدي الحاج محمد فتحا بن محمد بن عبد السلام حنون وسيدي محمد فتحا القادري وسيدي أحمد

بن الخياط وسيدي الحاج أحمد بن سودة وسيدي عبد السلام الهواري وسيدي الكامل المراني وسيدي أحمد بن الجيلاني، كما أخذ بعض العلوم الرياضية عن العلامة سيدي إدريس بن الطائع البلغيتي آخر مهرة التعاليم بفاس[1]. كما استفاد الحجوي من علماء خارج المغرب ومنهم سالم بوحاجب مفتي المالكية بتونس وشيخ الجماعة بها[2] ومحمد بن صالح الجودي مفتي القيروان كما أخذ عن أبي بكر شعيب بن علي الجليلي قاضي تلمسان ومحمد بن أبي شنب من الجزائر[3] وفي سنة 1316 التحق بالتدريس بجامعة القرويين بعدما أذن له العديد من شيوخه ولم تكن القرويين إذ ذاك تعرف امتحانا للالتحاق بالتدريس وإنما كان يقوم مقامه إذن شيوخها الكبار لتلميذهم في التدريس ، ثم تتوزع الشهرة والإقبال بقدر طول الباع[4].

لم يكن الحجوي متفرجا سلبيا عن الفترة التي عايشها حيث كان ممثلا فاعلا فيها بحكم المناصب العديدة التي شغلها[5] ، حيث التحق بالمخزن العزيزي ووظف عدلا في صوائر دار المخزن بمكناس سنة 1900 ثم عين بعد ذلك أمينا لديوانة وجدة سنة 1902 وقد كلف بهذه المهمة في ظروف صعبة حيث كانت المنطقة كلها تعاني من تحرشات الثائر أبي حمارة، واستطاع الحجوي بحكم وظيفته وموقعه معاينة ثورة أبي حمارة التي دون حولها ملاحظات ثاقبة ، إذ يعتبر مخطوطه " انتحار المغرب بيد ثواره" أهم مصدر لدراسة تاريخ حركة الثائر الجيلالي بن إدريس الزرهوني[6].

واعترافا له بكفاءته وحنكته عينه المخزن موظفا في الجيش، لقد أظهر الحجوي كفاءات عالية في التنظيم والضبط كما يتضح من الطريقة التي عالج بها الذخائر الحربية والسلاح الذي كانت تتوصل به منطقة وجدة وكان يباع جهرا للثائر بوحمارة ليستخدمه ضد المخزن، ونتيجة لاجتهاد وإخلاص الحجوي كافأه السلطان بترقيته وجعله نائبه الرسمي في الحدود المغربية الجزائرية ولعل معرفة الحجوي ببيئة الحدود وبأمور الجزائر هي التي جعلت السلطان يسند إليه مع وظائفه المتقدمة السفارة عن

المغرب بالجزائر وقد دون ما عاينه في هذه الرحلة في " مسامرة الزائر بمشاهدة الجزائر[7].

وكانت للحجوي علاقات ببعض الأوساط الفرنسية بالجزائر بالإضافة الى إقدامه على العديد من الأمور التي عرضته للانتقاد و بالأخص استدعاء ه من قبل المجلس العلمي بتلمسان في أواخر شهر صفر 1323 ـ 7 ماي 1905 لحضور حفل تدشين المدرسة التي شيدتها فرنسا لأبناء المسلمين بتلمسان، وقد دافع الحجوي عن نفسه مبررا حضوره قائلا : " وحيث أن هذا الاحتفال بالعلم وتنويه بشأنه وخصوصا العلم الإسلامي ، وبمناسبة قدوم الوالي العام قرب حداداتنا تعين علي لقاؤه والترحيب به" [8]، فاستعفي الحجوي من وظائفه في جمادى الأولى سنة 1905 بعدما ألح على ذلك واستكثر الطلب، وبعد الإعفاء ، صدر له الأمر بالتعجيل بالقدوم إلى فاس من أجل الإلتحاق بالوفد الذي سيتجه للجزيرة الخضراء.

غير أن الحجوي اعتذر عن المشاركة في مؤتمر الجزيرة سنة 1906 مبررا ذلك بمرضه والحقيقة أنه تخلى عن المشاركة لوعيه بعدم فعاليتها، فهو لا يتقن أي لغة أجنبية وبالتالي فإن وجوده بالمؤتمر لا فائدة منه ويتضح ذلك من خلال كلامه مع وزير الخارجية عبد الكريم بن سليمان الذي الح عليه في الذهاب فأجابه الحجوي قائلا:"هل لكم ترجمان بارع يعرف الفرنسية مؤتمن ، فها أنا موجود أكون في أقل وظيف في المؤتمر فقال الوزير لا فقال له : إذا كان القفيه الجباص يذهب لمعرفته باللسان الأنجليزي . فها أنا موجود فقال له : لا لأن هناك مانعا فقال له الحجوي : في ذهابنا نكون من جملة البكم فغيري أفضل[9].

- تعيين الحجوي مندوبا للصدارة العظمى في العلوم والمعارف:

طبعت شخصية الحجوي وجهوده التعليمية منصب مندوبية الصدارة العظمى في العلوم والمعارف طيلة عهد الحماية. فعلى الرغم من إشراف بعض الشخصيات

الأخرى على المندوبية أمثال بركاش، ومحمد بن عبد الواحد، فإن تأثيرهم ظل محدودا ولم يتجاوز أبدا الدور الريادي للحجوي الذي لا زالت أفكاره وآراءه مثار نقاش وجدال حتى الوقت الراهن.

غير أن اهتمام الدارسين بالحجوي ومشاريعه الإصلاحية ، قابله نوع من التجاهل لموقف الحماية من المندوبية ومن التضييق والتجاوز الذي كان يعانيه الحجوي من قبل إدارة التعليم التي تطاولت مرارا على بعض الاختصاصات المنوطة أصلا بالمندوبية. وقبل التطرق لموضوع مندوبية المعارف ارتأينا إلقاء نظرة جد موجزة عن الخطوط الكبرى الموجهة لمشروع الحجوي التعليمي.

إن تناول آراء الحجوي الإصلاحية ودراسة مختلف مواقفه سواء المتعلق منها بمؤسسة الحماية أو الجهاز المخزني ليس بالأمر السهل أو الهين، فالاختلاف يكاد يكون كبيرا في تقييم أعماله التي ظلت لفترة طويلة في طي التناسي والتجاوز، ومرد ذلك يرجع أساسا إلى المواقف التي تم اتخاذها غداة الاستقلال من الشخصيات المهادنة للاستعمار والمتعاونة معه، فالحجوي كان من التيار الذي قبل التعاون مع الحماية حيث اعتبرها ضرورة حاصلة بشأن انحطاط المجتمع المغربي : فإذا استعمر المغرب فلأنه قابل للاستعمار، ومن ثم فالمرض يكمن في الذات والمجتمع أولا "[10].

لقد كان الحجوي على دراية بما آلت إليه أوضاع المغرب من ضعف ووهن مقارنة مع الآخر ومعه آمن بضرورة المضي في المشروع الإصلاحي والتركيز على التربية والتعليم، حيث علق آمالا كبيرة على فرنسا للقيام بإصلاحات في هذا المجال. وكان لموقفه هذا أثره الكبير في تعريضه للإدانة ، وتجاهل وطمس إنتاجه الفكري الذي يفوق مائة مؤلف ما بين مخطوط ومطبوع وفي مقدمتها كتابه :" الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي "و" مستقبل تجارة المغرب" و" النظام في الإسلام" وغيرها من المتون التي تم تجاهلها ومحاذرها والتي لا تستقيم مقاربة الفكر المغربي الحديث دون استحضارها، أكثر من ذلك يتساءل الأستاذ عثمان أشقرى" هل يمكن دراسة الفكر

الوطني عامة وطرحه لمسألة التحديث بدون موقعة الحجوي في سياق هذا المتن الفكري الشامل" [11].

والأكيد أنه لا مناص للباحث في تاريخ المغرب بشكل عام أو فترة الحماية بشكل خاص من الاعتماد على هذا الجزء التأليفي الكبير من حيث الحجم والمهم من حيث الطرح، خصوصا إذا تعلق الأمر بميدان التربية والتعليم حيث برز اسم الحجوي ليس فقط كموظف مخزني شغل منصب مندوب الصدارة العظمى في العلوم والمعارف ولكن بأطروحاته وأفكاره التحديثية التي أكد من خلالها أن النهوض بالمغرب لن يتأتى بمجابهة الحماية، ولكن بالمضي قدما في المشروع الإصلاحي.

وللوقوف على مختلف آراء الحجوي التربوية ارتأينا الاعتماد أساسا مخطوطه كناشة بنيقة المعارف خصوصا و أنها اشتملت على التصورات الاولى و الاقتراحات التعليمية التي نادى بها الحجوي ، وهذا لا يعني تغييب باقي الإنتاج الفكري للرجل، إذ سنعمد للرجوع إلى العديد من مخطوطاته ومحاضراته وبالأخص تلك التي تناولت التعليم ومن بينها :

- تقرير عن المعارف بالمغرب م.خ.ع ح 129 ضمن مجموع .
- إصلاح التعليم بالقرويين م.خ.ع 129 ح ضمن مجموع.
- إصلاح التعليم العربي م.خ.ع. ح 115.
- تعليم البنات المسلمات م.خ.ع.ح 115.
- تعليم الفتيات لا سفور المرأة م.خ.ع.ح 237.
- المعارف في المغرب وجهود الحكومة م.خ.ع.ح 199 و ح 152.

لم يكن بإمكان إدارة الحماية ممثلة في جهازها المشرف على التعليم القيام بفرض وصيتها المباشرة على المؤسسات التعليمية المغربية، وخاصة جامعة

القرويين والكتاتيب المنتشرة في جميع أنحاء المغرب، فما كان منها إلا أن اختلقت منصب مندوب الصدر الأعظم في العلوم والمعارف لإضفاء الشرعية المخزنية على مشروعها التعليمي، ولم يكن غريبا أن يسند هذا المنصب لداعية التحديث الفقيه الحجوي الذي يقول عن هذا المنصب : " مهمة مندوبية المعارف إيجاد ثقافة تجمع بين الثقافة الأهلية في المواد الدينية والأدبية، وبين الثقافة الجديدة المادية التي أدخلتها فرنسا لهذه البلاد"[12]، ولم يتوان الحجوي في دعوة المغاربة للتعاون مع فرنسا ومصادقتها والاتحاد معها حتى يستطيع المغرب النهوض من كبوته مؤكدا على ضرورة تحقيق وحدة الفكر والثقافة والتفكير، وهو ما يدفعنا للتساؤل التالي: هل غابت قدرة الفقيه السلفي ونباهة التاجر الفاسي وحالت دون إدراك الحجوي لنوايا المشروع التعليمي الفرنسي بالمغرب؟

إن أهمية هذا السؤال تكتسي مشروعيتها من الطريقة التي سيتحدث بها الحجوي نفسه عن أهداف التعليم الاستعماري حيث يقول : " إن الدولة الحامية فكرت قبل كل شيء فيما تحتل به قلوب المغاربة بعد احتلال أرضهم، فوجدت نشر التعليم بين جميع طبقات الأمة... "[13]

كان للمنحى الإصلاحي التعليمي لدى الحجوي وموقفه من إدارة الحماية أثره الكبير في تعيينه على رأس مندوبية الصدارة العظمى في العلوم والمعارف سنة 1912 في حين يشير معروف الدفالي الى أن ليوطي كان يطمح إلى إناطة هذا المنصب للقاضي محمد بلعربي العلوي نظرا للموقع الذي كان يحتله داخل القرويين[14] وعلى كل حال لم يدم مقام الحجوي طويلا على رأس المندوبية، إذ سرعان ما تم عزله سنة 1914، وأنيط هذا المنصب بوزير العدلية آنذاك الشيخ أبي شعيب الدكالي، حيث كان لفشل المشاريع الإصلاحية الأولى بالقرويين أثره الكبير في هذا العزل الذي لم يدم طويلا إذ سرعان ما تمت إعادة توليته ابتداء من سنة 1921 ليستمر في مهامه إلى حدود سنة 1939، أما الفترة الفاصلة بين 1914 و 1921، فيقول عنها الحجوي "وأما ما بين التولية

الأولى والثانية فلم تكن إدارة المعارف تستغني عن إعانتي ومشورتي حيث كنت إذاك مستشار الدولة"[15].

انخرط الحجوي في الدعوة إلى إصلاح التعليم منذ السنة الأولى من توقيع عقد الحماية بعدما عاين عن كتب ما آل إليه وضع التعليم من تأخر وانحطاط وغياب تام للمواد العصرية ، " فجل الدروس تذكر فيها مباحثات لفظية والمناقشات حتى إن الطالب يذهب لقراءة الفقه والنحو.. الواهية المتعلقة بألفاظ المختصر فيرجع خاوي الوطاب منهما ليس في ذهنه سوى تصحيح لفظه من المختصر أو بيت بحث فيه أبو حيان مع ابن مالك"[16]، ومن ثمة دعا الحجوي فرنسا إلى إحداث تعليم عصري لتنوير أذهان المغاربة، ونظرا لطول مدة بناء المدارس الجديدة وكثرة الإنفاق عليها اقترح الانطلاق مما هو موجود وترميم المدرسات الموجودة بفاس وعلى رأسها العنانية وباب الجيسة والسبعيين ومدرسة فاس الجديد وتحويلها إلى مدارس عصرية يستقدم لها أساتذة من تونس ليجعلوا منها مؤسسات على شق الخلدونية" لتدرس فيها العلوم العصرية النافعة من حساب وجبر وهندسة وجغرافيا وكيميا وطب وحقوق وتاريخ وتجارة وزراعة" [17] ولم تفت الحجوي الدعوة إلى ضرورة اختيار النافع من العلوم الكفيل بتحقيق المصلحة وعدم الانسياق والأخذ بكل ما يتم تقديمه ." فالمغرب بالنسبة للعلوم العصرية كإنسان جائع بلغ سن الجهد مبلغ الموت فأي طعام قدمته إليه استلذه وانتعش به كيفما كان الطعام وعلى كل حال أمكن، غير أن المقدم للطعام إن كان أبا شفوقا فلأنه يتخير الطعام النافع وهكذا رجاؤنا" [18] وهو تلميح مباشر للآمال التي كان يعقدها الحجوي على فرنسا، لإدخال علوم عصرية تعود بالخير والنفع على المغاربة.

ولقيت الدراسة في الكتاتيب القرآنية نقدا لاذعا من قبل داعية التنوير، لكون التلميذ لا يحصل فيها سوى حفظ القرآن من غير فهم ولو لمفرداته فيكون كما قال تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) ، فيخرج التلميذ منها بسيطا بحيث لا يحصل على أدب أو علم و لا صناعة و لا شيء فيحتاج

إلى عمر جديد يدخل به المدرسة الابتدائية[19]، ناهيك عن معاناته من الدل والهوان والضغط الذي يتعرض له سواء من قبل الآباء أو بعض الأساتذة، ومن ثمة دعا إلى إصلاح هذه المكاتب وتوسعتها وتقليل عدد التلاميذ بها تفاديا للتكدس المضر بصحة التلاميذ وبالقدرة على التحصيل، كما اقترح برنامجا دراسيا لهذه المؤسسات حدده في " كل يوم ساعتين في الصباح وساعتين مساء، ففي الصباح يتلى عليهم شيئا من آداب الاجتماع والأكل والشرب والنظافة وطاعة الوالدين وفي المساء يفسر لهم ما قرؤوه في ألواح ذلك اليوم من القرآن ... والصدق وبعض مبادئ النحو الضرورية والتوحيد وأحكام الوضوء والصلاة"[20]، كما ألزم المؤدبين والتلاميذ على حد سواء بالمداومة على الحضور ومتابعة الدروس.

بالعودة إلى مخطوط الحجوي فنجده يتكون من 278 ورقة مكتوب بخط مغربي واضح و هو غني بتقارير وتصورات الحجوي لميدان التربية والتعليم بالمغرب ما بين1912و 1956،و قد اقتصرنا خلال هذه المداخلة التركيز على العناصر التالية:

- المناهج التعليمية:

تنفرد كناشة المعارف بوصف دقيق لمختلف البرامج التي سطرها الحجوي للمدرسة الإسلامية الفرنسية، إذ لا نكاد نجد نظيرا للمعلومات التي يقدمها إذا ما استثنينا بعض التقارير الفرنسية والتي غالبا ما تصب في خانة انتقاد وتحقير طرق التدريس العقيمة المتبعة من قبل المغاربة، وبالعودة إلى مختلف هذه البرامج نجد الحجوي يركز بداية على التعليم الديني الذي مولده الفقه والتوحيد " ويجدر بالأستاذ أن يراعي في تعليم التوحيد بعينه لصعوبة مسلكه وملاءمته للشبان الكبار فقط، ويضاف إلى علم التوحيد علم الآداب الإسلامية... وتلقى محاضرات أدبية يحضرها أهالي التلاميذ ويوجه إليها جل الاهتمام ويعتني أشد الاعتناء بحمل التلامذة على المحافظة على عوائدهم الخيرة "[21].

أما فيما يخص التاريخ والجغرافيا فنجد الحجوي يدعو التلاميذ المغاربة إلى معرفة تاريخ بلادهم معرفة تامة ومن المهم أيضا أن يدرسوا تاريخ فرنسا وأحوال العالم في سيره بمنهج الفلاح والعمران ويختار أهم أنفع المسائل التاريخية وليدرسوا تاريخ الإسلام لا سيما قبل الفتح العربي إذ كان بين النصارى والمسلمين علائق ومواصلات جمة أحيانا ودية، وليدرسوا تاريخ ظهور الإسلام على يد أستاذ مسلم لا غير يكون من أصدق المسلمين عقيدة وأشدهم تمسكا بالدين وليدرسوا تاريخ فرنسا مآثرها ومقامها المجيد في الدنيا، عادلين عن المسائل الدينية والفلسفية التي يصعب عرضها بدقة. أما الجغرافيا فيكون درسها عمليا فيتعلم التلامذة قراءة خريطة جغرافية ويتخصصون في درس الجغرافية الاقتصادية(...) ووضع بيان في موارد البلاد وحاجاتها وبيان آخر يتعلق بإفريقيا الشمالية وفرنسا ومستعمراتها والعلائق التي يمكن إحداثها بين المغرب وما بين البلدان المنتشر فيها النفوذ الفرنسي.

وتجدر الإشارة هنا إلى سكوت الحجوي وعدم خوضه في الموقف الفرنسي من تدريس مادة التاريخ حيث ارتأوا أنه لا فائدة تجنى من تدريس هذه المادة نظرا للخطر الذي يمكن أن تشكله على التواجد الفرنسي لدا عمدوا إلى حذفها بشكل جذري من المدارس الابتدائية متدرعين في ذلك بالأسباب التالية:

- غياب معلمين أكفاء.
- عدم وجود تلاميذ قادرين على إدراك وفهم مادة التاريخ.
- عدم معرفة التخصص التاريخي الذي ينبغي تدريسه فحقبة ما قبل التاريخ.

" لم نتمكن بعد من معرفتها بشكل عام وتاريخ القرون الوسطى لا فائدة منه أما التاريخ المعاصر الذي يبتدئ من سنة 1789 فيطغى عليه الجانب السياسي ، وهو ما يجب أن نتجنبه لأن التلميذ المغربي غير مهيء بعد لهذا الجدال ، غير أن هذه الحجج لم تكن في الواقع إلا مقدمة ستعمل من خلالها فرنسا على إهمال تاريخ المغرب " فدراسة

تاريخ المغرب كانت تعني الإقرار بتواجد بلد مغربي وأمة مغربية وهذا من شأنه زرع الروح الوطنية التي لم يعرفها المغرب قط" [22]، وامتد هذا المنع ليشمل طلبة القرويين حتى وإن اقتصر الأمر على تداول كتابين أولهما الاستقصا للناصري والذي يقول عنه الفرنسيون " لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من ردود فعل ضد المسيحيين ومستواه جد متواضع و بالتالي سينعكس سلبا على الطلبة من خلال تنمية فكرهم العدائي اتجاه المسيحيين " [23].

أما الكتاب الثاني فهو للمؤرخ والفيلسوف ابن خلدون غير أن ذلك لا يجب أن ينسينا كون المقدمة هي عبارة عن توطئة لتاريخ البربر كما هو موضح في عنوان الكتاب نفسه لذا يتساءل الفرنسيون " عن ما إذا كان توظيف هذا الكتاب في محله... فإذا كان هذا الكتاب بالنسبة لنا نحن الفرنسيين تاريخ وفلسفة، فهو بالنسبة للمغاربـــــة واجهة يطرحون من خلالها المسألة البربرية "[24].

ويبدو من خلال هذا النهج أن فرنسا بدأت تستدرك بعض أخطائها المرتكبة بالجزا ئر خصوصا وأن الشباب الجزائري أضحى يطالب بالمساواة باسم المبادئ الفرنسية نفسها .

- التعليم التجاري:

ودعا الحجوي المغاربة إلى الإقبال على التعليم التجاري " فيوجه اهتمام المعلم إنقاذ التلامذة من العادات القديمة ليسهل لهم العلاقات التجارية المتواصلة بين المغرب والمحلات التجارية الفرنساوية ... ويجدر مطالعة بعض الجرائد العربية التي تخوض في مواضع اقتصادية ومسائل تجارية فيستعين منها التلاميذ ويقرأون فيها عند الاقتضاء مقالات فيبسطون فيها حالة التجارة بالمغرب وتحبيب العموم بها وتعمم الدروس التجارية فيحضروا محاضرات يلقيها ذووا المعرفة والخبرة بهذا الفن "[25].

فالحجوي لا يتصور ارتقاء أمة لا تجارة لها ولا مال، خصوصا بعدما أصبحت التجارة المحلية تعاني من المنافسة وفي ذلك يقول " إن تجارة اليوم والغد غير تجارة الأمس بمراحل... فيلزم (التاجر) أن يغير الأسلوب القديم ويخلع ربقة التقليد المذموم والجمود المشؤوم" [26]، ولن يتأتى ذلك بالأخذ بالمعارف العصرية " اعلم أن أوربا وأمريكا اللتين هما سوق التجارة العصرية وعليها مدارها جعلوا لها مدارس خاصة بها مع أن في كل كلية من كلياتها قسما خاصا بالتجارة [27].

كما يشير الحجوي إلى اهتمام اليهود بعلم التجارة: " فاليهود الساكنين معكم ... تقدموا لأنه قدمهم العلم بالتجارة وأخركم الجهل بعلمها"[28] ولذلك ينتقد الحجوي المغاربة لتفريطهم في التعليم اذ لا يوجد بفاس على كثرة ساكنيه الا اقل من 300 تلميذ في جميع المدارس. وفي حارة اليهود التي هي نحو عشيرتكم عشر أعشار ذلك من التلاميذ ، فلا يمضي زمن يسير حتى يذهبوا بثروة المغرب ومنافعه بفعل ما أحرزوا من علم " .

- في الرياضة الجسدية :

أثار إدراج تدريس بعض المواد الجديدة ومنها التربية البدنية تحفظا كبيرا من لدن الأوساط الإسلامية المغربية خصوصا وأنهم لم يعهدوا بوجود مثل هذه الحصص ضمن البرامج التعليمية وتزايدت مخاوفهم عندما أوكل للجهاز العسكري الفرنسي الإشراف والدعاية لهذه المادة في المؤسسات التعليمية الإسلامية الفرنسية وهو ما اعتبره الآباء تهيئا أوليا لإدماج وإلحاق أبنائهم للخدمة في صفوف الجيش الفرنسي، لهذه الأسباب تأخر ظهور هذه المادة ضمن المقررات الدراسية إلى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى رغم ذلك بقي إقبال المغاربة على ممارسة التربية البدنية محدودا وهو ما حذا بالحجوي إلى تحديد الهدف من ممارسة الرياضة الجسدية وفي ذلك يقول إنها تنحصر بالألعاب البدنية كالرقص والقفز ويراعي المعلم سن التلميذ الصحية ويتجنب الإفراط في التعب المؤدي إلى الإضرار بالصحة لأن شبان المغاربة الأغنياء سريعوا التعب ،

والغرض من الألعاب الرياضية بالمدارس الإسلامية هو ترويض الطباع التي تجعل ترويض الأجسام" [29].

- دعوة الحجوي إلى تعليم الفتاة.

لقد امتلك الحجوي من الجرأة وسعة العلم ما جعله يخوض في قضية لم يسبقه إليها أحد لذا كان أول من كتب وحاضر في الموضوع ودفعه موقفه هذا إلى الاصطدام برجال المؤسسة المخزنية المتشددين في تعلم الفتاة. لقد أقام الحجوي دعوته على مبادئ عمدها الاجتهاد ومصدرها معرفته الفقهية الواسعة، كما يظهر جليا من محاضرته التي ألقاها بتونس سنة 1923 حيث يقول " الموافق لدينا وعوائدنا وقابلية أمتنا أن نربي البنات على تعلم العقائد الدينية والفقه الضروري وآداب الدين وما تيسر من القرآن الكريم وهذا لا يخالف فيه مسلم" [30]ويقول في مسامرة ألقاها براديو المغرب يوم الخميس 19 رمضان المعظم " وتعليمهن من واجبات الدين تعليما يناسب وظيفتهن في المجتمع "[31] ولاقى الحجوي في دعوته هذه معارضة قوية من قبل الصدر الأعظم محمد المقري، إذ يذكر الحجوي في كناشته أنه لما كان يتلو تقريرا عن تعليم الفتيات يعود إلى سنة 1931 " لم يستحسن الصدر الأعظم رعاه الله التعرض للبنات قائلا: تعليمهن ليس برسمي والتقرير أعلاه رسمي وقد قدمت إليكم نسخة منه قبل سرده، فقال تعليم البنات لابد له من قرار أو ظهير ولم يصدر الآن .. قلت إن الواجب يقضي علينا تعليم البنات ولا نتركه لغيرنا من دون مراقبتنا" [32]. ولم يكن هذا الرد ليثني عزيمة الحجوي أو يلجمه، فحرص على دحض رأي معارضيه وإبطال مزاعمهم باستكناه أصول التشريع وبعض مقاصد الشرع ونقد شبهات المنع عند المخالفين " هذا وإني أعلم أن الذين أنكروا علي الحث عل تعليم البنات لهم قصد حسن وغيرة حملتهم على ذلك وقصدهم هو سد الذريعة خوف الوقوع في العار وفي مفاسد ربما تنشأ عن تعلمهن لكني أقول لهم " إن هذا رأي متطرف عن الشريعة الإسلامية في منع النساء من العلم "[33].

إن الزاوية التي كان ينظر منها الحجوي لتعليم الفتاة لم يكن ليتفهمها الوسط المغربي آنذاك لقد كان هدف المندوب المخزني أن لا تتعلم الفتاة المغربية على أيدي الأجانب " لأن الواجب يفرض علينا تعليم البنات ولا نتركه لغيرنا دون مراقبة" [34] لما في ذلك من خطر عليها وعلى المجتمع المغربي حيث يقول الحجوي:"ولعله عن قريب سيجيء يوم نندم فيه غاية الندم على ترقية البنت ونجدها أفلتت من يدنا جاهلة لعلومنا الصالحة لنا فتتعلم علوما لا تليق بنا وتكون أعظم كارثة عاناها المغرب "[35].

وبناء على ذلك رفض الحجوي تعليم الفتاة على الطريقة الأوربية لما في ذلك من مفسدة وآثار وخيمة على المجتمع ، يقول في هذا الصدد:" ... ولا نربي البنت تربية أوروبية ولا نعلمها لغة أجنبية" [36]. ثم يضيف " وإنما المفسدة في تعليمهن تعليما إفرنجيا " [37]. ونجد صدى الرفض ضمن تقارير كناشته حيث يشير " وجدت معلمة تعلمهن الفرانساوية فقلت لها مولانا أيده الله لا عرض له في تعليم بنات إيالته لغة أجنبية أصلا وما رخص في فتح هذه المدرسة إلا ليلا تذهب البنات للمدرسة الإنجليزية.. لأن تعليمهن اللغات الأجنبية غير مفيد لهن " [38]، غير أن موقف الحجوي هذا يطرح أكثر من إشكال خصوصا إذا علمنا إن إحدى بنات الحجوي كانت تتابع دراستها بإحدى الثانويات الخاصة بالفتيات بالرباط حيث الإقبال الكبير على تعلم اللغة الفرنسية.

ومن بين أهم ما تضمنته كناشة الحجوي نسخة من التعليمات والبرامج المحررة عام 1934 لفائدة مدارس البنات المسلمات بالقطر الجزائري ، حيث طلب آنذاك من مندوبته الصدارة العظمى في العلوم والمعارف، ممثلة في شخص الحجوي، الإطلاع على هذا البرنامج ومعرفة كيفية الاستفادة منه مع ضرورة مراعاة الفرق بين حالة المغرب والجزائر أثناء تطبيقه ، وبالعودة إلى البرنامج نجده يتكون من عدة عناصرنختصرها فيما يلي

- **تعليمات عامة.**

وهناك التربية البدنية وليس المراد بها الحركة البدنية بكيفية مخصوصة ... وإنما الهدف منها إيقاظ الضمير لدى الصبيات اللواتي يتعلمن بالمدرسة بحيث يدركن معنى القيمة الشخصية . والقيام بالواجب بتعودهن على سلوك الأخلاق الفاضلة وذلك مثل النظافة وحب النظام والصدق والطاعة والكياسة والتعاون على البر والرصانة ... وهذه التربية يشرع فيها في القسم التحضيري وفي القسم الابتدائي حيث تكون الصبيات قد شعرن بمعنى الأخلاق الفاضلة . ويتجنب في التعلم حفظ الدروس المنحصرة في التربية بل الأولى هو ذكر بعض أمثال وجيزة تكون سهلة الإدراك .

- التربية المترلية: وهدفها " جعل المدرسة وسيطة لتحسين الحياة العائلية، فلذلك تكون الدراسة والمبادئ مقتصرة على بيان ما لربة المترل وأم الأولاد من الواجبات وتدريب البنات على ذلك ... بحيث نعتبر المدرسة كالدار يتعلم فيها البنات كيفية تنسيق الأثاث واختيار الألوان.

- **الصنعة اليدوية:**

اشتمل البرنامج أيضا على تفصيل دقيق لما يجب أن يدرس في القسم الابتدائي (التربية المترلية، تغذية الفكر، مبادئ النحو) والقسم المتوسط. وبعد الإطلاع على هذا البرنامج أبدى الحجوي العديد من الملاحظات نجملها في النقط الآتية:

- لابد لكل مدرسة من معلمة تعلم القرآن العظيم تعليما جديا وما من مدرسة في المغرب إلا ويطلب ذلك آباء التلاميذ بالحاح لأن القرآن جامع الأخلاق الفاضلة والدين والأدب وغير ذلك، ولا يتم توظيف المعلمة إلا بمحضر بعض من طلبة المدينة التي بها المدرسة ومندوب المعارف أو من ينوب عنهم حفظا لحق جلالة السلطان الذي له الإشراف على أمور التعليم وله النظر الخاص في أمور الدين ولا ينبغي أن ينظر في ذلك على نظر جمعية قدماء التلاميذ، بل هذا الحق لامير

المومنين[39] و معلوم أن جمعية قدماء تلاميذ الثانويات وجهت انتقادات كثيرة لمدارس الفتيات وعبرت عن رغبتها في تجاوز مدرسة نسج الزرابي نحو مدارس حقيقية حيث قادت جمعية قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس حملة لإنشاء مدارس الفتيات واقترحت وجود الفقيه بها وهو ما كانت ترفضه إدارة التعليم بشدة، إذ لم يتمكن الرجل (المدرس) من ولوج مؤسسة خاصة بالفتيات إلا في حدود سنة 1942 وذلك عندما توفيت إحدى المدرسات بسلا [40].

– تعليم الكتابة والقراءة العربية تكون لزومية في مدارس البناتوتكونبإتقان وتكون بطريقة فنية تسهيلية بحيث تتعلم البنت ذلك في مدة وجيزة .

– فصل التربية الأدبية والرياضية من المنشور.

– لابد من مفتش عربي ديني خاص لمدارس البنات التي انشئت في المغرب لتحصيل النتيجة المطلوبة[41]، رغم المجهودات التي بذلت للدفع قديما بتعليم الفتاة، فلقد تأخر ظهور برنامج خاص بمدارس الفتيات ، وكان ضروريا الانتظار إلى سنة 1943 حيث تم إقرار تشريع خاص بهذا الشأن ، بعدما شرع في تداوله ونقاشه منذ سنة 1939.

إن التطور الذي عرفه تعليم الفتاة ما بين دعوة الحجوي المشروطة في بداية العشرينات وما واكب ذلك من سوء فهم وتغيير للعادات وإقبال عدد كبير من الفتيات على التعليم وانخراط بعضهن في سلك التعليم الأوروبي كل ذلك جعل الحجوي يتناول تعليم الفتاة في إطار أعم وأشمل من خلال محاضرته " تعليم الفتاة لاسفور المرأة والتي اعتبرت انكفاءا للحجوي نحو التقليد وتغليب كفة الحجوي المحافظ على كفة الحجوي الليبرالي " فهو لم يعد ذلك الرجل الجريئ الذي ينادي بحرية المرأة بل أصبح ميالا إلى اعتماد المبدأ الفقهي القائل بسد الذريعة وذرىء المفسدة " [42]، والحال أن دعوة الحجوي لم تكن تتجاوز إطار تعليم الفتاة إلى تحررها فتلك قضية

أخرى مخالفة صدر فيها الحجوي عن رأي سلفي واضح ومتشدد أكثر من ذلك اتخذ الحجوي موقفا واضحا من التحرر قائلا : " نحن لا نرضى بإبدال لقب متدين بمتمدن ولا ما نحن فيه من هناء العيش وراحة الضمير باسم تحرير المرأة، وفي الحقيقة استرقاق الرجل وقلب نظام المجتمع الإسلامي "[43]، لهذا ارتأى الحجوي تحديد سن مغادرة الفتاة للمدرسة في9 سنوات وأن يقتصر تعليمها على المرحلة الابتدائية دون غيرها " أما ما راد على ذلك فلا حاجة لها به أو بالأحرى لا حاجة لنا به "[44]وبرر موقفه هذا بأنه لا يريد للفتاة " أن تكون عالمة ماهرة حقوقية أو تاجرة أو مهندسة، أو كاتبة ولا أن تتولى خطة القضاء أو الإفتاء (...) ولا أن تتربع ي مجلس النواب أو في دست الوزارة(...)فتكشف الحجاب فذلك كله غير موافق لذوقنا ولا تنطبق عليه أصول حياتنا"[45].

لقد ظل الخطاب الإصلاحي في قضية تعليم المرأة متحفظا وحذرا يتردد بين الإقبال والإحجام وبين الإشارة المتطلعة للتغير والجمود المتوجس خيفة من كل تحديث، محكوما في حدوده وآفاقه وأبعاده بشروط فرضتها ظرفية المغرب آنذاك واعتبر مؤشرا دالا على صعوبات التحديث والتغيير عن المجتمع المغربي .

- وضعية المدرسين المغاربة من خلال كناشة الحجوي

لقد كان الحجوي سباقا إلى الدعوة لتحسين الوضعية المالية للمدرسين المغاربة منذ سنة:1925 ، وفي ذلك يقول في تقرير مرفوع لإدارة التعليم " وبعد فاعلم جنابكم أنه تكاثر علينا ورود مكاتب المدرسين الأهالي بطلب الزيادة وصار الراتب المالي لا يفي ولا يغني شيئا في مقاومة الأزمة "[46]، ولم تقتصر دعوة الحجوي على تحسين الوضعية المالية فحسب، بل تعدت ذلك إلى ضرورة منح المدرسين " التسمية الرسمية التي كثيرا ما طلبوها ، نظرا لأقدميتهم في وظيف التعليم بالمدارس، واعلم أن منهم من قضى في هذه الخدمة ما يزيد على سنين12 (...)، وعليه فالمرغوب أن تلاحظوا مطالبهم بمحظ القبول والشفقة(...)حتى إنهم لم يبق عندهم للصبر مجال ومنهم من

صمم بتقديم استعفائه إذا لم يحصل على الكفاية فيما لابد منه من ضروريات المعيشة"[47].

لقد جسدت كناشة الحجوي بجلاء وضعية المدرس المغربي، بمختلف مؤسسات التعليم التي أحدثتها الحماية، حيث المعاناة والحرمان، ذلك أن المدرس المغربي كان محروما من حق التعويضات العائلية، فغالبا ما كانت سلطات الحماية تتخذ من عدم تواجد نظام الحالة المدنية بالمغرب سببا في منع الأطر المحلية العاملة سواء في السلك الابتدائي أو الثانوي من حقوقها المالية، وفي هذا الصدد طالب المدرسون المغاربة تدخل الصدر الأعظم لمنحهم التعويضات اللازمة ، وطالبوه بإحداث نظام الحالة المدنية أو ما سموه " بسجل تنظيم حقوق المرء في عائلته" ، مشيرين في نفس الوقت إلى خلو الشريعة من أي معارضة في إحداث هذا النوع من التشريع ما دام سيساعد على نيل حقوق التعويضات إسوة بالمدرسين الفرنسيين الذين كانت تصل مبالغ تعويضاتهم إلى حوالي 7740 ف. في حين كانت أجرة المدرسين ومعلمي القرآن تتراوح ما بين 330 و 660 فرنك لمن جاوز العشرين في وظيفته ".[48]

وما دمنا نتحدث عن المدرسين، نشير إلى أن كناشة الحجوي تزخر بالعديد من الانتقادات التي كان يتم توجيهها لهم ومنها:

* إن كثيرا من المعلمين يرشحون لوظائف التعليم وليست بيدهم شهادات تؤهلهم لذلك.

* توظيف النسوة الفرنسويات في تعليم أولاد المسلمين الذين يتطلب تعليمهم شيئا من الصرامة والنسوة رفيقات الطبع سيما من تجهل اللغة العربية منهن[49].

غير أن الحجوي لا يشاطر أصحاب هذا المنحى رأيهم ، وأما نظري في توظيف النسوة فانتقادهم على إطلاقه غير سديد فإن توظيفهن في تعليم البنات في ديار

الصناعة ضروري وله نتائج ظاهرة وكذا توظيفهن في تعليم الأولاد الصغار الذين يكونون في السنة الأولى لا بأس به إذا كانت المرأة تحسن شيئا من العربية[50].

ولتجاوز هذا الخلل اقترح الحجوي"إدخال نظام متين على القسم الموجود في المدرسة الثانوية الرباطية الذي يتخرج منه المدرسون وزيادة عدد تلاميذها وتنظيم واختيار معلمين ذوي كفاءة للتعليم بهذا القسم... فانعدام معلمين أهليين أكفاء هو من الأسباب الكبرى في عدم نجاح المدارس وإثقال عاتق الميزان بنفقات التعويضات والسفر، وغيرها" [51].

ومعلوم أن الحجوي كان قد اقترح خلق مباراة تحت إشرافه لتوظيف المدرسيين إلا أن مسعاه قوبل بالرفض من قبل جورج هاردي (مدير التعليم العمومي بالمغرب)[52]، فتعيين أي مدرس مغربي كان يخضع منذ البداية لبحث توم به مصلحة الاستعلامات لمعرفة موقفه تجاه المخزن والحماية، ولم يكن هذا التدقيق والتمحيص في اختيار المدرسين المحليين وليد صدفة بل كان نتاج تخوف مسبق بلورته العديد من الأطروحات الاستعمارية التي ذهب بعضها إلى عدم الاعتماد على العنصر المحلي في مجال التعليم نظرا لافتقاده للتكوين البيداغوجي وغالبا ما كان ينظر إليه كعميل لذا " فإن مهام التدريس يجب أن تقتصر على الفرنسيين القادرين على تلقين روح الحضارة الفرنسية ، إن مسألة تعليم الأهالي هي وظيفة سيادة تعود للسيد وللشعب المستعمر"[53].

ومن ثمة لم يكن يسمح للمدرسين المغاربة اقتراح الامتحانات الخاصة بالباكلوريا، وكان عليهم انتظار سنة 1938 ليتدخل مدير معهد الدراسات العليا المغربية لدى قيدوم كلية الآداب ليورد وليسمح للمدرسين المغاربة باقتراح أربعة امتحانات خاصة باللغة العربية لأقسام الباكلوريا.

- موقف الحجوي من الزوايا و الطرقية

رغم ما عرف عن الحجوي من ميل للإصلاح والتطلع للأخذ بالتقنيات الحديثة نجده حريصا على الحفاظ على بعض العوائد السائدة ، وفي هذا الصدد، يشير في كناشته إلى رفضه لطلب تقدم به تلاميذ الثانوية الإسلامية بفاس " يقضي بعدم حصولهم على العطلة بمناسبة موسم المولى إدريس حرصا منهم على العلم، لكن نبهتهم على احترام السلف الصالح... وحضرت دروسا ونبهت المدرسين على نبذ الخلافات المذهبية ولا سيما بين وهابية وطرقية، والتزام التعليم النافع" [54]، خصوصا وأن الفترة تزامنت مع بداية مهاجمة الطرق والزوايا بالمغرب وظهر أول تأليف في الموضوع وكان هو " إظهار الحقيقة في علاج الخليفة" الذي ألفه محمد المكي الناصري في الرباط سنة 1922 ، وطبع بتونس سنة 1925.

ومعلوم أن الحجوي لم يسجن نفسه في دائرة أو بيئة علمية محددة بل كان له اتصال بمجموعة من المتصوفة، ولم يرتبط بطريقة معينة، وقد انفتح على الطريقة الدرقاوية بأخذه عن شيخها أبي زيد عبد الرحمان بن الطيب الدرقاوي ، كما أخذ عن الشيخ اللحياني العلمي الذي كان يتبع الطريقة التجانية[55].

لقد كان الحجوي حريصا على المزاوجة في تكوين شخصية التلميذ المغربي، ولعل الخطبة التي ألقاها على تلاميذ ثانوية مولاي يوسف بالرباط تعبر بجلاء عن مدى عمق تفكير الرجل وبعد نظره : " أنصحكم نصح مجرب مخلص لكم وقف حياته على ثقافتكم خذوا عن أساتذتكم الفرنسويين العلوم التي تنفعكم في دنياكم:خذوا عنهم نشاطهم وكدهم في نيل المعالي(...)وثباتهم في أعمالهم ومبادئهم ، خذوا عنهم إتقانهم لأعمالهم ونظامهم في مجتمعهم ومحافظتهم على أوقاتهم النفيسة ، خذوا عن مدرسي العربية دينكم وأخلاق الإسلام(...)خذوا بكل جديد نافع، ولا تقطعوا حبل الاتصال بينكم وبين القديم[56] .

لقد حاول الحجوي– بوعي عميق وبحس تاريخي – أن يبين مكونات العطب الذي أدى إلى احتلال المغرب وربط بين ضعف الدولة المغربية وعدم وجود اطر مخزنية متعلمة فكم من موظف–على ما قاله– يعين لوظيف في بلاد لا يدري موقعها من مسقط رأسه. لقد عبر الحجوي عن انبهاره بالنظام التعليمي الفرنسي فالتعليم عندهم إجباري على الرجال والنساء فكم من صبي بلغ سن التعلم لا بد له من أن يدخل المدرسة ويتعلم التعليم الابتدائي، ثم من كان غنيا وأراد التعليم الثانوي تقدم إليه، ومن كان فقيرا أو ليس له داعية للعلم، فلابد له أن يعرف صناعة من الصناعات.....بذلك القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم غير المتمدنة كالمغرب الأقصى مثلا، ويقدم الحجوي وصفا دقيقا في كناشته لما آل إليه وضع التعليم بالمغرب....إن بعض الناس يقولون إن المحصول حصل والساري على الدرب وصل والانكباب على العلم بلغ غايته والمغرب أدرك منيته والمدارس عامرة والدروس زاهرة لكني أرى غير ذلك.....والذي يسؤني إنني لا أرى إقبال الأمة على العلم وافيا، ولا النهضة الحاضرة كافية،إن غاية ما هو موجود من التلاميذ بالمدن والقرى يقدر بنحو 2.5 بالمائة من السكان ولاأظن إن البوادي يبلغون واحدا في الألف يعرف الكتابة والقراءة...فالنهضة الموجودة بالمغرب نهضة حكومية فقط و ليست نهضة الأمة...[57]

لقد تعرض الحجوي للنبذ و الإهمال في أخر حياته لان الظروف تغيرت و لأنه كان سليط اللسان و جريئا في التعبير عن أرائه و مواقفه و توفي رحمه الله عشية يوم الأحد فاتح ربيع الأول عام 1376هـ/6 أكتوبر1956م،و حمل في الغد إلى فاس و دفن بقصبة بن دباب خارج باب المحروق،و لم يحضر جنازته أحد بعدما امتنع الحزابون من القراءة عليه.و حتى بعد دفنه،امتنع سكان القصبة من الصلاة في ذلك المحل الذي دفن فيه ولم يعودوا إلى الصلاة هناك إلا بعد أن اخرج من قبره،و نقل إلى مكان أخر،و كتم المحل الذي دفن فيه ثانية .[58]

هوامش البحث:

1 – الحجوي (محمد) " الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج 2. تــونس، ص ص : 370 – 371.

2 – بن عزوز (محمد) تحقيق فهرست محمد بن الحسن الحجوي المسماة مختصر العروة الوثقى في مشيخة أهل العلم والتقى، دار ابن حزم بيروت 2003، ص: 28.

3 – بنعدادة (آسية) الفكر الإصلاحي في عهد الحماية محمد بن الحسن الحجوي نموذجا، المركــز الثقافي العربي، البيضاء، 2003، ص: 66.

4 – الحجوي ، الفكر السامي ، ج 2 ، ص : 381.

5 بنعدادة، مرجع سابق، ص: 71

6 – بنعدادة، مرجع سابق، ص : 71.

7 – نفسه، ص : 73.

8 – نفسه، ص :74

9 – بنعدادة، مرجع سابق، ص : 77.

10 – أشقرى (عثمان) ، مشروع التحديث في المجتمع المغربي، منشورات الشعلة، مطبعة السعادة ، الدار البيضاء ، 1998 ، ص : 125.

11 – أشقرى (عثمان)، في الفكر الوطني، المعرفة للجميع، عدد 17، 2000، ص: 101.

12 – الحجوي محمد بن الحسن، كناشة بنيقة المعارف، مخ. خ.ع، تحت رقم 127 ، ص . 1.

13 – نفسه.

14 – الدفالي (محمد معروف) ، " القرويين والصراعات السياسية في مغرب الحماية، محاولة رصد أولى" ، مجلة أمل ع 2، السنة 1 ، ص . 76.

15 – الحجوي ، كناشة بنيقة المعارف، مصدر سابق ، ص . 269.

16 – الحجوي (محمد بن الحسن)، تقرير حول المعارف بالمغرب، مخ، خ ع، رقم: 129 ، ص . 2.

17 – نفسه ، ص .1.

18 – نفسه ، ص. 3.

19 – نفسه.

20 – نقسه، ص.4.

21 – كناشة، ص: 12.

22 - Archives diplomatiques Nantes, Rapport de Brunot sur l'enseignement 1916 – 1917 ,
p: 14.
23 - Ibid, carton 43 , note sur quaraouiyine
24 - Ibidem .

25 – كناشة ، ص : 16.

26 – الحجوي ، مستقبل تجارة المغرب ، مطبعة النهضة ، تونس 1921 ، ص ص : 2 – 3.

27 – نفسه ، ص : 15

28 – نفسه ، ص : 19.

29 – كناشة ، ص : 17.

30 – الحجوي (محمد بن الحسن) المحاضرة الرباطية في إصلاح تعليم الفتيات بالديار المغربية، مطبعة النهضة ، تونس : د.ت ، ص : 36.

31 – نفسه، المعارف وجهود الحكومة ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ح 199 و 9.

32 – نفسه ، كناشة المعارف ، مصدر سابق ، ص : 184.

33 – نفسه ، المحاضرة الرباطية ، مصدر سابق ، ص : 28.

34 – نفسه ص: 3.

35– نفسه، تعليم الفتيات لاسفور المرأة في الاجتهاد والتحديث (سعيد بن سعيد العلوي) مركز دراسات العالم الإسلامي ، مالطة 1992 ، ص ص : 215 – 216.

36 – نفسه ، المحاضرة الرباطية ، مصدر سابق ، ص : 3.

37 – نفسه ، ص : 28.

38 – نفسه .. كناشته المعارف ، مصدر سابق ، ص : 107.

39 – الحجوي ، كناشة ...ص.240

40 - Bulletin d'enseignement public (B.E.P.M) année 39 n° 21 , 1952 , p.p. 47-48.

41 – الحجوي ، كناشة ... ص : 240.

42 – أعراب إبراهيم " إرهاصات التنوير وعوائق التقليد في الفكر النهضوي المغربي " مجلة فكر ونقد س 1 ع 7 مارس 1998 ، ص: 31.

43 – الحجوي : تعليم الفتاة لاسفور المرأة ، مصدر سابق ، ص : 297.

44 – نفسه ، ص : 217.

45 – نفسه ، المحاضرة الرباطية ، مصدر سابق ، ص : 3.

46 – كناشة، ص : 192.

47 – كناشة ، ص 192.

48 – كناشة ، ص : 177.

49 – نفسه ، ص : 107.

50 – نفسه ، ص : 108.

51 – كناشة ، ص : 109.

52 - Archives diplomatiques, Nantes, Série D.I.P. carton 84, note n° 1134. IP. 14 octobre 1924.

53 - Dellasus (A) : La conquête morale des indigènes... p: 156.

54 – الحجوي : كناشة ، ص : 140.

55 – بنعدادة (آسية) ،مرجع سابق . ص 66.

56 – خطاب الحجوي في حفل توزيع الجوائز بالمدرسة الثانوية الرباطية، يونيو 1930: م.خ.ع. رقم 118 ح، ص 141 (ضمن مجموع).

57 –الحجوي، كناشة... ص 222.

58 –بنعدادة، مرجع سابق ص 212.

النشاط التجاري في مدينة الجزائر العثمانية
على ضوء مخطوط قانون على الأسواق

د/ حنيفي هلايلي، جامعة سيدي بلعباس

تتلخص معرفتنا عن الحركة التجارية في مدينة الجزائر العثمانية في أن النشاط التجاري كان متواضعا، وأنه كان حكرا على اليهود وبخاصة اليهود الذين وفدوا من مدينة ليفورنة في العشرينات من القرن الثامن عشر[1]. والحقيقة أن استغلال الوثائق وعلى رأسها المخطوطات سيمكن من العثور على معطيات جديدة في هذا المجال.

وهذه المحاولة تندرج في هذا الإطار وهي تتجه خصوصا نحو إبراز حركية السوق في مدينة الجزائر العثمانية وذلك بالاعتماد على استقرار مضامين مخطوط قانون أسواق مدينة الجزائر[2]. ولعل من المصادر المحلية لمدينة الجزائر في العهد العثماني، المخطوطات المعاصرة للفترة العثمانية، وهي كتابات ذات طابع تاريخي تهتم خاصة بتاريخ مدينة الجزائر، وتعتبر مصادر مكملة للوثائق الأولية (الأرشيفية) وهي تشمل سلسلة سجلات المحاكم الشرعية، وسجلات بيت المال ودفاتر البايلك، وثائق الأرشيف التركي. ومن هنا تتجلى أهمية المصادر المحلية بأنواعها المختلفة من فهم الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر العثمانية.

ولعل أهم هذه المصادر المعاصرة في نظرنا (موضوع الدراسة والبحث)، ما سجله احد القائمين على سوق مدينة الجزائر (الرحبة)، وهو عبد الله بن محمد الشويحات (حوالي 1705م).

لقد تعرض هذا الكاتب فيما سجله بلغته البسيطة العامية إلى صلاحيات المحتسب التي تتصل بمراقبة جودة السلع واحترام الأسعار والمكاييل والنظر في الشكاوي

والنزاعات بين المتعاملين في السوق مثل الدلالين والحمالين والجلابين (تجار المواشي) والوزانين وأصحاب المهن المختلفة مثل الحدادين والفخارين والقزازين والنحاسين وصانعي الشواشي والأحذية.

تتلخص مداخلتنا في تحديد الخطوط العريضة التي تناولها المخطوط مع تبيان دور الجماعات الحرفية في مجتمع مدينة الجزائر العثمانية. وعليه فإن المخطوط يشرح لنا بشكل دقيق مختلف نشاطات الجماعات الحرفية وهو يمدنا بالمعلومات التالية:

أولا: أن تركيبة النص (المخطوط) عالجت الصفقات التجارية والموازين والسلع الواردة في سوق مدينة الجزائر خلال فترات زمنية مختلفة.

ثانيا: مختلف أنشطة الجماعات الحرفية والخلافات القائمة بين الحرفيين والمتعاملين، ودور أمين الأمناء في فض النزاعات.

ثالثا: مختلف العملات المستعملة في السوق.

رابعا: أهمية أمين الأمناء والمحتسب والجلاب والدلال والحمال وأصحاب المهن المختلفة في عمليات البيع والشراء وتنظيم السوق.

خامسا: إدارة تسويق الإنتاج داخل السوق.

سادسا: تحديد مهام الحراسة على ممتلكات السوق.

سابعا: تنوع الفئات الاجتماعية في ممارسة النشاط التجاري داخل السوق.

ثامنا: ذكر بعض الأحداث السياسية ما بين 1026-1155هـ/1618-1743م.

خضعت العناصر الوافدة من المناطق الداخلية لتنظيم شبيه إلى حد بعيد بالتنظيم الساري على الجماعات الحرفية بمدينة الجزائر حيث انتظمت في شكل جماعات حسب أصولها الجهوية، وأطلق عليها مصطلح "جماعة"، ولم يكد ينقض القرن السادس عشر

حتى غدت العناصر الوافدة مهيكلة ضمن جماعات، حيث يثبت "مخطوط قانون" على الأسواق تؤطرها في شكل جماعات بمدينة الجزائر منذ أوائل القرن السابع عشر.

ومن بين الطوائف الحرفية التي ذكرها مخطوط قانون الأسواق ما يلي:

- الميزابيون: اختصوا في تصفية الزيوت، الجزارة، الأفران والحمايمية واللبلايجية.
- اليهود: مارسوا أنشطة حرفية مثل الحدادة والخياطة.
- القبائليون: يعتبر هؤلاء من أهم المجموعات عددا بمدينة الجزائر، وقد مارس القبايل نشاطات تجارية وحرفية مثل العمل في ورشات الحرفيين كما احتكروا صناعة الفحم وبيعه إذ يشير مخطوط قانون الأسواق إلى: "جماعة القبايل الفحامين"[3]. كما ساهموا في الحراسة الليلية للمدينة.
- البسكريون: اشتغلوا بحراسة الغنائم وتجارة الأسواق وعملوا أيضا كحمالين وخدام، كما أوكلت إليهم الحراسة بالليل في الأزقة والأسواق، وتحضير الخبز.
- جماعة الجيجلية: استقر هؤلاء بمدينة الجزائر منذ استنجاد أهل مدينة الجزائر بالإخوة بربروسة (1516م)، وبالرغم من النشاطات التي استقطبت العناصر الجيجلية الغزو البحري، إلا أنهم اهتموا بشراء الأفران ومنافسة الجماعة الميزابية في ذلك حسب ما أشار إليه المخطوط.

كان لكل مجموعة حرفية سوق خاص بها، حيث عرفت هذه الأسواق حركة نشيطة في الولايات العربية خلال العهد العثماني. إن عدد الطوائف حسب أندري ريمون A.Raymond[4]، كانت تقدّر في مصر بـــ 250 جماعة حرفية و 83 بتونس، في حين كانت في قسنطينة 354 مجموعة حرفية[5].

لم تكن مدينة الجزائر تحتوي سوى على 32 طائفة حرفية، لأن الأسطول البحري كان له أثر في لإنعاش النشاط الاقتصادي من خلال جلبه للغنائم والأتوات المفروضة على الدول الأوروبية طيلة ثلاثة قرون من الوجود العثماني.

التنظيم الإداري للأسواق:

كانت الطوائف الحرفية بالجزائر تحمل اسم "الجماعات"[6]. وتتكون من مجموعة رؤساء الحرف يحملون تسمية المعلم. وكان مجموعة المعلمين تحت رئاسة أمين وكانت مهمة الأمناء الوساطة بين الجماعة الحرفية والسلطات العمومية، كما يساعدون الإدارة في تسيير العمال، وكان لهؤلاء الأمناء مهام الشرطة والقضاء على الجماعات الحرفية[7].

كانت مهام الأمناء تنحصر في مجال التنسيق مع المحتسب وتتمثل مهامهم أيضا في مراقبة الموازين أساسا والمكاييل ونوعية المنتوجات التي تباع في الأسواق، والدليل على ذلك ما حدث من صراع ما بين جماعة بني ميزاب مع وكيل أحباس ضريح سيدي رمضان بسبب ملكية كوشة (فرن) يقع فوق سوق الجمعة[8].

وما يقع من خلافات بين جماعة الجيجلية وبني ميزاب أو جماعة التبانين والصباغين، وتكون التراعات مصحوبة بالشكوى المقدمة لشيخ البلد[9].

ويلاحظ أن أمين الأمناء[10] كان ينتخب من بين جماعة الأمناء، فنجد أمين الصباغين، الحاج محمد ابن الحاج حميد الذي تقلد هذا المنصب[11] ويتضح جليا من خلال مخطوط قانون الأسواق إن هذا المنصب اقتصر على أعيان المدينة، منذ قرون، فنجد عائلة الشويحات (سليمان، يوسف الشويحات، وابنه عبد الله)[12] الذين تقلدوا منصب أمين الأمناء ما بين 1609-1750) إن أمين الأمناء يذكر عند الاتفاق الحاصل بين الجماعات الحرفية أو بين أفراد الجماعة مثل الاتفاق بيم جماعة الحمامجية والقاضي بكراء المحلات[13].

ويعتبر أمين الأمناء بمثابة الخبير المتضلع في شؤون السوق، فيترأس أحيانا اجتماعات الجماعات الحرفية. وتنحصر مهمته الأساسية في التنسيق بين الأمناء والسلطات العمومية. ومن بين المهام التي ذكرت في مخطوط قانون الأسواق ما يلي:

شيخ البلد: يعتبر موظفا مدنيا يشرف على النقابات المهنية والطوائف السكانية، فهو يتصل بأمناء هذه المهن ورؤساء هذه الطوائف ليتعرف على مشاكلهم ويلبي حاجاتهم عند الضرورة. وهو في مقابل ذلك كان يتسلم من هؤلاء الأمناء الضرائب والرسوم ليودعها في الخزينة العامة كل شهرين. وبذلك يصبح شيخ البلد بمهامه الاجتماعية وسلطته الأدبية أداة وصل بين النقابات الحرفية والطوائف العرقية من جهة وبين سلطات الإيالة من جهة أخرى.

المحتسب: استمد المحتسب وظيفته من التقاليد التي ورثها الحكام الأتراك بالجزائر من أنظمة العهود الإسلامية السابقة، فالمحتسب يكتسب سلطات تخول له مراقبة كل ما يباع من مأكل وملبوس ومصنوع ومشروب، وذلك عن طريق تحديد أسعار البضائع والإشراف على سير أسواق المواد الغذائية ومراقبة الدكاكين وبائعي الخضر والفواكه وأفران الخبز، وذلك حتى يضمن الإيفاء بالكيل والميزان ويحول دون تدليس التجار وتزويرهم. وقد استعان المحتسب لأداء مثل هذه المهام بمساعدة القاضي والأمناء. أما أجرته فهي عبارة عن مبلغ يتقاضاه من السلع الواردة في السوق، فهو مثلا يأخذ نصف ريال عن كل رأس غنم وسبع قطع ذهبية عن كل حمل من التمر الوارد من الجنوب[14]. وفي غالب الأحيان كان يقع الاتفاق بين أمين الأمناء والمحتسب حول تحديد أثمان السلع في السوق. ومما جاء في المخطوط: "اتفاق مع عبد الله محمد بن الحاج يوسف وسليمان المحتسب بأمر صاحب السعادة على أن يكون ربط السمن بثمانين درهما... وثمن الزيت بأربع ريالات"[15].

الدلال: وهو الذي يقوم بتعريف البضائع بالمناداة عليها في السوق مقابل الحصول على سهم من ثمن البضائع، يقدر بدرهم واحد على كل دينار تباع به هذه

السلع[16]. ومما جاء في المخطوط: "عوائد الدلال بالسوق الكبير لكل دينار درهم وعوائد دلالين الغنم عشر ذهب للألف... وقافلة تلمسان تعطي للباب نصف زياني عن كل حمل...ودلال الديار يأخذ أربع ذهب عن كل ألف".

والواقع أن عملية التنسيق المكلف بها أمين الأمناء لها محورين من جهة السلطات، فأمين الأمناء يساعد شيخ البلد في تحصيل الضرائب من الأملاك المنقولة، ومن جهة أخرى، فأمين الأمناء له علاقة وطيدة بالداي بحيث يمثل الأمناء في الجماعات الحرفية في مجلس الديوان[17].

ومن خلال مخطوط قانون الأسواق نستشف أعمال البناء التي تبدو أنها كانت منظمة بشكل جيّد، وقد رصدت مبالغ مالية معتبرة لبناء الجدران في أحياء المدينة[18].

بئر ميزاب:

لقد كان النازحون من الجنوب أساسا من منطقة الميزاب بمدنها: غرداية وبني يسقن ومليكة وبريان والعاتق والقرارة وبونورة. وقد تميزت بفقرها وقلة إمكانات العيش بها مما جعلها من المناطق الطاردة. فكانت الهجرة اضطرارية وضرورية لارتباط حياة البلد ارتباطا شديدا بها. وذهب بعض الباحثين إلى أن الهجرة انتظمت منذ القرن الرابع عشر، وكان نزوح بني ميزاب أساسا نحو التل والشمال[19]. ويشير دي بارادي بأن بني ميزاب تواجدوا بمدينة الجزائر قبل مجيء الأتراك العثمانيين وكان تمركزهم العمراني قوي بالمدينة[20]. وكان يشرف على جماعة بني ميزاب أمين ينتخب من منطقة غرداية وهو يمثل السلطة العليا على هذه المجموعة على مستوى الأمن والقضاء[21]. ويتضح من خلال الدراسة أن التنظيم الداخلي لهذه المجموعة هو من اختصاص مجلس قضاء يسمى الحلقة يساعد الأمين في مهام تسيير شؤون الجماعة[22].

والواقع أن لسباس (Lespes) قد حددت مجالات النشاط الاقتصادي لكل جماعة مثلما يؤكده الاتفاق الذي وقع بين جماعتي بني ميزاب والجيجلية عام

1609[23]. وكان لكل جماعة مجال احتكارها فجماعة بني ميزاب التي عرفت بنشاط اقتصادي متميز تفرعت منذ مطلع القرن السابع عشر إلى عدة جماعات أهمها الفرانين والحمايمية حيث أوكلت لهم جميع حمامات مدينة الجزائر[24]. والهرقمجية واللبايجية والسفاجين[25]. وتخبرنا سجلات البايليك أن العمل في الأفران كان مقصورا على بني ميزاب، ففي عام 1681-1682 كان الحاج عيسى الميزابي أمين جماعة الفرانين مستأجرا لفرنين واحد بسوق السمن والثاني بسوق عمور، وظلت نفس الأفران بيد العناصر الميزابية إلى غاية 1830، كما احتكر بنو ميزاب القصابة أو الجزارة. أما جماعة الجيجلية فكانت تشرف على أفران البايليك الموجهة لإعداد الخبز للجيش الانكشاري والأرقاء. وأوكلت مهام النقل أيضا للميزابيين الذين استخدموا دوابهم في أعمال الدولة، وكانوا يقدمون اللحم مجانا للجيش الانكشاري[26]. ومن خلال استقراء نصوص مخطوط قانون، يتضح الاتفاق بين الجماعتين الميزابية والجيجلية حول تزويد الجيش الانكشاري بالخبز ومشاكل الأفران "ما وقع مع بني ميزاب والكواشين الذين يعملون خبز للعسكر نصرهم الله على شأن يعطوا أربعة دراهم للصاع..."[27]. وتشير بعض الوثائق إلى أن الفنادق كانت تحت إشراف الميزابيين.

تحديد الأسواق والحرف في مدينة الجزائر:

تقع أسواق مدينة الجزائر في ثلاث محاور رئيسية من المنطقة المتجهة من (باب عزون، باب الواد، وباب الجزيرة). ومن هذا المنطلق لا تختلف مدينة الجزائر عن باقي المدن العربية في الحوض البحر الأبيض المتوسط (فاس، تونس، القاهرة، دمشق، حلب)، حيث يوجد النشاط الاقتصادي في مركز المدينة[28].

إن الوثائق العثمانية ومخطوط قانون على الأسواق يؤكدان على هذا التواجد. ومن الناحية الدينية يلاحظ من خلال ما جاء في الحديث الشريف من خلال توأمة مكانين "خير البلاد المساجد وشر البلاد الأسواق"[28].

نجد في مدينة الجزائر تقابل عدة حرف ببعضها البعض مثال الصفارين والخراطين، وسوق الحديد على طول شارع باب عزون والرصاصية في شارع النحاس، والجقماقجية (صناع الخشب) بالقرب من السوق الكبير. ويشير مخطوط قانون على الأسواق التقابل ما بين الفحامين والحرايرية[30]. كما نجد الحفافين (الحلاقين) متواجدين في باب الواد وباب عزون وباب البحر. وهو ما يفسر إقبال الوافدين عليهم ليكونوا أنظف عند دخولهم المدينة. كما نسجل تواجد الأفران في كل أحياء مدينة الجزائر، وهو ما يشير إليه الزهار حيث تحدث عن مجاعة **1230هـ/1814** إذ أمرت السلطات من الفرانين توزيع الخبز على الأهالي بالقسط مع المحافظة على الأثمان كما كانت عليه في السابق[31].

ومما يلاحظ أن تقسيم مختلف الحرف على الجماعات المختلفة المكونة لمجتمع مدينة الجزائر، كما هو الحال بالنسبة للأفران بين الجيجلية والميزابية والتنافس الحاد بين المجموعتين حول من يتصدر زعامة الأفران[32].

والظاهر أن قراءة متأنية لمخطوط أسواق مدينة الجزائر تمكننا من تحديد الفضاء العمراني للجزائر، حيث التمركز الشديد للأسواق. ويلاحظ وجود ساحات عمومية مخصصة لبيع بعض الأغراض تسمى الرحبة (رحبة الزرع، رحبة الفحم). وقد وجدت هذه الأماكن منذ بداية الإسلام وإلى يومنا هذا تحت شعار (من يصل الأول، يبيع الأول). وفي هذه الأماكن نجد الدلالين (محافظ المزاد العلني في أيامنا) والبراحين يصيحون بالبيع العلني الأملاك المصادرة ويعلمون الناس بذلك[33].

وبسبب صعوبة هذه الأمكنة ولتسهيل عملية تسييرها عمدت السلطات إلى تعيين قايد الرحبة الذي يسير مثل هذه الأمكنة التجارية ويقوم بجمع الرسوم ويعمل على تنظيم الرحبة بالتنسيق مع التجار المتنقلين[34].

كانت الأسواق في مدينة الجزائر العثمانية، تتمركز في شارعين رئيسيين، أحدهما يمتد من باب عزون إلى باب الواد، ويشمل من سوق الكتان، وسوق الزيت وسوق الشمع وسوق الفكاهين وسوق الحرايرية، وسوق الخشبية وسوق الصباغين وسوق الحديد، وسوق اللوح وسوق الخضارين، وفي الشارع الثاني نجد سوق السمن وسوق القيصارية، وبجوار هذه الأسواق كانت تنتشر المقاهي والحمامات والفنادق(35).

وهناك جانب آخر يتعلق بإدارة وتسويق الإنتاج في هذه الأسواق، هو جانب الدعاية. فقد وجد "دلالون" متخصصون لكل سلعة من السلع. وكان هؤلاء يقومون بدور الدعاية للسلع التي يعملون على ترويجها. وقد ذكر لنا مخطوط أسواق مدينة الجزائر أمناء الحرف حيث نذكر منهم: أمين الشواشي، أمين الفحامين، أمين التبانين، أمين الخياطين، أمين الصباغين، أمين الحمايمية، أمين الكواشي(36).

إن قراءة منهجية في أهم ما جاء في المخطوط من معلومات تسمح لنا برصد أنواع المبيعات وكيفية الاتجار بها ضمن مجتمع مدينة الجزائر العثمانية، وتمكننا من التعرف على طوبوغرافية المدينة وعلى معالمها من أسواق ومرافق عامة، في غياب الخرائط والأوصاف الدقيقة في كتب الإخباريين.

هوامش البحث:

1. للمزيد من التفاصيل حول النشاط التجاري لليهود في الجزائر العثمانية أنظر:

– محمد دادة، اليهود في الجزائر في العهد العثماني (منذ مطلع القرن 18 حتى 1830)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق 1985.

EISENBETH Maurice, « Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque », in Revue Africaine (N°97), 1952, pp.114-187.

2. مجهول مخطوط قانون على الأسواق، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقمِ1378، 116 ورقة.

3. نفسه، ورقة 37 و 54.

4. A.Raymond, « La conquête ottomane et le développement des grandes villes arabes », in Revue de l'occident Musulman et Méditerranéen, N°27, 1979, pp.115-135.

5. A.Raymond, Les grandes villes arabes à l'époque ottomane, Sindbad, Paris, 1985, p.130.

6. بالرغم من أن دفتر التشريفات حدد مجموعة لا بأس بها من الجماعات الحرفية إلا أنه لم يذكر جماعة الجيارين (طلاء البنايات)، الموازنية، السراجين، الحفافين، أنظر:

Devoulx (A), Tachrifat, recueils de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence de l'Alger, Alger, 1852.

7. M.HOEXTER, « Taxation des corporations professionnelle à Alger à l'époque Turque », in R.O.M.M, N° 36, 1983, p.136.

8. قانون على الأسواق، ورقة 32.

9. نفسه، ورقة 55.

10. موسى لقبال، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب الإسلامي، الجزائر، 1971، ص 86.

11. Touati (H), « Les corporations de métiers à Alger à l'époque ottomane », in Revue d'histoire Maghrébine, N°47-48, Décembre 1987, p.177.

12. idem.

13. idem, p.67.

14. قانون على الأسواق، ورقة 7.

15. نفسه، ورقة 39-42.

16. نفسه، ورقة 1-2.

17. M.Hoexter, op.cit, p.281.

18. قانون على الأسواق، ورقة 22.

19. Holsinger. D.Ch, Migration, Commerce and Community the Mizabis, in Nineteruth Centry, Evanston, 1979, p.164.

20. Venture de Paradis, "Alger au XVII Siècle", in R.A, N°41, 1897, P.278.

21. Lespes (R), « Quelques documents sur la corporation des Mozabites d'Alger dans les premiers temps de la conquête », in, R.A, N°66, 1925, pp.197-218.
22. Benyoucef (M), le Mzab, espace et société, Alger, 1992, pp.49-53.

23. قانون على الأسواق، ورقة 32.

24. Lespes, op.cit, p.198.

25. قانون على الأسواق، ورقة 32.

26. Lespes, op.cit, p.198.

27. قانون على الأسواق، ورقة 31-32.

28. Raymond 'A), « le centre d'Alger en 1830 », in, R.O.M.M, N° 31 1981, p.74.

29. محمد الجلوني، كشف الخافة ومزيل اللباس عمن اشتبها من الحديث عن ألسنة الناس، بيروت، 1985، ص ص 467-468.

30. قانون على الأسواق، ورقة 32.

31. أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف (تحقيق: توفيق المدني، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1980، ص 117).

32. قانون على الأسولق، ورقة 13.

33. Klein (H), Feuillets d'Al Djazaïr, Alger, Jourdan, 1910-1937, pp.69-70.

34. قايد الرحبة أو خوجة الرحبة (المكاس) ويتسلم الرسوم على التجارة المعروضة في الأسواق للمزيد أنظر:

ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي 2000، ص 233.

35. حنيفي هلايلي، الموريسكيون الأندلسيون في المغرب الأوسط خلال القرنين 16 و17، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 1999، ص 166.

36. ذكرت هذه التفاصيل في: مخطوط قانون على الأسواق.

فهرس المخطوطات بالمغرب: واقع وآفاق

د. محمد رزوق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب

تزخر المكتبات المغربية العامة والخاصة بالعديد من المخطوطات النادرة والهامة، والتي قلما نجد لها نظيرا في مكتبات العالم العربي، يدل على ذلك الإقبال الكبير للباحثين العرب والأجانب عليها. ويرجع ذلك في تقديرنا إلى ثلاثة عوامل رئيسية:

- اهتمام ملوك المغرب – في مختلف العصور – بالمكتبات، وحرصهم على اقتناء الكتب واستنساخها من داخل المغرب وخارجه، كما يتجلى ذلك كذلك في تشجيعهم للعلماء على التأليف، بل إن بعض ملوك المغرب كانوا هم بأنفسهم يشاركون في هذه الحركة، مما أضفى عليها طابعا خاصا، ويعقدون حلقات علمية لهذا الغرض.

- اهتمام علماء المغرب بالتراث المخطوط، وحرصهم على التأليف في مواضيع معينة، أو على الأقل العمل على نشر هذا التراث وحفظه، وذلك لعوامل متعددة:

أ ــ استخدام هذا التراث لأغراض تعليمية، وذلك بحث الطلبة على القراءة للحصول على الإجازة بمختلف أنواعها. ولم يكتف الطلبة بالتحصيل فقط، بل إن بعضهم كان يعلق على ما تعلمه أو يقوم بشرحه مما كان يغني هذا التراث المخطوط باستمرار.

ب ــ كانوا يعتبرون أن التأليف ونشر العلم واجب شرعي لا محيد عنه، وبالتالي فإن إنتاجهم العلمي لم يكن لغرض معرفي محض، بل كان المقصود منه أيضا بث الوعي لدى

المغاربة بالحرص على تشبثهم بدينهم، والابتعاد عن مختلف مظاهر الفساد التي كانت تخترق المجتمع المغربي بفعل الأزمات المتكررة التي عرفها المغرب، إذ أثرت على مستوى وعيه وفكره، وجعلته عرضة للجهل والتزمت.

ج ـــ كان العلم أداة من أدوات المحافظة على المكانة الاجتماعية المتميزة للعلماء أمام السلطة وداخل المجتمع، من هنا كان هؤلاء حريصين على أن يبقوا بارزين بصورة دائمة في الساحة الفكرية.

– الزوايا: لا يخفى الدور الكبير الذي لعبته الزوايا في تاريخ المغرب، فقد كانت للعديد منها مراكز تعليمية تقوم بإيواء الطلبة، وتعليمهم، وتستضيف لهذا الغرض علماء كبار يقومون بتأطير رواد الزاوية، وكان العديد من أطرها يؤلفون لمكتبتها، وينسخون لها، أو يقتنون لها كتبا من داخل المغرب وخارجه.

لكن علينا أن نشير إلى أن هذا التراث تعرض للنهب باستمرار أثناء فرض الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912، إذ تهافت الباحثون الأجانب على هذا التراث بدعوى تنظيمه وفهرسته ودراسته وتحقيقه، لكن تبين فيما بعد أن الأهداف المعلنة ليست هي الأهداف الحقيقية، وأن الهدف كان أولا وأخيرا خدمة المستعمر، ويتجلى ذلك بالخصوص فيما يأتي:

- نهب وسلب العديد من المخطوطات من مختلف مكتبات المغرب العامة والخاصة، أي حرمان المغاربة من الاطلاع عليها.
- تحقيق ودراسة بعض المخطوطات من منظور المستعمر، والتي تحاول أن تبرز أن تاريخ المغرب عبارة عن تاريخ للصراعات بين العرب بعضهم مع بعض وبين هؤلاء والبربر، كما تحاول أن تبرز أن التراث العربي الإسلامي بالمغرب هو السبب في تخلف المغرب، وبالتالي فإن الحل هو الاتجاه إلى فرنسا التي ستعيد الاستقرار والأمن والنظام إلى المغرب، كما أن على المغاربة إن أرادوا أن يسيروا في ركاب الحضارة

العصرية أن يتبنوا الثقافة الفرنسية، ولهذا كانت الحماية الفرنسية تداول العديد من المخطوطات التي تحث على التشبث بالأصالة المغربية ومقاومة الأفكار الدخيلة، بل وتعتبرها خطرا على الأمن العام.

- أولا: خزائن المخطوطات بالمغرب:

وتنقسم إلى قسمين: خزائن قديمة وخزائن حديثة.

1 ـ الخزائن القديمة:

أ ـ الخزانة الحسنية بالرباط: وهي تضم مخطوطات قديمة، يصل عدد المسجل منها حوالي 10951 مخطوطا، بالإضافة إلى المجموعة الزيدانية (نسبة إلى المؤرخ عبد الرحمان بن زيدان) التي تضم حوالي 3986، كما ضمت إليها مؤخرا خزانة الأستاذ محمد المنوني.

وقد كانت هناك محاولات متعددة لوضع فهارس لهذه الخزانة، نذكر من بينها:

- فهرس ببعض نفائس مخطوطاتها، أعده الأستاذ محمد الفاسي الفهري(1).
- فهرس خاص ببعض ذخائرها، في مجلد واحد، أنجزه الأستاذ محمد المنوني.
- فهرس المؤلفات التاريخية والجغرافية أعده الأستاذ محمد عبد الله عنان.
- فهرس عام للخزانة ذاتها، أنجز الجزء الأول منه الأستاذ محمد المنوني.
- هناك فهرس الطب والصيدلة والبيطرة أعده الأستاذ محمد العربي الخطابي.
- فهرس الرياضيات والفلك والجغرافيا لنفس المؤلف.
- فهرس الموسيقى ونظم الدولة والفنون الحربية وجميع العلوم لنفس المؤلف.
- الفهرس الوصفي لمخطوطات الكمياء لنفس المؤلف.
- الفهرس الوصفي لعلوم القرآن الكريم لنفس المؤلف.

ب ــ الخزائن الوقفية: إن هذه الخزائن كثيرة ولا سبيل إلى حصرها إذ أنها منتشرة عبر مختلف أرجاء المغرب، ونذكر من بينها على سبيل المثال:

خزائن القرويين بفاس (تأسست سنة 245هـ) (2):

وقد حظيت باهتمام ملوك المغرب، فأغنوا رصيدها من المخطوطات. وساعد على إغناء هذا الرصيد وقف كثير من العلماء لكتبهم عليها، من أمثال ابن خلدون الذي أهدى للخزانة جزءا من تاريخه، ومن أولى المحاولات لفهرسة مخطوطات خزانة القرويين "لائحة مخطوطات خزانة القرويين"، اعدها عالمان من فاس، وقدمها المستعرب الفرنسي الفريد بيل، فنسبت إليه، وتحمل اسم "برنامج يشتمل على بيان الكتب العربية الموجودة بخزانة جامع القرويين بعاصمة فاس"(3).

غير أن أهم محاولة هي التي قام بها محافظها السابق محمد العابد الفاسي، إذ قام بوضع فهرس للنوادر(4)، ثم أصدر بعد ذلك فهرسا من أربع مجلدات.

وقد قامت الخزانة العامة بالرباط مؤخرا في إطار ترميم جامع القرويين ومكتبته بالإشراف على عملية فهرسة مخطوطات هذه الخزانة فهرسة آلية وإخراجها في قرص مضغوط CDRom، وقد بلغ عدد العناوين المدرجة حوالي 3812 عنوانا. وما زالت هناك مخطوطات لم يتم تفكيكها لكثرة الخروم بها.

– خزانة ابن يوسف بمراكش: تأسست على يد علي بن يوسف في أوائل القرن السادس الهجري(5)، وقد عرفت ازدهارا كبيرا بسبب توافد عدد من العلماء والأدباء على حاضرة الدولة المرابطية من المغرب والأندلس، إذ تنافس هؤلاء في تقديم مؤلفاتهم ومستنسخاتهم إلى الأمير المرابطي، إلا أن أيدي الزمان بطشت بها وبرصيدها من المخطوطات التي لم تحظ بالاهتمام إلا بعد الاستقلال، فخصصت لها قاعة فاخرة من قصر الكلاوي، ووضعت لها أربع فهارس:

* فهرس عام في نحو ألفي جذاذة.

* فهرس موجز قام بوضعه الأستاذان علي بن المعلم والصديق بن العربي.

* فهرس مختصر من الفهرس العام، أنجزه الأستاذ الصديق بن العربي(6)،.

* فهرس كبير مأخوذ من الجذاذات، أعده الأستاذ الصديق بن العربي، تحت عنوان:"فهرس مخطوطات خزانة ابن يوسف بمراكش"(7).

وعلى الرغم من ضياع عدد غير قليل من مخطوطات خزانة ابن يوسف عبر العصور فإنها ما زالت تحتوي على كتب أصلية ألفت في القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة، ومخطوطات انتسخت في القرن الخامس الهجري وما بعده، كما تحتوي على نسخ ملوكية أصيلة أو منتسخة، ومخطوطات كتبت على رق الغزال أو على الورق الشاطبي الحريري المختلف الألوان، وبعضها يعتبر آية في الجمال من الناحية الزخرفية.

وتجدر الإشارة هنا إلى هذه الخزانة أيضا قد وضع لها فهرس آلي وقد صدر مؤخرا في قرص مضغوط.

- الخزانة الناصرية بتامكروت، إقليم ورزازات: أسست في العصر العلوي وتضم مجموعة من المخطوطات في مختلف فنون المعرفة، ويبلغ عدد مخطوطاتها حوالي 4200 مخطوطا، وقد وضع لها الأستاذ محمد المنوني فهرسا مفصلا(8).

- خزانة الزاوية الحمزاوية بإقليم الراشيدية: تنتمي إلى العصر العلوي، وتضم حوالي 1202 مخطوطا، وقد وضع لها الأستاذ محمد المنوني فهرسا(9).

وهناك خزائن أخرى مثل خزانة الجامع الأعظم بتازة، وخزانة المعهد الإسلامي بتارودانت وغيرهما، ومن هذه الخزانة الوقفية ما هو مفهرس، ومنها ما يزال ينتظر الفهرسة، لكن علينا أن نشير إلى أن الجهود الفردية وإن كانت مفيدة، إلا أنها لا تفي بالمطلوب، فمثل هذا العمل يتطلب مؤسسات عامة ولها إمكانات مادية وبشرية كفيلة بوضع استراتيجية واضحة ودقيقة لهذا الغرض، كما أننا نشير أيضا إلى أن هذا العمل مستعجل ولا يحتمل التأخير، إذ تبث أن مخطوطات عديدة ضاعت من أماكنها ولا

يعرف عنها أي شيء رغم أن المسؤولين يقومون أحيانا ببعض التحقيقات في هذا الموضوع، فالفهرسة أولا وأخيرا حفظ للمخطوطات من الضياع، وتساعد على تحديد المسؤولية.

2 ـــ الخزائن الحديثة:

أهم الخزائن الحديثة بالمغرب: الخزانة العامة بالرباط ومثيلتها بتطوان.

أ ـــ الخزانة العامة بالرباط:

أسست الحماية الفرنسية سنة 1924 الخزانة العامة بالرباط، وسمتها الخزانة العامة للحماية الفرنسية، وقد وضعت فيها مخطوطات معهد الدروس العليا بالرباط، ومخطوطات بعض المكتبات الخاصة التي استولت عليها، ومنها خزانة زاوية الشيخ ماء العينين في فاس، وبعض خزائن السلطان مولاي عبد الحفيظ في بعض القصور الملكية التي استولت عليها، وظلت تنميها باقتناءات جديدة(10).

أما فيما يخص الرصيد المخطوط الذي توصلت به الخزانة بعد الاستقلال فهو رصيد مهم وزاخر كما وكيفا، وقد تشكل في معظمه من مخطوطات بعض المساجد والزوايا ومن مجموعات كان يمتلكها الخواص، مثل مجموعة الكتاني، ومجموعة مراكش التهامي الكلاوي، ومجموعة الحاج محمد المقري، ومجموعة الحجوي.

ويبلغ رصيد الخزانة من التراث المخطوط حوالي 12000 مجلد، ويفوق عدد عناوينه 30.000 عنوانا، سواء كانت مخطوطات مفردة أو كانت ضمن مجاميع. وتعتبر هذه المخطوطات من أغنى مخطوطات الغرب الإسلامي، وذلك اعتبارا لعدة معايير سواء منها المتعلقة بقدم بعض هذه المخطوطات أو المتعلقة بندرتها وقيمتها الجمالية وتنوع فنونها وموضوعاتها، هذا بالإضافة إلى رصيد من أشرطة الميكروفيلم والتي يزيد عدد ما تضمه من نصوص مخطوطة عن 2500 نص.

وقد كانت هناك محاولات عدة لفهرسة هذا التراث المخطوط بالخزانة العامة بالرباط، نذكر من بين هذه المحاولات:

- فهرس الأستاذ ليفي بروفنصال:

يقع هذا الفهرس الوصفي في جزء واحد من الحجم الصغير (306 صفحة) وقد سماه:"فهرس أسماء الكتب المخطوطة في خزانة المدرسة العليا للغة العربية واللهجات البربرية لعاصمة رباط الفتح المحروسة".

وقد اشتمل على المخطوطات الأولى التي جمعتها الخزانة العامة منذ تأسيسها إلى غاية 1920(11).

وهو عبارة عن وصف بسيط للمخطوطات المسجلة في سجل الخزانة من الرقم الأول إلى غاية 531، وقد اعتمد فيه ليفي بروفنصال على ذكر عنوان المخطوط باللغة العربية، في حين ذكر البيانات الأخرى باللغة الفرنسية. وبذلك يعتبر أول فهرس وصفي مفصل رغم بساطته وضع للمخطوطات العربية بالمغرب.

وقد راجع هذا الفهرس مؤخرا كل من الأستاذين صالح التادلي وسعيد المرابطي، وذلك بتدارك النقص الموجود عن طريق:

- تصحيح بعض الخطاء في نسبة بعض الكتب لغير أصحابها.
- وضع عناوين لكتب لم يهتد لعناوينها أو وهم فيها فأعطاها عناوين جديدة.
- النصوص التي نسبها لمؤلفين مجهولين، أثبت لأصحابها.
- فك المجاميع التي لم يذكرها بل اكتفى بذكر النص الأول منها فقط.

استدراك التآليف التي غفل عنها بروفنصال ولم يذكرها أثناء وضعه، وقد بلغت تقريبا 128 مؤلفا.

هذا بالإضافة إلى استكمال الوصف الببلوغرافي لعدد من المخطوطات.

- فهرس موجز للأستاذ بلاشيرو رونو:

اغتنى رصيد الخزانة من المخطوطات، إلى أن وصل إلى 1189 مخطوطا فيما بين 1921 و1953، وهي التي سجلت من الرقم 532 إلى 1720، ولعل هذا هو الذي دفع كل من الأستاذ بلاضير والذكتور رونو إلى تأليف فهرس، ولكنه اتصف بالإيجاز حيث لم يشمل سوى المخطوطات التي سجلت ما بين سنتي 1929 و1930 وهي الحاملة للأرقام من 959 إلى 1056(12)، ويعتبر هذا الفهرس بمثابة حلقة ثانية لفهرس ليفي بروفنصال، إذ نجده يسير على نفس نهجه سواء من حيث تقسيم الفنون أو من حيث مجموع المعلومات الواردة في الفهرس وترتيبها.

- فهرس الأستاذ علوش والأستاذ عبد الله الرجراجي:

صدر هذا الفهرس في جزءين: الأول منشور بباريس سنة 1954 في 380 صفحة بالإضافة إلى فهرس بالعناوين وبالمؤلفين، والثاني منشور بالرباط سنة 1958، وقد جاء في 371 صفحة إضافة إلى الفهارس. وهما معا يتناولان المخطوطات التي سجلت بالخزانة العامة فيما بين سنتي 1921 و1953، وقد أعادت الخزانة العامة مؤخرا نشرهما وذلك سنة 2001 وذلك بعد إدراج بعض التصحيحات والتصويبات قام بها الأستاذ سعيد المرابطي ونشير إلى الفهرسين الذين وضعهما الأستاذين محمد إبراهيم الكتاني والأستاذ صالح التادلي، وكذا فهرس الأستاذ محمد المنوني لمجموعة الكتاني، إذ قام بدراسة لحوالي 200 مخطوطا من المجموعة أي ما يعادل 7% من مخطوطات الخزانة الكتانية، وقد رتبها حسب الموضوعات من مصاحف وتفسير وحديث وفقه وسيرة وطب وغيرها من الفنون، والتزم داخل كل فن بترتيب المؤلفين حسب تسلسلهم التاريخي في حين أدرج المؤلفين غير المعروفين في آخر المادة. وفي الأخير ذيل معلوماته بمصادر المخطوط ومصادر المؤلف وهل هو مطبوع أم لا ومكان طبعه إن كان مطبوعا.

- ونذكر أخيرا فهرس الأستاذ سعيد المرابطي، وهو يمثل المجلد السابع من فهارس المخطوطات المحفوظة بالخزانة العامة، وقد تم نشره سنة 2002.
- وقد جاء هذا الفهرس في حوالي 398 صفحة إضافة إلى فهرس بأسماء المؤلفين وفهرس بأسماء النساخ وفهرس بأسماء المؤلفات والفهرس يشمل وصفا لمائتين وسبعين مخطوطا من أصل ألف ومائتين وخمسة عشر مخطوطا مجلدا. أما فيما يخص النهج الذي سار عليه فإننا نجد فيه نوعا من التوسع من حيث إيراد بعض المعلومات الجديدة لم يعطها المفهرسون السابقون كثير اهتمام.

وهذا الفهرس دليل على اجتهاد الجيل الجديد من المفهرسين ومحاولاتهم الجادة للسير بعملية الفهرسة والتعريف بالمخطوط نحو مستقبل أفضل تراعى فيه كل التقنيات الحديثة.

وقد انتبهت الخزانة العامة مؤخرا إلى الفهرسة الآتية، ونقصد بها قاعدة البيانات التي ينشئها المفهرس أو الإعلامي في جهاز الحاسوب الإلكتروني، حسب برنامج يختاره مسبقا لذلك ورآه مناسبا لإنشاء هذه القاعدة، واهم البرامج التي تعتمد في هذا المجال هو برنامج اكسس.

ومن مزايا الفهرسة الآلية أنها تساعد المفهرس أو الباحث في ظرف وجيز على الحصول على أكبر عدد ممكن من المعلومات المتعلقة بالمخطوط، بحيث تسمح نافذة الاستعلامات مثلا بحصر مجموع المخطوطات المتعلقة بفن من الفنون كالفقه أو الحديث أو الطب وغيرها من الفنون، أو جرد عدد ما ألفه مؤلف ما في موضوع معين، أو البحث فقط عن عنوان كتاب، بل يمكننا البحث عن عنوان كتاب ما انطلاقا من كلمة ترد في العنوان أو البحث عن أسماء النساخ.

لكن ورغم نجاعة هذه الفهرسة التي تخضع للمعايير والتقنيات الحديثة التي تؤهلها أن تدخل عالم التكنولوجيا، فإن مشاكل هذه الفهرسة الإلكترونية كثيرة تضطرنا إلى عدم الاستغناء كلية عن الجذاذات الورقية وعن الفهارس المطبوعة.

ب ــ الخزانة العامة بتطوان:

- يبلغ رصيدها من المخطوطات حوالي 1735 مخطوطا، إضافة إلى المصورات على الأشرطة، كما أنها تضم بين أقسامها مركزا لترميم وصيانة المخطوطات تؤطره هيئات إسبانية، وذلك في نطاق التعاون بين المغرب وإسبانيا.

ومن فهارسها:

- فهرس الكتب النادرة، نشر بالعرائش سنة 1942.
- فهرس الوثائق التاريخية، نشر منه ثلاثة أجزاء من الحجم المتوسط.

الأول: من إعداد الأستاذين: أحمد المكناسي ومصطفى الكوشي.

الثاني: من إعداد الأستاذين: أحمد المكناسي ومحمد الغازي الرويفي.

الثالث: من إعداد الأستاذين: المهدي الدليرو ومحمد الغازي الرويفي

فهرس لبعض نفائس مخطوطاتها، إعداد الأستاذ محمد الفاسي الفهري، وقد نشر بمجلة البحث العلمي، أعداد 3، 4، 5، 6، 7 لسنة 64 – 1966.

- فهرس خاص ببعض ذخائرها، في مجلد واحد، أنجزه الأستاذ محمد المنوني.

الخزانة العلمية الصبيحية بسلا:

تحتوي هذه الخزانة على بضعة آلاف من المخطوطات، فهرس منها لحد الآن 1337 مخطوط في جزء أول نشر سنة 1985 بعناية الأستاذ محمد حجي.

ومخطوطات الخزانة العلمية الصبيحية متنوعة شاملة لكل العلوم التي عرفها المسلمون من شرعية ولغوية وعقلية. لكن يغلب عليها الطابع العلمي والرياضي بصفة خاصة، لأن الواقف الحاج محمد الصبيحي كان من أشهر الرياضيين، وتمتاز هذه الخزانة أيضا باحتوائها على مجموعات كاملة من مؤلفات طائفة من علماء سلا والرباط وفاس وأدبائها بخطوط مؤلفها(13).

وهناك خزانة أخرى تضم أيضا مخطوطات مثل خزانة الأستاذ علال الفاسي بالرباط، وخزانة الأستاذ عبد الله كَنون بطنجة، وخزانة الأستاذ محمد داود بتطوان، وخزانة ابن سودة بفاس إلى غير ذلك...

ثانيا: آفاق فهرسة المخطوطات بالمغرب:

لاشك أن المجهودات التي بذلت في فهرسة المخطوطات بالمغرب هامة، إذ استفاد منها عدد من الباحثين العرب والأجانب، واعتبرت بالتالي خطوة رئيسية في سبيل المحافظة على التراث العربي الإسلامي بالمغرب أمام الاستنزاف الكبير الذي يعرفه هذا التراث، لكن تبقى مع ذلك بعض المشاكل:

- ضياع بعض مخطوطات المكتبات الخاصة: هناك بعض الأسر خاصة في الريف والمناطق الجبلية في الجنوب لا تقدر قيمة هذه المخطوطات، وبالتالي تظل باستمرار عرضة للضياع، فكثيرا ما كنا نسمع عن مخطوطات معينة توجد بالمنطقة الفلاحية، ولم يعد لها أثر اليوم.
- المحاولات المتكررة للباحثين الأجانب المهتمين بالتراث العربي الإسلامي بالمغرب لاقتناء هذه المخطوطات بأسعار مغرية، والأدهى قي كل ذلك أننا لا ندري وجهة هذه المخطوطات، بحيث أنها أصبحت في حكم المفقود.

- بالنسبة لمخطوطات المكتبة العامة، نلاحظ أن العديد منها غير مفهرس، والبعض منها تعرض للإتلاف، وقد تداركت الخزانة العامة ذلك، فقامت بترميم العديد من هذه المخطوطات.

التوصيـــات:

- يجب اعتبار التراث المخطوط بالمغرب ملك للشعب، وبالتالي لا يصح للأسر أن تتاجر فيه بالبيع، واتخاذ الإجراءات الضرورية لتحويل هذا التراث إلى المكتبات العامة.
- سن قوانين يمنع بمقتضاها على الأجانب إخراج أي تراث مخطوط من المغرب.
- تطوير جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق، سواء من حيث الزيادة في المكافأة، أو من حيث توسيع مجالها، بحيث تمتد إلى خارج المغرب، وذلك لإغناء المكتبة المغربية.
- توجيه طلاب الدراسات العليا لتحقيق المخطوط، فهذا في حد ذاته حفظ لهذا التراث من الضياع.

واخيرا نلاحظ أن هناك مجموعة من المآخذ التي يجب أن تأخذ بعين الاعتبار لمستقبل الفهرسة بالمغرب، ومن هذه المآخذ كون بعض المفهرسين لم يتحروا الدقة في نسبة بعض المخطوطات لأصحابها بل وفي صحة عناوينها مما يتطلب منا إعادة تصحيحها وضبطها مسايرة لبعض المحاولات الجادة السابقة. ولعل من ضمن الأسباب اعتمادهم على كتب معينة دون غيرها، فمثلا اعتمد العديد المفهرسين على كتاب واحد فقط مثل ، كتاب "تاريخ الآداب العربية" للمستشرق الألماني كارل بروكلمان في توثيق عناوين المخطوطات وأسماء مؤلفيها. وهذا الكتاب رغم أهميته لا تخفى علينا الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها مؤلفه، وكان الأجدر بهم أن ينوعوا مصادرهم، بالاعتماد على كتب أخرى للاستئناس والمقارنة. هذا بالإضافة إلى عدم تحريهم الدقة في ذكر أماكن وجود

نسخ كل مخطوط، وحتى إذا ما ذكروه اقتصروا على الخزائن الوطنية المعروفة فقط، ولم يهتموا بالبحث عنه داخل خزائن الزوايا والمساجد ولا خارج الوطن.

كما يؤاخذ على هذه الفهارس أنها تتبع نهجا إحصائيا، وكان الأحرى بالمفهرسين الاهتمام بفهرستها انطلاقا من مجالات فنونها ومواضيعها، مما كان سيساعد على إخراج فهارس متخصصة، أي أن لكل فن فهرسه الخاص به: مثلا فهرس في الأدب وآخر للعلوم، وآخر للكيمياء ...

- الهوامش :

1) ــ مجلة البحث العلمي، الرباط، الأعداد، 3، 4، 5، 6، 7، السنوات 64 – 1966.

2) ــ أنظر عن مخطوطات هذه الخزانة: محمد بن عبد العزيز الدباغ، "خزانة القرويين ودورها الإيجابي في حفظ التراث المخطوط" ضمن ندوة :المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي: وضعية المجموعات وآفاق البحث"، الدار البيضاء، 1990 ، ص 49 – 76.

3) ــ نشر في المطبعة البلدية بفاس سنة 1917، في 160 صفحة من الحجم المتوسط.

4) ــ مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، المجلد 5، الجزء الأول، السنة 1959، ص 3 – 16.

5) ــ أنظر عن مخطوطات خزانة ابن يوسف بمراكش، الصديق بلعربي، "خزانة ابن يوسف ومخطوطاتها: نظرة تاريخية"، ضمن ندوة "المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي"، الدار البيضاء، 1990، ص 77 – 94.

6) نشرته كلية الآداب والعلوم الإسلامية بمراكش سنة 1975.

7) ــ نشرته دار الغرب الإسلامي بيروت سنة 1994 في 548 صفحة.

8) ــ سماه "دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت"، وقد نشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، 1985.

9) ــ مجلة تطوان، العدد 8، لسنة 1963، ص 97 – 177.

10) – للمزيد من الإيضاح عن هذه الخزانة أنظر: محمد إبراهيم الكتاني، الندوة السابقة، ص 17– 21

11) ــ نشر ضمن مجموعة مطبوعات معهد الأبحاث العليا المغربية، باريس، 1921.

12) ــ مجلة هبسريس – الرباط – ضمن الجزء 12 لسنة 1931، ص 106 – 133.

13) ــ أنظر محمد حجي، الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، الندوة السابقة، ص 113 – 122.

مخطوطات علم الطب المغربية بالمكتبة الوطنية الجزائرية ودورها في رصد النشاط العلمي في المغرب الإسلامي

الأستاذ : شخوم سعدي
جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس

مقدمة:

تتجه معظم الدراسات الخاصة بتأريخ المغرب الإسلامي إلى التركيز على الجانب السياسي والاقتصادي في بعض الأحيان، ويبقى الجانب الثقافي والعلمي بحاجة إلى مزيد من الدراسات وإن وجدت هذه الدراسات فإنها تهتم بالعلوم أو الأدب والشعر دون العلوم الدقيقة، وهذا الوصف لا ينطبق تماما على كل مناطق المغرب، فقد نالت الأندلس الحظ الوافر من هذه الدراسات، والحقيقة أن هذا لا يعود إلى زهد الباحثين فقط في دراسة الحركة العلمية، بل إلى تواضع الإنتاج العلمي في هذا الجانب مقارنة بغيره من الأمصار لظروف تاريخية تمثلت في الاضطرابات السياسية وكذا إيثار المغاربة تعلم العلوم الدينية وقواعد اللغة العربية دون غيرها من العلوم كما يذكر ابن خلدون[1].

ولعل رصد نشاط الإنتاج العلمي في ميدان العلوم الدقيقة –والطب أحد اختصاصاتها– هو من أهم العناصر للمساهمة في تغطية النقص المشار إليه آنفا، الذي يبقى أكثر وضوحا في علم الطب الذي لا زالت مخطوطاته المغربية وحتى الأندلسية أحيانا تنتظر جهود الباحثين ليقوموا بدراستها وتحقيقها[2]. والمكتبة الوطنية الجزائرية تحتفظ بمجموعة لا بأس بها من المصنفات في الطب[3] بعضها مشرقي والبعض الآخر مغربي، ولقد تمّ التركيز على مخطوطات بعينها دون الأخرى وذلك لأسباب منها :

- أن بعض المخطوطات مشرقية وبالتالي لا تدخل في نطاق الدراسة مثل كتاب مهدي بن علي بن إبراهيم المهجي المقرئ اليمني "الرحمة في الطب والحكمة" تحت رقم م.م.5010. وكتاب امتحان الأدوية المفردة والمركبة منقول عن حنين بن إسحق والشيخ السديد بن بيان (ت 592 هـ) المتكون من 109 ورقة تحت رقم 1758، وكتاب سهيل المنافع في الطب والحكمة لإبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر الأزرقي المتكون من 172 ورقة تحت رقم 1771 عدا كتاب ابن ماسويه في الأشربة لكثرة اعتماد المغاربة عليه.
- المخطوطات المغربية غير المدروسة في نطاق الفترة العثمانية مثل كتاب مبين المسارب لأكل مع الطب والمشارب لأحمد بن قاسم بن محمد ساسي التميمي (1063هـ-1193هـ) (1653-1726م)، وكتاب الرموز في شرح العقاقير والعشاب لعبد الرزاق بن محمد بن حمادوش الجزائري (صاحب الرحلة كان حيا) في 1156هـ/1743م.
- وجود مخطوطات ضمن قائمة الطب لكنها جد مختصرة ولا يفي بغرض الدراسة مثل: ذهب الكسوف ونفي الظلمات في علم الطب لأبي محمد عبد الله بن عزوز المراكشي [4] وقد كتب في القرن الثالث عشر بخط مشرقي واضح ويتكون من إحدى عشرة ورقة وقد غلب عليه الأسلوب البلاغي ولم يطل الحديث عن الطب ضمن هذا المخطوط إلى في ثلاثة ورقات.

وسنحاول من خلال هذه الدراسة إبراز مدى الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه المؤلفات في إبراز حركية النشاط العلمي في المغرب الإسلامي، عبر الحديث عن دوافع التأليف، والمواضيع التي تناولتها هذه المخطوطات ومصادر الأطباء المغاربة في التأليف وصناعة الطب وكذا إضافتهم في هذه الميادين، والذي يجب ملاحظته هو أنه أثناء البحث يصعب إيجاد ترجمة بعض الأطباء المغمورين رغم أهمية تأليفهم مثل محمد بن

أحمد بن العاص الأندلسي الذي ينسب إليه مخطوط النبض القلبي[5]، كذلك تلف بعض المخطوطات التي أكتلتها الأرضة مثل كتاب زاد المسافر وقت الحاضر لابن الجزار الذي تعرضت بعض صفحاته للتلف وكذا كتابه الأدوية المفردة[6] ومع ذلك تبقى هذه الدراسة محاولة للبحث في علم الطب المغربي ومعرفة خصاصئه في حاجة إلى المزيد من الاتمام عبر رصد كتب الطب المغربية الأخرى الموجودة في المكتبات الجزائرية أو حتى التونسية والمغربية قصد جردها وتحقيقها لإكمال النقص الموجود في تغطية النشاط العلمي في االمغرب الإسلامي.

دوافع التأليف في كتب الطب المغربية :

عند مطالعة المخطوطات الطبية بالمكتبة الوطنية الجزائرية يلاحظ أن مقدمتها لا تكاد تخلوا من ذكر دوافع التأليف، ولهذا العنصر أهمية فهي إشارة إلى أسباب النشاط العلمي بالمغرب وعوامل ازدهار ويمكن ذكرها إجمالا في عاملين أسايين هما :

العامل السياسي: فقد ذكر بعض أصحاب المؤلفات الطبية أن سبب التأليف هو أمر سلطان وأمير، كما فعل ابن رشد[7] الذي صرّح في مقدمة كتابه "شرح الأرجوزة في الطب المنسوبة لابن سينا أن الذين أمروه بتأليف هذا الكتاب هو جملة من حضروا مجلس أبي الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن[8] وأنه هو الذي أمره بشرحها[9]، بالإضافة إلى ابن الجزار الذي يذكر في مقدمة كتابة المفردة هو "مناصحة الأمير الإمام التقي والخليفة المرضي القائم بأمر الله أمير المؤمنين .."[10]. ومن الأطباء الذين ألفوا كتبهم طلبا من الأمير أو لفائدته نجد كتاب في حفظ الصحة لأحمد بن عبد السلام الحسني الصقلي[11] حيث قال في مقدمة المخطوط: "... هذا مما عني بجمعه على حسب الاختصار للسلطان المؤيد المقام أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي فارس (عبد الرحمن بن أحمد المتوكل الحفصي (796هـ-837م/1394م-1434م)) بن مولانا السلطان المنعم المبرور المقدس الموحدي أبي العباس أحمد (بن محمد المستنصر (772هـ-

796م/1371م–1394م) موالينا الخلفاء الراشدين تغمدهم الله برحمته"[12] وهذه الإشارة تدل على أن تشجيع الأمراء المغاربة وحاجتهم الشخصية لبعض العلوم هي إحدى إلى اتساع نطاق التأليف فيها.

العامل العلمي: والمقصود به سعي الطبيب إلى الإضافة في ميدان الطب، مثل ابن الجزار[13] الذي صنف كتابا في الصيدلة أسماه الأدوية المفدرة ابتدأه بمقدمة تبين مدى سعي هذا الطبيب إلى وضع الجديد في هذا الميدان حيث يقول: "ولم أر لأحد من الأوائل المتقدمين ولا لمن تشبه ولا كلاما شافيا بحسب ما يجب أن يؤلف في هذا الباب الكريم المنفعة العظيم الفائدة في معالجة الاسقام والدواء إلا الرجل الذي يسمى دياسقوردوس[14] وجالينوس[15] فإن هذين الرجلين لا نهاية وراءهما ولا حجابة بعدهما فيما عنوه من هذا الفن غير أنا وجدنا ما عنوا من ذلك قد لحقه التغير عن بلوغ النهاية أكثر منافع الدوية ومضارها ومنسابها والمختار منها ولم يذكر طبائعها ولا كمينها وقوة كل واحد منهما في أي درجة هو من حرارة أو برودة أو رطوبة أو يبوسة، فأما جالينوس فإنه ذكر قوى أكثرها ولم يبالغ في ذكر منافعها ومضارها وخواصها المخصوصة بها ومع هذا الذي قدمناه فإن كل واحد منها فاضل ممدوح في فعله من أتا بشيء من الصواب مما ينتفع به كمن أتى به على التمام، الوجه الثاني أن كثيرا من الأدوية التي ألقاها في كتبها مجهول غير معروف في اللسان العربي وكثير منها معدوم غير موجود، والوجه الثالث أنهما تركا ذكر كثير من الأدوية المفردة التي لا غنى لأحد من الأطباء عنها ومعرفتها العموم لعموم منفعتها ..."[16].

إن هذا النص الفريد لابن الجزار نستشف منه معلومات مهمة حول التطور الذي عرفه علم الطب بالمغرب والغضافات التي جاء بها المغاربة، ومنها طبيعة الدواء، والتركيبة الكيميائية للدواء والدرجة الحرارية المعتمدة لتركيب الدواء وهذا دليل على أن المغاربة أخذوا يستفيدون من علم الكيمياء في صناعة الأدوية وعلى رأس هؤلاء ابن

الجزار فقد ذكر ابن أبي أصبعة بأنه كان قد وضع على باب داره سقيفة أقعد فيها غلاما له يسمى برشيق، أعد بين يديه جميع المعجونات والأشربة والأدوية، فإذا رأى القوارير بالغداة أمر بالجواز إلى الغلام وأخذ الأدوية منه نزاهة بنفسه أن يأخذ من أحد شيئا ويمكن نشبه هذه السقيفة بالمختبر الكيميائي[17].

وهناك نتيجة أخرى يمكن أن تستخرج من خلال هذا النص وهو عملية الترجمة التي قام بها ابن الجزار وهذه إشارة على حركية هذه العملية في المغرب. ومن المؤلفات الطبية ذات الغرض العلمي نجد كتابا دلائل النبض القلبي[18] لمحمد بن أحمد بن العاص الأندلسي[19]، ومن خلال هذا المخطوط مدى التطور الذي وصله الطب في المغرب الإسلامي حيث أصبح المغاربة يمكنهم معرفة نوع المرض من خلال المقارنة بين الانبساط والانقباض الذي يحدث في خفقان القلب وتأثير الحرارة في ذلك[20].

وهكذا كانت أغراض التأليف في الطب المغربي في مجملها العوامل التي أدت إلى تطور علم الطب المغربي وازدهاره، وهو ما أدى إلى الإضافات الجديدة التي أتى بها المغاربة التي ما تركه الإغريق في ميدان الطب وكذا اتساع نطاق التأليف وهذا ما نلاحظه من خلال المخطوطات المعتمدة كأمثلة، ولم يكن غرض التأليف هو العنصر الواضح في هذه المخطوطات بل أن المغاربة كانت لهم منهجية لا تكاد تختلف عن المشارقة في مجملها في تصنيف كتب الطب والصيدلة.

منهجية المغاربة في تأليف كتب الطب :

إنّ المطالع للمخطوطات الطبية بالمكتبة الوطنية يلاحظ تنوع مواضيعها، فهناك المؤلفات التي تهتم بدراسة أعضاء جسم الإنسان والأمراض التي تصيبها مثل كتاب حفظ الصحة لأحمد بن عبد السلام الذي يورد أعضاء جسم الإنسان عضوا عضوا، ثم يتحدث عن الأمراض التي تصيبها عادة وعلاجها في ثمانين بابا ابتداءً بالأذن مع لإعطائه ثلاثة أدوية لكل مرض يصيب عضوا من أعضاء الجسم[21]. وكذا كتاب

المنافع المبينة وما ينفع في الأربعة الأزمنة[22] لأبي إسحق إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني[23] الذي يتكون من ثمانية أبواب، مفردا لكل باب عضو من أعضاء الجسم والعلاج الذي يتبع في ذلك، ولم يكتف المغاربة بالحديث عن الأمراض التي تصيب أعضاء الجسم الخارجية بل ألفوا حتى في الأعضاء الداخلية وهو ما يمكن أن يقابل الطب الداخلي المتداول حاليا كاختصاص في الطب، والمخطوط السابق الذكر ينحو حذا المجال، فهو يفرد ثلاثة أبواب للحديث عن الأعضاء الداخلية وعلاجاتها، ففي الباب السادس يتحدث عن علاجات المرارة والمعدة والكبد وفي السابع عن الكلى والحصا وأرحام النساء[24]، حيث يسترسل في الأمراض التي تصيب هذه الأعضاء وعلاجاتها وكذلك كتاب حفظ الصحة ينحو هذا النحو في أمراض الأعضاء الداخلية وعلاجاتها[25].

وهناك كتب أخرى تدخل فيما يمكن أن نسميه بكتب الصيدلة، ويمكن أن نلاحظ أن هذه الكتب تنقسم إلى قسمين:

- الأدوية المفردة ككتاب ابن الجزار الاعتماد في الأدوية المقدرة وهي كتب تتحدث عن علاجات بالاعتماد على نباتات طبية.
- الأدوية المركبة ومنها كتاب زاد المسافر وقد الحاضر لابن الجزار وهو يتحدث عن الأدوية التي تستخرج عن طريق التركيب أو المزج بين النباتات والعقاقير[26]، وإذا كانت الأدوية المفردة تمثل بنباتات وأعشاب طبية سواءا تلك التي تنبت في المغرب أو التي يؤتى بها من غيره من الأمصار، فإنّ الأدوية المركبة تنقسم بدورها إلى أنواع ومنها نجد :

- الأقراص: وهي الأدوية المشكلة من خلط بعض النباتات[27].
- الدهن: وهناك دواء يكون على شكل دهن وهذا حسب النبات المستعمل[28].

- المعجون: وهي الأدوية التي يستعمل فيها النبات القابل للعجن[29].
- الضماد: فقد يستعمل بعض النبات في شكل ضماد لعلاج مرض داخلي[30].
- الرُب: وهو شراب حلو ما زال يستعمل كغذاء في بعض جهات الجزائر وقد أورده أحد الأطباء المغاربة في الحديث عن الأشربة مثل رب الرمان[31]، والطب الحديث ما زال يتعمل هذا النوع المسمى الشراب (Sirop).
- المربى: وهو سائل متخثر انباتات طبية مخلوطة[32].
- الدبيب: وهو شراب كذلك مثل دبيب ورد عشاوي (من أنواع الورود) "الدبيدُ"[33].

ولم يكن المغاربة يستعملون هذه الأدوية استنتاجا من كتب اليونان بل أنهم استفادوا كثيرا من علم الكمياء ومن المنهج التجريبي، وعلى سبيل المثال عند الحديث عن خروج الدم بالبول في كتاب زاد المسافر لابن الجزار نجده يعلل ذلك إلى أربعة احتمالات وهي :

- من الكبد – انخراق العروق – انشقاق عروق الكليتين – انخراق بعض عروق بطن الكليتين[34].

فنجده يقوم بملاحظة أسباب هذا الحديث غير الاعتيادي في جهاز البول ويربطه بأعضاء الجهاز نفسه، ولا يكتف هذا الطبيب بالملاحظة والتعليل بل أنه يقوم بالتجربة عند إيراده دواء نافه قائلا: "... وقد جربته مرار ..."[35].

و من خصائص المنهج العلمي الطبي لدى المغاربة هو المتابعة في أخذ الدّواء لمدة محددة كما فعل أحمد بن عبد السلام الصقلي عندما وصف دواءا للطحال و حدد مدة سبعة أيام لذلك [36] ، و كذلك ابن مساويه (أبو زكريا يحي بن ماسويه)، حيث يصف دواء مركبا في شكل شراب لمدة أربعة أيام [37] .

و هكذا يمكن أن نلاحظ طبيعة المنهج الطبي لدى المغاربة فإضافة إلى كونه علمي، فإنه لم يكن تقليدا لليونان بل كان الأكثر تطورا سواء في صناعة الطب أو التّأليف فيه، ويمكن أن نقول أنّ الطّب المغربي أقرب من الناحية للطب الحديث منه للطب القديم و هذا ما سنكتشفه من القراءات السابقة في المخطوطات ، و هذا لا يعني أن الطب في المغرب الإسلامي انطلق من فراغ، بل أن المغاربة انطلقوا بعد دراسة كتب الأقدمين اليونان خاصة.

مصادر أطباء المغرب في التّأليف :

كثيرا ما يورد المغاربة أسماء بعض الأطباء القدماء اليونانيون و حتى العرب إسنادا، وأخذا من كتبهم، هذا بالإضافة إلى التجربة الشخصية للطبيب التي يوردها أحيانا [38] ونادرا ما يورد المؤلف كتاب الطبيب الذي أخذ عنه لكنه اسم الطبيب ، و الأطباء المعتمدون لدى المغاربة قسمان :

الأطباء اليونانيين القدامى مثل أبقراط (**460** ق.م – **365** ق.م) هو رأس الأطباء اليونانيين، و نسبه ابن أبي صبيعة إلى أبراقليدس فهو أبقراط بن أبراقليدس و أهم كتبه : كتاب طبيعة الإنسان، كتاب الجنة، كتاب الفصول، و لعل هذا الكتاب هو الذي أخذ عنه ابن رشد في شرح الأجوزة لابن سينا [39] ، و كتاب الأمراض الحادة و كتاب الأخلاط [40] و من أهم الأطباء الذين يعتمد المغاربة على كتبهم و نلحظ هذا في المخطوطات التي نحن بصدد دراستها نجد الطبيب جالينوس، الذي له قيمة رفيعة لدى أهل المغرب إلى درجة الترحم عليه [41] و هو أكثر من يعتمد عليه الأطباء في تآليفهم [42] . بالإضافة ديسقوريدذس الذي تمت الإشارة إليه سابقا، و من أهم الكتب الطبية للأطباء المشار إليهم نجد كتاب الأدوية المركبة [43] .

و لا نجد في المخطوطات التي بين أيدينا الإحالة إلى أطباء اليونان فقط فهناك أطباء عرب و مسلمون آخرون و رأسهم حنين بن اسحاق [44] . و قد ذكره صاحب كتاب

المنافع المبينة و ما ينفع في الأربعة زمنة[45] ومن الأطباء الذين نجدهم في ثنايا هذه المخطوطات أبو زكريا بن ماسويه [46] و قد ذكره صاحب كتاب الأشربة في عداد من كان ينقل عنهم و الظاهر أنه كان يأخذ من كتاب الأشربة [47]

و هكذا يمكن ملاحظة أن تأليف هذه المصنفات الطبية بالاعتماد على التجربة الذاتية للمؤلف و كذا المصادر المتعددة (عربية و يونانية) قد أنتج إضافة هامة في ميدان الطب في المغرب الإسلامي من جهة وأعطى صورة مدى تمكن الطبيب المغربي من الثقافة المخالفة ولعل مطالعة كتاب الأدوية المفردة لابن الجزار تدل على مدى تمكنه من لغات عديدة مثل السيريانية[48] في الحديث عن نبات الدلب، والإغريقية في الحديث عن نبات أسطو فردوس[49] و الفارسية في الحديث عن نبات الباداورد الذي يسمى بريح الورد [50] والعبرية في الحديث عن النبات المستجلب من أرمينيا و خراسان المسمى بالأبيح و عربه بدم الاخوان [51]

الإضافة العلمية التي تحتويها المخطوطات الطبية:

لا تعتبر الكتب الطبية المدروسة مجرد تلخيص لما سبق أو تسجيل للتجارب العلمية للطبيب، فهي كذلك تحتوي على عناصر هامة تدل على مدى ما وصل غليه الطب في المغرب افسلامي و يمكن تلخيص هذه العناصر فيماي لي:

– استعمال الكيمياء في تطوير الأدوية و تحسينها: مثل تلك التجربة التي ينقلها صاحب كتاب حفظ الصحة أحمد بن عبد السلام لصقلي حيث أنه يصف علاجا لعسر البول يتم عن طريق وضع كمية من البلوط في الخل لمدة يومين ليلين ثم ييبس و يضاف إليه كمية من السماق[52]، و كذلك نجد أن المغاربة يعتمدون تسخين المواد الطبية، ووضعوا لها درجات معينة كما فعل ابن الجزار الذي وضع لها أربعة درجات[53] ويستعمل هذه العملية مع أغلب المواد التي يتحدث عنها

– تعدد مجالات استعمال الأدوية أو المواد الكيميائية المستعملة، فقد ذكر ابن

الجزار مادة تستعمل للكتابة تسمى بمداد شقائق النعمان حيث يحشى الشقائق في قارورة حشوا جيدا ثم تدفن في سيرقين رطب و يبدل السرقين كل ثلاثة أيام حتى ينظر إلى الشقائق قد ذابت و صارت ماءا و انحلت ثم تخرج القارورة فيكتب بمائها فإنه مداد لا يمح من الكاغد و لا من القرطاس و لا يذهب أثره، و كذلك عندما يتحدث عن فوائد البردي[54] كما تستعمل بعض الأدوية في التجميل مثل المحلول السابق الذي يخصب به الشعر[55] وهناك أدوية أشار إليها ابن الجزار تستعمل كذلك للتجميل مثل الماميثا الذي تستعمله نساء المغرب من أجل زيادة الوزن [56].

– متابعة الأمراض النادرة و إيجاد أدويتها كما فعل أحمد الصقلي الذي وصف مرضا يرى صاحبه بالليل ما يرى بالنهار [57].

– تطور وسائل تشخيص المرض بالاعتماد على النبض القلبي كما فعل محمد ابن أحمد ابن العاص الأندلسي في كتابه دلائل النبض القلبي الذي وضع فيه العوامل المؤثرة في انبساط و انقباض النبض كالحرارة[58] و كذا الحالة النّفسية [59] و حالة الجسد من النحافة و البدانة و السن و الحمل و مدى زيادة وزن الجنين [60].

و هكذا تستطيع أن تتعرف من خلال العناصر السابقة مدى المعلومات و الروح العلمية التي يتمتع بها الأطباء المغاربة.

وأخيرا يمكن القول أن علم الطب الذي كان من العلوم المقدسة فكثيرا ما يورد الأطباء حديث النبي صلى الله عليه و سلم : " العلم علمان، علم الديان و علم الأبدان"[61]، قد وصل إلى مرحلة متطورة في المغرب الإسلامي و لم يكن متخلفا عن مثيله في المشرق و هذا بفضل استنجاد المغاربة من علوم اليونانيين الأوائل و كتب الطب المشرقية وما تمتعوا به من روح علمية، نقدية حتى اتجاه من أخذوا منهم من اليونانيين كما فعل ابن الجزار [62] ، و ابن العاص الأندلسي [63].

إن المخطوطات المغربية و منها تلك الموجودة بالمكتبة الوطنية الجزائرية يمكن أن

تساهم في رصد حركية تطور العلماء بالمغرب الإسلامي إذا انصبت الجهود في هذا الاتجاه بل يمكنها حتى أن تفيد في دراسة الجانب الاقتصادي ففيها الكثير من الإشارات عن النباتات التي تزرع بالمغرب الإسلامي و كذا التي كانت تستجلب من الصين و الهند وحتى منطق أخرى مثل أرمينيا و خراسان [64].

الهوامش:

136- ابن خلدون (عبد الرحمن) – المقدمة، دار القلم، بيروت، ط: 1984، ص: 258.

2- هناك محاولات جادة قام بها بعض الدارسين المغاربة في هذا الميدان ولعل أهمها: محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس، دراسة وتراجم ونصوص، دار الغرب الإسلامي، 1988 (جزءان) وقد اشتملت هذه الدراسة على تحقيق كتب الطب التالية:

- التصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي.
- طب الرعب لعبد الملك بن حبيب.
- ثلاثة رسائل في الطب لأبي مروان عبد الملك بم زهر الأبادي.
- الكليات في الطب لأبي الوليد بن رشد الحفيد.
- شرح أرجوزة ابن سينا في الطب لابن رشد، وتحصيل غرض القاصد في تفضيل المرض الوافد.
- أبو عبد الله بن خلدون وتأليفه في حفظ الصحة.
- كتاب الاستقصاء في علاج الجراحات والورام لابن فرج القريليا في الجراح.
- كتاب الوصول إلى حفظ الصحة في الفصول لابن الخطيب.
- كتاب تحفه المتوسل لأبي عبد الله الشقوري.

3- ذكر جورج دلفان في كتابه: "القول الأحوط فيما تداول من العلوم وكتبها بالمغربين الأقصى والأوسط" بعض الأطباء والكتب الطبية التي كانت متداولة في المغرب ويترجم لهم قائلا :

- "المازري وهو الإمام الاشهر أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري المهدوي من أصحاب الشيخ أبي الحسن اللخمي، يعرف بالإمام أصله من مازونة بفتح الزاي وكسرها مدينة في جزيرة صقلية نزل المهدية أمام بلاد إفريقية وما وراء النهر من المغرب وكان آخر المشتغلين بإفريقية بتحقيق العلم ورتبة الاجتهاد ودقة النظر وكان يفزع إليه في الطب كما يفزع إليه في الفقه ويحكى أن سبب اشتغاله في الطب أنه مرض فكان يطبه يهودي فقال له اليهودي يا سيدي مثلي يطب مثلكم وأي قربة أجدها تقرب بها في ديني مثل أن أفقدكم فحينئذ اشتغل بالطب وممن أخذ عنه بالإجازة القاضي عياض، توفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وقد نيّف على الثمانين سنة.

– وناظم الهدية المقبولة وهو الإمام المراكشي وشارحها الإمام الفاسي، والقدوة العياشي المغربي وكلهم لم أقف على أسمائهم ولا على تاريخ وفاقهم.
– مختصر كتاب الرحمة العالم أبو علي بن الحسين بن علي بن طلحة الرجراجي الشوشاوي كان في النصف الأول من القرن التاسع. ومختصرها أيضا القدوة أبو عبد الله محمد بن علي بن تومرت الأندلسي صاحب كتاب قطرة الصانع في سمة الطبائع ولم أقف على تاريخ وفاهم.
– العلامة السنوسي والعلامة ابن زكري والعلامة البيدري.
– ومنهم ابن الحاج التلمساني وهو القدوة العلامة الطبيب الحكيم أبو عبد الله محمد بن الحاج بن عامر الغساني صاحب كتاب شموس الأنوار وكنز من كنوز الأسرار ولم أقف على تاريخ وفاته.
– ومنهم الولي القطب أبو محمد عبد الله بن عزوز المراكشي.
– وتلميذ القدوة أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد المكودي المراكشي كانا معا في آخر الثاني عشر وأخذا معا من الثالث عشر ولم أقف على تاريخ وفاهما معا.
– ومنهم القدوة الحجة الحافظ القاضي قطب الدين محمود بن مسعود ولد بمدينة سيرز في صفر سنة أربع وثلاثين وستمائة وكان إماما مبرزا في عدة علوم مثل العلم الرياضي والمنطق وفنون الحكمة والطب والأصولين وله عدة مصنفات منها نهاية الإدراك في الهيئة، وتحفة السامي في الهيئة أيضا وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه ومصنفاته وفضائله مشهورة وتوفي سنة عشر وسبعمائة عن ست وسبعين سنة وسبعة أشهر.
– جورج دلفان Georges Delphin ، كتاب القول الأحوط في بيان ما تداول من العلوم وكتبها.
– بالمغربين الأقصى والأوسط، بتحقيق الباحث الجزائري عبد الرحمن حمادو، كتاب مخطوط قيد الطبع، العلم السابع عشر علم الطب، ص1، ص2.

4– مؤرخ وطبيب في العهد الموحدي ولد بسوس وانتقل إلى مراكش: دلفان، المصدر السابق.

5– محمد بن أحمد بن العاص الأندلسي، دلائل النبض القلبي، مخطوط مصور ميكروفيلم: تحت رقم 5058، 10 ورقات.

6– أبو جعفر أحمد ابن إبراهيم ابن أبي خالد (بن الجزار) :

– زاد المسافر وقت الحاضر.

الأدوية المفردة. مجموع تحت رقم 1746، 225 ورقة.

7- هو أبي الوليد محمد بن محمد بن رشد ولد بقرطبة متمكن في الفقه والطب وكان ابن رشد قد استقر في إشبيلية قبل قرطبة قربة المنصور الموحدي وأدناه منه ثم عاد ونقم عليه بعد اهتمامه بالاشتغال بالفلسفة ثم توسط له أعيان إشبيلية فخلى سبيله وذلك سنة 595هـ وهي السنة التي توفي بها في مراكش ومن كتبه بداية المجتهد وبداية المقتصد في الفقه، كتاب الكليات، شرح أرجوزة ابن سينا في الطب، كتاب الحيوان، كتاب الضروري في المنطق: ابن أبي أصيبعة (موقف الدين أبي العباس أحمد بن القاسم).

عينون الأبناء في طبقات الأطباء – تحقيق د. نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، بدون سنة، ص–ص 532-531.

8- ذكره ابن سعيد في عداد أمراء المغرب الأوسط الموحدين في عداد ومن كتب عنهم أبو بكر عبد الرحمن بن مغاور وذكر أنه كان من الشعراء وله ديوان شعر ابن سعييد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، ط3، 1980ن، ج2، ص385.

9- ابن رشد، تعليقه على علي أرجوزة ابن سينا: شرح الأرجوزة المنسوبة لابن الرشد في الطب، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم: 1753، 142 ورقة بخط مغربي، ورقة 1 "وجه".

10- ابن الجزار ، كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة ضمن مجموع تحت رقم: 1746، 225 ورقة، خط مغربي ورقة: 114 (وجه) والأمير المقصود هنا هو القائم أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي (322-334هـ/934-946م).

11- ابن عبد السلام الصقلي عالم بالطب وله تصانيف أخرى غير كتابة حفظ الصحة، في حدود ما وصل إلينا من ترجمة وقد توفي سنة 820هـ/1417م، بتونس بعد أن ولد بصقلية :

- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت بدون سنة، ج1، ص: 273.
- شمس الدين محمد بن عبد الله السخاوين الضوء اللامع لهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج1، ص: 347.
- مصطفى بن عبد الله القسنطيني الحنفي (حاجي خليفة)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت: 1992/1413، مج2، ص: 1412.

12- أحمد بن عبد السلام الصقلي، كتاب حفظ الصحة، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1759، 11 ورقة، ورقة 1 ظهر.

13- هو أبو جعفرا أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد المعروف بابن الجزار، قيرواني كان والده طبيبا، تتلمذ على يد إسحق بن سليمان (ت 320هـ)، وإضافة إلى الطب فكان ضالعا في العلوم وسائلا إلى الزهد وله تصانيف في التاريخ وتوفي وعمره فاق الثمانين سنة: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 188.

14- دياسقوريجوس: طبيب يوناني ظهر في القرن الأول الميلادي له كتاب في علم النبات: المصدر السابق، ص26، هامش 2.

15- جالينوس (59م-146م): طبيب روماني ظهر في قرية تبعيا من طوح الأنبار بالعراق ثم انتقل أثينا وروما والاسكندرية وتوفي بالفرعا إحدى مدن مصر القديمة في جهة الشرق، ومن أهم كتبه كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة، كتاب النبض الكبير، كتاب الأدوية المفردة، كتاب تركيب الأدوية.

المصدر السابق، ص-ص 109-140 بتصرف.

16- ابن الجزار، الأدوية المفردة، مخطوط بالمكتبة الوطنية، ضمن مجموع (الاعتماد في الأدوية المفردة)، تحت رقم 176، ويبدأ الكتاب من ورقة 113 ظهر إلى ورقة 216 وجه، ورقة 113 ظهر.

17- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص: 481.

18- لابن عاص الأندلسي، مخطوط بالمكتبة الوطنية (كيكروفيلم)، تحت رقم م م 5058، (10 ورقات)، ضمن مجموع: ورقة: 57 (وجه) (57-61).

19- هو محمد بن أحمد بن أبي العاص الأندلسي وليس بن العاص كما هو مكتوب في فهارس المكتبة الوطنية في باريس أو المكتبة الوطنية الجزائرية له رسالة في تحقيق الوباء على غرار هذه الرسالة.

20- ابن العاص الأندلسي، دلائل النبض القلبي، ورقة 57 (ظهر).

21- أحمد بن عبد السلام، كتاب حفظ الصحة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم: 1759، ورقة 2 (ظهر).

22- إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني، المنافع المبينة وما ينفع في الأربعة الأزمنة، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1777، (138 ورقة)، ورقة 23 (ظهر).

23- هو إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني، من تلامذة أبي عبد الله الشريف التلمساني ووفاة الثغري قد تكون في أوائل القرن التاسع له رسالة في الطب في شكل قامون وله رسالة في الأدوية ومنافعها: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب 1985، ص—ص: 106-105.

24- نفسه.

25- أحمد بن عبد عبد السلام الصقلي، كتاب حفظ الصحة، ورقة 09 (وجه).

26- ابن الجزار، زاد المسافر وقد الحاضر، ورقة 4 (وجه).

27- نفسه.

28- نفسه ورقة 6 ظهر.

29- نفسه.

30- المصدر السابق، ورقة 110 (ظهر).

31- مجهول، الأشربة، مخطوط ضمن مجموع رقم 1746، بداية من الورقة 108 ظهر، ونلاحظ أن فانيان المفهرس للمخطوطات المكتبة الوطنية (بعضها) قد ذكر بأن مخطوط ابن ماسويه يبتدأ من الورقة 76 (وجه) إلى الورقة 113 (وجه) لكن مطالعة هذا المجموع تبين بأن كتاب ابن ماسويه ينتهي في الورقة 108 (ظهر) بعبارة تم الكتاب والحمد لله رب العالمين. هذه الأشربة من كتاب غير هذا وبالله التوفيق ويصل هذا الكتاب إلى الورقة 113 (ورقة).

32- نفسه.

33- نفسه، ورقة: 1087 (ظهر).

34- ابن الجزار، زاد المسافر، ورقة 08.

35- نفسه، ورقة 14 (وجه).

- أحمد بن عبد السلام الصقلي ، حفظ الصفحة ، ورقة 09 (وجه)

37- يحي بن محمد با أحمد (بن ماسويه)، كتاب ماء الشعير ، مخطوط بالمكتبة الوطنية ضمن مجموع رقم 1746، ورقة 97 (وجه)

38 – ابن الجزار زاد المسافر، ورقة 14 (وجه)

39 – ابن رشد، شرح أرجوزة ابن سينا في الطب، ورقة 8 (ظهر)

40– ابن أبي أصبعية ، عيون الأنباء ، ص– ص : 43–54

41– ابراهيم التلمساني ، المنافع المبنية و ما ينفع في الأزمنة الأربعة ، ورقة 22 (ظهر)

42 – يتردد كثيرا اسم جالينوس في المخطوطات المدروسة و على سبيل المثال لا الحصر نذكر بعض الأماكن التي ورد فيها من المخطوطات :

– ابن الجزار ، زاد المسافر ، ورقة 52 (وجه)

– ابن الجزار ، كتاب الإعتماد في الأدوية ، ورقة 113 (ظهر)

– ابن رشد ، شرح أرجوزة ابن سينا ، ورقة 109 (ظهر)

43 – ابراهيم التلمساني، المصدر السابق ، ورقة 109 (ظهر)

44– هو أبو زيد حنين بن اسحاق العبادي ، كان شيخه في العربية في بداية الأمر الخليل بن أحمد ، ثم انتقل إلى بغداد و تتلمذ على يوحنا بن ماسويه (ت 243 هـ) و له من الكتب : كتاب المسائل و هو المدخل إلى صناعة الطب، و كتاب العشر مقالات في العين، كتاب في النبض و غيرها كثير و كان مولده سنة 194 هـ و وفاته سنة 264هـ ، و يوجد مخطوط منقول عنه بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 1758 (109 ورقة)

45– ورقة 23 (ظهر)

46– هو أبو زكريا يحي بن ماوسيه (يحي بن محمد بن أحمد) كان طبيب هارون الرشيد و تولى بيمارستانا في بغداد و ثم أصبح طبيب المأمون و الواثق و ترجم كثيرا من المصنفات اليونانية له نوادر في الطب، كتاب الحميات جواهر الطبيب المفردة و قد توفي سنة 243هـ /857 م

كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة، د. سيد يعقوب بكر، رمضان عبد التّواب، دار المعارف ، ط3 ، ج3، ص–ص : 264–265

47– مجهول، كتاب الأشربة ضمن مجموع تحت رقم: 1746 . الأوراق (108–113) ، خط مغربي ، ورقة : 108 (ظهر)

48- ابن الجزار ، كتاب الأدوية المفردة، ورقة 129 (وجه) و كذا ورقة 147 (وجه)

49 -نفسه، ورقة 129 (ظهر)

50 -نفسه ورقة 134 (ظهر) ، و كذا ورقة 148 (وجه)

51 -نفسه ورقة 187 (وجه)

52 -أحمد بن عبد السلام الصقلي ، كتاب ، حفظ الصحة ، ورقة 10 (وجه)

53- ابن الجزار، كتاب الإعتماد في الأدوية المفردة ، ورقة 158 (ظهر)

54 -نفسه، ورقة 162(وجه)

55 -المصدر السابق، ورقة 119 (ظهر)

56 -نفسه، ورقة 159 (وجه)

57 - أحمد بن عبد السلام الصقلي، كتاب حفظ الصحة، ورقة (5) (وجه)

58 -محمد بن أحمد ابن العاص الأندلسي، دلائل النبض القلبي ، ضمن مجموع ميكروفيلم تحت رقم : م 5058 ، (57-61) من المجموع ، خط مشرقي ، ورقة 57 (وجه)

59 -المصدر السابق، ورقة 57 (ظهر)

60 -المصدر السابق، ورقة 58 (وجه)

61-المصدر السابق ، ورقة 57 (وجه) ، و كتاب المنافع المبينة و ما ينفع في الأربعة أزمنة ، ورقة 23 (ظهر)

62- ابن الجزار ، المصدر السابق ، ورقة 113 (وجه)

63- ابن العاص الأندلسي ، المصدر السابق ، ورقة : 58 (وجه)

64- ابن الجزار المصدر السابق الأوراق : 153 (ظهر) ، 176 ، 187 (وجه)

فهرس المواضيع

بهاء الدين
للنشر والتوزيع

ISBN.9961-948-19-4

9 789961 948194